ك. غ. يونغ
ريتشارد فيلهلم

سر الزهرة الذهبية

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي





سر الزهرة الذهبية

الكتاب: سر الزهرة الذهبية
المؤلف: ريتشارد فيلهلم / كارل غوستاف يونغ
المترجم: عدنان حسن
الطبعة الأولى: 2013/1

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنسخة الإنجليزية عن النص الألماني:

DAS GEHEIMNIS DER GOLDENEN BLÜTE/
THE SECRET OF THE GOLDEN FLOWER
A Chinese Book of Life

Richard Wilhelm
With a Foreword and Commentary by
C. G. Jung

ISBN: 978 – 9933 – 477 – 42 - 4

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
اللاذقية، سورية، ص. ب1018
هاتف وفاكس: 339 422 41 963+

البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

ريتشارد فيلهلم   كارل غوستاف يونغ

سر الزهرة الذهبية

ترجمة: عدنان حسن

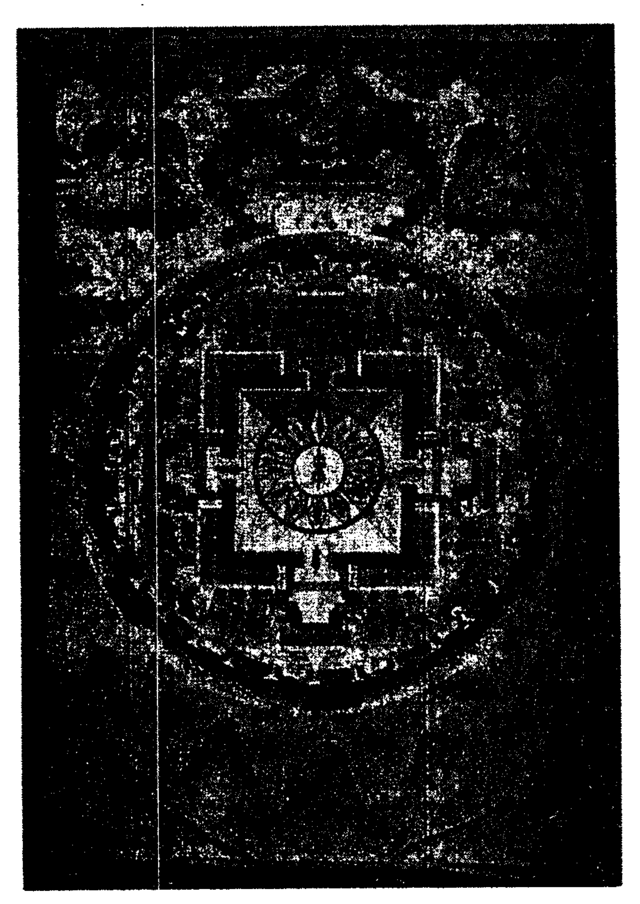


تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج "أضواء على حقوق النشر" في
أبو ظبي

this edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi.

دار الحوار





A Lamaist Vajry - Mandala

مندالة فاجري لا مائية، تدرس في الاستعداد للتأمل

مقدمة الترجمة الإنكليزية

ظهرت الطبعة الألمانية الأصلية من كتاب **سر الزهرة الذهبية**، التي يمثل هذا الكتاب الترجمة الإنكليزية المجازة لها، لأول مرة في خريف عام 1929. في الأول من آذار 1930، توفي ريشارد فيلهلم. في أيار1930، أقيمت المراسم التأبينية في ميونيخ، وطلب من يونغ أن يلقي الخطاب الأولي. وهذا الخطاب يجد له مكاناً مناسباً في النسخة الإنكليزية[1]، المنشورة بعد عام أو أكثر على وفاة المؤلف المشارك [يونغ]. وسيلقى الخطاب ترحيباً، ليس فقط بسبب ما يحكيه لقارىء فيلهلم، بل بسبب المزيد من الضوء الذي يلقيه على وجهة نظر الشرق. إن علاقة الغرب بالفكر الشرقي هي علاقة مفارقة ومشوشة إلى حد كبير. فمن ناحية أولى، كما يشير يونغ، ينسل الشرق بيننا عن طريق الباب الخلفي للاوعي، ويؤثر فينا بقوة بأشكال ملتوية، ومن الناحية الأخرى، فإننا نقاومه بتحامل عنيف باعتباره يعنى بميتا فيزيق وهمي مسمم للعقل العلمي.

---

[1]. انظر الملحق في آخر الكتاب.

إذا كان ثمة أحد يراوده الشك في مدى تأثير الشرق فينا بطرق خفية، فليستقص ولو بشكل مختصر الحقول التي يغطيها اليوم ما يدعى " الفكر السحري" occult thought. فهذه الحركات تضم ملايين الأشخاص، وتطغى الأفكار الشرقية عليها جميعاً. بما أنه لا توجد في أي مكان علامة [تدل] على فهم سايكولوجي للظاهرات التي تستند عليها، فإنها تخضع لتحريف كامل وتشكل تهديداً حقيقياً في عالمنا.

إن الإدراك الجزئي لما يجري في هذا الاتجاه، مع الجهل الفطري للغربي بعالم الخبرة الباطنية وارتيابه به، يزيد من التحامل ضد حقيقة الحكمة الشرقية. عندما توضع حكمة الصينيين أمام غربي، فمن المرجح جداً أن يسأل برفعة حاجبين متشككة: لماذا لم تنقذ هذه الحكمة العميقة الصين من أهوالها الحالية؟ وهو، بالطبع، لا يكف عن الظن بأن الصيني يسأل بالقدر نفسه من التشكيك عن السبب في أن المعرفة العلمية للغرب التي يتبجح بها بالقدر نفسه، ناهيك عن أخلاقه المسيحية التي يتبجح بها بالقدر نفسه، لم تنقذه من حرب عالمية. لكن الأوضاع الحالية في الصين، في الواقع، لا تبطل الحكمة الصينية، ولا الحرب العظمى أثبتت عبثية العلم. في الحالتين نتعامل مع الجوانب السلبية للمباديء التي يعيش في ظلها الشرق والغرب، ولم يقيض حتى الآن، سواء للأفراد أو للأمم، أن يتدبروا شرور فضائلها. إن سيادة العالم الداخلي، مع الاحتقار النسبي للعالم الخارجي، يجب أن تقود حتماً إلى كوارث عظيمة. أما سيادة العالم الخارجي، إضافة إلى استبعاد العالم الداخلي، فتودي بنا إلى القوى الشيطانية لهذا العالم، وتبقينا بربريين رغم كل الأشكال الظاهرية للثقافة. لا يمكن إيجاد الحل بالسخرية من الروحانية الشرقية بوصفها عقيمة أو عن طريق الارتياب بالعلم بوصفه مدمراً للبشرية. ينبغي علينا أن

نرى أن الروح يجب أن تستند على العلم بوصفه هاديا لها في عالم الواقع، وأن العلم يجب أن يلتفت إلى الروح من أجل معنى الحياة.

هذه هي وجهة النظر المكرسة في هذا الكتاب. فمن خلال الجهود المشتركة لفيلهلم ويونغ نمتلك لأول مرة طريقة لفهم وتثمين الحكمة الشرقية التي ترضي كافة جوانب عقولنا. لقد تم إخراجها من الميتافيزيقا ووضعها في التجربة السايكولوجية. إننا نقاربها بأداة جديدة كليا، ونحن محميون من التحريفات التي يخضع لها الشرق على أيدي دجالي الغرب. وفي الوقت نفسه، يتعمق معناها بشكل كبير بالنسبة لنا عندما نعرف أننا، رغم البون الذي يفصلنا عن الشرق، نتبع طرقاً مماثلة تماماً عندما نلتفت إلى العالم الداخلي.

لكن هذا الكتاب لا يعطينا مقاربة جديدة للشرق فحسب، بل يعزز وجهة النظر الناشئة في الغرب بخصوص النفس البشرية أيضاً. إن إعادة تشكيل القيم، الجارية اليوم، تخرج الإنسان الحديث من عالم طفولي من التقاليد الجماعية إلى عالم راشد من الاختيار الفردي. فهو يعرف أن اختياره وقدره يعتمدان الآن على فهمه لذاته. لقد تعلم الكثير في السنوات الأخيرة حول العناصر غير المشكوك فيها حتى الآن في نفسه، لكن التشديد يكون في غالب الأحيان أيضاً على الجانب السكوني وحده، بحيث يجد نفسه مهووساً بما هو أكثر قليلاً من جرد لمحتويات تفيد طبيعتها في تثقيله بالإحساس بالتعب بدلاً من حثه على التغلب على المشاكل التي تواجهه. مع ذلك فإن حاجة الإنسان الحديث إلى فهم ذاته بلغة التغير والتجدد هي بالضبط الأكثر استحواذاً على مخيلته. إنه، وقد رأى عالم المادة يتلاشى أمام عينه العلمية ويعاود الظهور كعالم من الطاقة، يسأل ذاته سؤالاً جريئاً: ألا يحتوي داخل نفسه البشرية مخزوناً من القوى غير المستكشفة التي، إذا فهمت بشكل صحيح، ستمنحه رؤية جديدة لذاته وتساعد في صون المستقبل لأجله؟

في هذا الكتاب يجاب على سؤاله من مصدرين مختلفين اختلافا كبيرا هما: اليوغا الصينية وعلم النفس التحليلي. إن كتاب **سر الزهرة الذهبية**، مجرداً من إطاره القديم، هو سر قدرات النمو الكامنة في النفس، وهذه القدرات ذاتها كما تتكشف في عقول الغربيين أيضاً تشكل موضوعة تعليق يونغ. لقد كشف يونغ في التعليق التطورات السايكولوجية العميقة الناتجة عن العلاقة الصحيحة بالقوى داخل النفس.

في الطبعة الألمانية يأتي تعليق يونغ أولاً، يليه بسط فيلهلم للنص، ومن ثم النص ذاته. بناء على طلب يونغ، تم تغيير الترتيب بحيث صار التعليق يلي النص. إن المفردات الصينية في هذه الطبعة مكتوبة بالأحرف الإنكليزية. لإجراء الترجمات الصوتية الضرورية، أنا مدين لكل من السيد أرثر ويلي وللكولونيل ف. س. إغرتون. فقد كان الأخير لطيفاً بما يكفي لأن يولي تحرير مخطوطي اهتمامه الشخصي.

لقد أضفت ملخصين، أحدهما كتابي والآخر تخطيطي، وذلك كمساعدة ممكنة في الأخذ في الحسبان العلاقات بين المفاهيم الصينية المختلفة مثل هسينغ ـ مينغ، كوي ـ ش، الخ.... لحسن حظي، أنني أنجزت هذه الترجمة تحت إشراف الدكتور يونغ، ولهذه الحقيقة، وللعون الذي تلقيته من السيدة يونغ، أدين بنجاحي الذي قد أكون حققته في مواجهة المصاعب المقدمة. لقد كان امتيازاً لي أيضا أن تقرأ الدكتورة إرلا روداكيفيتز المخطوط وتنقده، فأنا ممتن لها بعمق لمساعدتها التي لا تقدر بثمن.

كاري ف. باينز

زيوريخ، آذار، 1931

ملاحظة المترجم الإنكليزي على الطبعة المنقحة الجديدة

انقضت ثلاثون سنة منذ ظهور الطبعة الإنكليزية الأولى من كتاب سر الزهرة الذهبية. لقد نشبت حرب عالمية ثانية وثمة حرب عالمية ثالثة تحوم كإمكانية. إن الإنسان يبسط قوته على العالم الخارجي بدون عائق أو عرقلة. وسط هذا الاهتمام بما هو خارج الذات، تتراجع " قارة الروح" في الأفق، فهل لا تزال موجودة؟ الطبعة الجديدة من هذا الكتاب هي جواب بالإيجاب. إنها تذكرنا بأن الإنسان لم يفقد أبداً رؤيته لقارة الروح وأن غزو "الفضاء الداخلي"، فهم النفس البشرية، سيبقى الهدف الإنساني الأبعد. إن كارل غوستاف يونغ، الذي كرس أعماله بالكامل لهذا الهدف، قد توفي في عام 1961. سيرى قراء هذه الطبعة فيها إحياء لذكراه بوصفه مؤلفاً مشاركاً لهذا الكتاب.

أضيفت إلى الطبعة الألمانية الخامسة من كتاب سر الزهرة الذهبية بضع صفحات من نص صيني آخر حول اليوغا ذي صلة وثيقة بنص سر الزهرة الذهبية. إنه الهوي مينغ تشينغ أو كتاب الوعي والحياة

الصيني. هذه المادة الجديدة تظهر الآن للمرة الأولى باللغة الإنكليزية، ومع الملاحظة التمهيدية عليها بقلم سالومي فيلهلم، التي تتضمن تعليقاً مقتضباً لكنه هام من قبل زوجها على الهوي مينغ تشينغ. ثمة مادة جديدة أخرى تظهر بالإنكليزية للمرة الأولى هي مقدمة يونغ للطبعة الألمانية الثانية.

لقد تسبب التنقيح في بعض التغييرات الجذرية في المصطلحات في هذه الطبعة. فبناء على نصيحة هلموت فيلهلم، عدل مصطلح هسينغ الذي ترجم بكلمة "جوهر" (Wesen)، إلى "جوهر الطبيعة البشرية"، أو باختصار، "الطبيعة البشرية". إن هسينغ الذي غالباً ما يترافق مع مينغ، الحياة، هو، مثل المينغ، مبدأ كوني. من المدهش للقاريء الأوروبي، بالطبع، أن يفكر بالطبيعة البشرية بهذه المصطلحات، لكن الفكرة أساسية للفلسفة الصينية. ثمة مبدأ عالمي ثالث، الهوي، ذو أهمية في الطبعة الجديدة بسبب الهوي مينغ تشينغ. إن الهوي، الوعي، يرتبط بالهسينغ، الطبيعة البشرية، لكنه ليس متطابقا معه. ثمة رابط مشترك هو أنهما ضدان لمصطلح مينغ، الحياة، لكنهما مفهومان مستقلان في الفكر الصيني.

ثمة تغيير آخر في الترجمة، اجري أيضا بناء على نصيحة هلموت فيلهلم، هو استبدال "طاقة" بكلمة" قوة" (Kraft). إن طاقة التدفق نحو الوراء هي مثال على ذلك.

لقد تم تنقيح الترجمة بدقة وتمت مراجعتها من أجل الأخطاء المكنة. لقد أدت مساعدة هلموت فيلهلم في تنقيح الجزء من الكتاب الذي كتبه والده إلى تحسينات كثيرة إضافة إلى التحسينات المذكورة أعلاه. إنني مدين

له من أجل المادة الواردة في عدد من الهوامش الجديدة التي أدخلها، ومن أجل العبارات بخصوص علاقة هسينغ ومينغ وهوي.

لقد قدمت لي ابنتي زيمينا دي أنغولو عوناً لا يمكن الاستغناء عنه فيما يتعلق بتنقيح الكتاب ككل.

كاري. ب. باينز
موريس، كونيكتيكوت / 1961



مقدمة الطبعة الألمانية الثانية

أرسل لي صديقي المرحوم ريشارد فيلهلم، المؤلف المشارك لكتاب سر الزهرة الذهبية في وقت كان حرجاً لأجل عملي الخاص. كنت منشغلاً باستقصاء سيرورات اللاوعي الجمعي منذ عام 1913، وحصلت على نتائج بدت لي مشكوكاً فيها في أكثر من جانب. فهي لم تكن تقع خارج كل ما هو معروف لعلم النفس "الأكاديمي" فقط، بل كانت تتخطى خطوط علم النفس الطبي، الشخصي على نحو ضيق. هذه المكتشفات لم تكن لها أية علاقة بعلم الظاهرات الواسع الذي لم يعد بالإمكان أن تطبق عليه المقولات والطرق المعروفة حتى حينه. إن نتائجي القائمة على خمسة عشر عاماً من الجهد، بدت غير حاسمة لأنه لم تظهر أي مقارنة ممكنة. لم أعرف أي حقل من حقول الخبرة البشرية يمكنني أن أدعم به اكتشافاتي بدرجة ما من الاطمئنان. إن التشابهات الجزئية الوحيدة - وهذه التشابهات، كما يجب أن أقول، كانت بعيدة في الزمن - وجدتها مبعثرة عبر تقارير علماء الهرطقة heresiologists. هذه الصلة لم تسهل مهمتي بأي شكل من الأشكال؛ على العكس من ذلك، جعلتها أكثر صعوبة: فالأنظمة الغنوصية

[العرفانية] تتألف في جزء صغير منها فقط من خبرات نفسية مباشرة، أما الجزء الأكبر فيتألف من مراجعات تأملية وممنهجة. بما أننا لا نمتلك سوى نصوص مفصلة قليلة جداً، وبما أن جل ما هو معروف يأتي من تقارير مناوئين مسيحيين، فإننا نمتلك، في الحد الأدنى، معرفة غير وافية بتاريخ، إضافة إلى مضامين، هذا الأدب المشوش والغريب، الذي تصعب الإحاطة به. علاوة على ذلك، مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أن فترة لا تقل عن سبعة عشر إلى ثمانية عشر قرناً تفصل الحاضر عن الماضي، كان الدعم من ذاك الحقل يبدو لي محفوفاً بالمخاطرإلى أقصى درجة. مرة أخرى، كانت الصلات في جزء منها خصيصة ثانوية، وتركت ثغرات في القضية الرئيسية، وهو ما جعل من المستحيل بالنسبة لي أن أستفيد من المادة الغنوصية.

إن النص الذي أرسله إلي فيلهلم قد ساعدني في الخروج من هذا الارتباك. فقد كان يحتوي بالضبط على تلك الأجزاء التي كنت أبحث عنها عبثاً بين الغنوصيين. لهذا أصبح النص فرصة مرحباً بها لنشر بعض النتائج الأساسية لاستقصاءاتي، على الأقل بشكل مؤقت.

في ذاك الوقت بدا من غير المهم بالنسبة لي أن **سر الزهرة الذهبية** ليس نصاً طاوياً من اليوغا الصينية فقط بل هو نص خيميائي أيضاً. مع ذلك، فإن دراسة لاحقة أكثر عمقاً للكراسات اللاتينية قد صححت وجهة نظري وبينت لي أن الطبيعة الخيميائية للنص هي ذات أهمية أولى. لكن هذا، بالتأكيد، ليس هو المكان للدخول في مزيد من التفاصيل حول النقطة. سأركز فقط على حقيقة أن نص **الزهرة الذهبية** هو أول ما وضعني في اتجاه المسار الصحيح. لأننا نمتلك في الخيمياء صلة الوصل التي طالما بحثت عنها بين الغنوصية وسيرورات اللاوعي الجمعي، التي يمكننا أن نرصدها اليوم في الإنسان الحديث.[1]

أنتهز هذه الفرصة للإشارة إلى بعض سوء الفهم الذي وقع ضحيته حتى قراء هذا الكتاب الحسني الاطلاع. ليس من النادر أن الناس كانوا يعتقدون أن هدفي في نشر هذا الكتاب هو أن أضع بين أيدي العامة طريقة لتحقيق السعادة. في سوء الفهم الإجمالي لكل ما أقوله في تعليقي، حاول هؤلاء القراء أن يقلدوا "الطريقة" الموصوفة في النص الصيني. لنأمل لو أن هؤلاء الممثلين للعمق الروحي كانوا قليلي العدد!

ثمة سوء فهم آخر تسبب في نشوء الرأي القائل بأنني، في التعليق، قد صورت إلى حد معين طريقتي العلاجية النفسية التي تقوم، كما قيل، على اقتراحي على مرضاي أفكاراً شرقية لأغراض علاجية. لا أعتقد أن ثمة شيئاً في تعليقي يلائم ذاك الصنف من الخرافة. بأي حال من الأحوال فإن هذا الرأي خاطيء في مجمله، وهو يستند على التصور الواسع الانتشار القائل بأن علم النفس هو اختراع لأجل غرض محدد وليس علماً تجريبياً [إمبريقياً]. إلى هذه الفئة ينتمي الرأي الغبي بالقدر نفسه القائل بأن فكرة اللاوعي الجمعي هي فكرة "ميتافيزيقية". إنها مسألة مفهوم تجريبي يجب أن يوضع جنباً إلى جانب مع مفهوم الغريزة، كما هو واضح لأي شخص سيقرأ بشيء من الاهتمام.

لقد أضفت إلى هذه الطبعة الثانية الخطاب التأبيني لريشارد فيلهلم الذي ألقيته في الاحتفال بذكراه، في 10 أيار / مايو 1930، في ميونيخ. وقد نشر قبلئذ في الطبعة الإنكليزية الأولى في عام 1931.[2]

هوامش

(1). سيجد القاريء المزيد حول ذلك في مقالتين نشرتهما في *Eranos Jahrbuch 1936 and 1937*. (يمكن الآن إيجاد المادة في كتاب يونغ، **علم النفس والخيمياء**، سلسلة بولينغن X11، لندن ونيويورك، 1953، س. ف. ب.)

(2). **سر الزهرة الذهبية**، لندن ونيويورك، 1931.

مقدمة الطبعة الألمانية الخامسة

أضيفت إلى هذه الطبعة ترجمة القسم التمهيدي من نص تأمل آخر ينحدر من تراث مشابه لنص يشكل **سر الزهرة الذهبية** جزءاً منه، ويظهر مع الأخير في الطبعة الصينية. كتب ريشارد فيلهم المقدمة الموجزة التالية لنص التأمل هذا في عام 1926:

"إن **الـهوي مينغ تشينغ**، أو **كتاب الوعي والحياة**، قد كتبه ليو هوا-يانغ في عام 1794. ولد المؤلف في مقاطعة كيانغسي، وأصبح فيما بعد راهباً في دير زهرة اللوتس المزدوجة (شوانغ - ليين - سو) في مقاطعة آنهوي. تمت الترجمة عن طبعة جديدة من ألف نسخة طبعها مع **سر الزهرة الذهبية** في عام 1921 رجل يحمل الاسم المستعار هوي - تشن - تزو (الذي أصبح واعياً للحقيقة).

"يدمج النص الإرشادات البوذية والطاوية لأجل التأمل. الرؤية الأساسية هي أن منطقتي النفس البشرية، الوعي واللاوعي، تصبحان منفصلتين عند الولادة. فالوعي هو العنصر الذي يحدد ما هو مفصول، مُفَرْدَن individualized، في الشخص، واللاوعي هو العنصر الذي يوحده

مع الكون. إن توحيد العنصرين عن طريق التأمل هو المبدأ الذي يقوم عليه الكتاب]. اللاوعي يجب أن يُخصب عن طريق كون الوعي مغموراً فيه. بهذه الطريقة ينشّط اللاوعي وبذلك يدخل، سوية مع الوعي الغني، إلى مستوى عقلي ما فوق شخصي على شكل إعادة ولادة روحية.

ثم تؤدي إعادة الولادة هذه أولاً إلى تمايز داخلي مضطرد للحالة الواعية إلى بنى تفكير مستقلة. مع ذلك، تؤدي نتيجة التأمل بالضرورة إلى إزالة كل الاختلافات في الحياة المتكاملة النهائية، التي تكون خالية من الأضداد".

ظهرت الترجمة الألمانية [لنص التأمل هذا] لأول مرة في المجلد الثالث من كتاب **صحائف صينية للعلم والفن** *Chinesische Blätter für Wissenschaft und Kunst* دار مشتات، 1926، ص ص 104ـ 114، بترجمة ل. س. لو L.C.Lo. كان الدكتور لو في ذاك الوقت مشاركاً لريشارد فيلهلم وسكرتيراً لمعهد الصين في فرانكفورت أم ماين. أُنجزت الترجمة بناء على اقتراح ريشارد فيلهلم وقام هو بتنقيحها، بحيث أنها تقترب في شكلها الحالي اقتراباً شديداً من أسلوب ترجمة **سر الزهرة الذهبية**. ولما كان كتاب **الصحائف الصينية** قد صدر في طبعة محدودة جداً، بدا من المناسب أن ننتهز هذه الفرصة لجعل النص متاحاً لدائرة أوسع من القراء.

سالومي فيلهلم 1957

مناقشـــة النـــص

بقلم ريتشارد فيلهلم



أصل ومحتويات التاي آي تشتن هوا تسونغ تشيه

1 - أصول الكتاب

ينحدر الكتاب من حلقة باطنية في الصين. وقد تم تناقله شفهياً لفترة طويلة من الزمن، ومن ثم كتابياً؛ فالطبعة الأولى هي من عهد تشيين - لونغ (القرن الثامن عشر). وقد أعيد أخيراً طبع ألف نسخة منها في بكين في عام 1920، مع الهوي مينغ تشينغ، وتم توزيعها بين جماعة صغيرة من الأشخاص الذين فهموا المسائل الخاضعة للمناقشة، بحسب رأي المحرر. تلك هي الكيفية التي تمكنت بها من الحصول على نسخة. يعزى الطبع الجديد للكتاب الصغير وتداوله إلى إعادة صحوة دينية ناجمة عن مقتضيات الأوضاع السياسية والاقتصادية في الصين. فقد تشكلت سلسلة من الطوائف السرية التي كانت تسعى، عن طريق ممارسة تقاليد سرية من العصور القديمة، إلى تحقيق حالة للنفس البشرية ترتفع بهم فوق كل بؤس الحياة. أما الطرائق المستخدمة فهي الكتابة السحرية، الصلاة، تقديم الأضاحي، إلخ و، بالإضافة إلى هذه، كانت الجلسات *seances*

التوسطية، السائدة على نطاق واسع في الصين، التي يُنشد بواسطتها الاتصال المباشر مع الآلهة والأموات. تُجرى التجارب أيضاً مع اللويحة planchette[1]، قلم رصاص الروح الطائرة كما يسميه الصينيون.

لكن إلى جانب هذه الممارسات توجد حركة باطنية نذرت نفسها بحيوية للطريقة السايكولوجية [العلمنفسية]، أي التأمل، أو ممارسة اليوغا. إن أتباع هذه الطريقة، تمييزاً لهم بالتضاد عن "اليوغيين" الأوروبيين الذين ليست هذه الممارسات الشرقية بالنسبة لهم سوى شكل من الرياضة، إن هؤلاء يحققون، بلا استثناء تقريباً، التجربة الأساسية. لهذا يمكن القول إنه بقدر ما يتعلق الأمر بالنفس البشرية الصينية تتوفر طريقة مؤكدة تماماً لإحراز تجربة نفسية معينة. (يجب أن نلاحظ، كما يشير ك. غ. يونغ بشكل صائب جداً، أن العقلية الصينية، على الأقل حتى أزمنة متأخرة جداً، كانت مختلفة اختلافاً جوهرياً في بعض الجوانب الأساسية عن عقلية الأوروبيين). بالإضافة إلى الانعتاق من قيود عالم خارجي وهمي، ثمة أهداف أخرى كثيرة تتطلع إليها الطوائف المختلفة. فأولئك المتربعون على أعلى مستوى يستخدمون هذا الانعتاق عن طريق التأمل لغرض الوصول إلى النيرفانا(*) البوذية، أو، كما في الكتاب الحالي على سبيل المثال، يُعلّمون أنه باتحاد المبدأ الروحي لدى البشر مع القوى المتلازمة ذات المنشأ النفسي، يمكن للمرء أن يستعد لإمكانية الحياة بعد الموت، ليس فقط كمجرد كائن ظل محكوم عليه بالفناء، بل كروح واعية. بالإضافة إلى ذلك، وغالباً بالارتباط مع هذه الفكرة، ثمة مدارس فكر تحاول بواسطة هذا التأمل أن تمارس تأثيرا نفسياً على بعض سيروات

(*). النيرفانا: في البوذية الهندوسية، هي حالة النشوة القصوى والتحرر من المعاناة وعبودية دورة الموت والانبعاث، وهذه الحالة يتم بلوغها من خلال الانضباط الاخلاقي وممارسة اليوغا (المترجم)

الجهاز العصبي الودي. (كأوروبيين، سنتكلم هنا عن جهاز الغدد الصماء).
هذا التأثير يقوي سيرورات الحياة ويجددها ويضبطها، بحيث أنه حتى الموت سيتم التغلب عليه بطريقة ملائمة تتفق معه كإنهاء متناغم للحياة. هذا معناه أن المبدأ الروحي، المهيأ الآن من أجل استمرار مستقل للحياة في الروح ـ الجسد، المخلوق من منظومة الطاقة الخاصة به، يهجر الجسد الدنيوي الذي يتبقى كقشرة آخذة في الجفاف مثل تلك القشرة التي يطرحها زيز الحصاد.

لقد سعت الطبقات الدنيا من الطوائف بهذه الطريقة إلى اكتساب قدرات سحرية، كالقدرة على طرد الأرواح الشريرة والأمراض، وهنا تلعب الطلاسم والتعاويذ الشفهية والمكتوبة دورها. هذا الصنف من الشيء يمكن أن يؤدي إلى ذُهانات(*) psychoses جماعية عرضية تعلن عن نفسها عندئذ في شكل اضطراب ديني أو سياسي كما هو مبين، على سبيل المثال، في حركة البوكسر. في الآونة الأخيرة، تم الكشف عن النزعة التوفيقية الدائمة الحضور للطاوية في حقيقة أن هذه التنظيمات تتضمن أفراداً من الديانات العالمية الخمس كافة (الكونفوشيوسية، الطاوية، البوذية، الإسلام، والمسيحية، وحتى اليهودية تدخل أحياناً في مناسبات خاصة) بدون أن يكون عليهم أن ينفصلوا عن طوائفهم الدينية الخاصة التي ينتمون إليها.

أما وقد وصفنا بإيجاز الخلفية التي نتجت عنها مثل هذه الحركات في عصرنا، فيجب قول كلمة عن المصادر التي تنشأ منها تعاليم الكتاب الحالي. لقد تم تسليط الضوء على مكتشفات لافتة جداً، ونجد أن هذه الوصايا هي أقدم بكثير من شكلها المكتوب. إذ يمكن اقتفاء **التاي آي تشين**

(*) . الذهان: اضطراب نفسي يجعل الفرد عاجزاً عن البقاء في تماس مع الواقع ومن أهم أعراضه الهلوسات والبارانويا (عقدة الاضطهاد) وانفصام الشخصية. (المترجم)

هوا تسونغ تشيه[2] رجوعاً إلى القرن السابع عشر عندما تم طبعه [نقلاً] عن الألواح الخشبية. يصف المحرر[المحقق] أنه وجد نسخة ناقصة يعود تاريخها إلى ذاك الزمن في الليو - لي - تشانغ، الشارع القديم للمتاجرين بالكتب والعاديات [الأنتيكات] في بكين، ويحكي كيف استكملها فيما بعد من كتاب لأحد الأصدقاء. لكن التراث الشفهي يعود حتى إلى أبعد من ذلك، إلى ديانة الإكسير الذهبي للحياة (تشين - تان - تشياو)، التي ظهرت في عصر تانغ T'ang في القرن الثامن. يقال إن مؤسسها كان الحكيم الطاوي المشهور، ليو ين[3] (Lü Tung- pin) الذي عده الفولكلور لاحقاً أحد الخالدين الثمانية، والذي نُسج حوله مع مرور الزمن مخزون غني من الأساطير. هذه الطائفة (مثل كل الديانات، المحلية والأجنبية)، قوبلت بالتسامح والتأييد في عهد تانغ وانتشرت على نطاق واسع، لكنها، بدأت مع مرور الوقت تعاني من الاضطهاد بسبب كون أعضائها مشتبهاً بهم في المؤامرات السياسية، لأنها كانت دائماً ديانة باطنية وسرية. فاضطهد مشايعوها مرة تلو الأخرى من قبل حكومات معادية، وأخيراً، اضطهدوا بطريقة وحشية إلى درجة قصوى من قبل المنشوريين قبيل سقوطهم[4]. وقد تحول الكثير من أفرادها إلى الديانة المسيحية، وهم جميعاً، حتى لو لم يدخلوا الكنيسة فعلياً، ودودون جداً تجاهها.

يقدم كتابنا أفضل رواية متوفرة لديانة الإكسير الذهبي للحياة. تُنسب الأقوال إلى لو ين Lu Yen، الذي كان اسمه الآخر هو لو تونغ - بين، أو لو، ضيف الكهف. في الكتاب يتم التعريف به بوصفه الأب لو، لو - تسو. عاش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع. وقد أضيف تعليق لاحق على أقواله، لكنه ينبع من التراث نفسه.

من أين حصل لو على معارفه الباطنية السرية؟ وهو نفسه ينسب أصله إلى كوان يين - هسي، معلم الطريق يين - هسي (كوان، أي طريق هان -

كو)، الذي كتب من أجله، وفقاً للتراث، لاو ـ تسي كتابه *Tao Te Ching*. في الحقيقة، توجد في المجموعة أفكار عظيمة كثيرة مأخوذة من التعليم الصوفي، الباطني، المحجوب، في *Tao Te ching*؛ فعلى سبيل المثال: "الآلهة في الوادي" يقابلون "روح الوادي" لدى لاو ـ تسي. لكن حركة لو ين تمثل إصلاحاً. في حين انحطت الطاوية شيئاً فشيئاً في عهد هان[5] إلى سحر خارجي، وذلك يُعزى إلى حقيقة أن سحرة البلاط الطاوي كانوا يسعون إلى أن يعثروا عن طريق الخيمياء على الحبة الذهبية (حجر الفيلسوف)، التي ستخلق الذهب من المعادن الخسيسة وتمنح البشر الخلود الجسدي، فقد باتت العلامات الخيميائية رموزاً للسيرورات السايكولوجية. بهذا الخصوص كان ثمة تقارب شديد مع أفكار لاو ـ تسي الأصلية. مع ذلك، كان هذا الأخير روحاً حرة، وكان تابعه، تشوانغ ـ تزو، يزدري كل هراء ممارسة اليوغا، ومعالجي الطبيعة، والساعين وراء إكسير الحياة، رغم أنه هو نفسه، بالطبع، كان يمارس التأمل أيضاً، وقد توصل بواسطته إلى ذاك الحدس بالوحدة الذي قام عليه نظامه اللاحق، المتطور فكرياً. كان ثمة لدى لوين إيمان أكيد، نزوع ديني، أقنعه، بتحفيز من البوذية، بالخاصية الوهمية لكل الأشياء الخارجية، لكن بطريقة مختلفة اختلافاً واضحاً عن البوذية. إنه يسعى، بكل جبروته، إلى القطب الثابت هرباً من الظاهرات، حيث يمكن للنصير أن ينال الحياة الأبدية الخالدة، وهي فكرة غريبة على نحو مطلق عن البوذية، التي تنكر أي جوهر للأنا. مع ذلك، ينبغي عدم التقليل من أهمية تأثير بوذية مهايانا، التي كانت في ذاك الوقت تطغى على الفكر في الصين. فالسوترات(*) البوذية يتم اقتباسها تكراراً. أما في نصنا، بالفعل، فإن هذا التأثير هو

(*). السوترات Sutra هي كتب تعاليم بوذية منظومة في قالب أدبي خاص موجهة لعامة الناس لتطبيقها. (المترجم)

حتى أكبر مما يمكن تخيله في التشين ـ تان ـ تشياو (ديانة الإكسير الذهبي للحياة) عموماً. في النصف الثاني من المقطع الثالث، ثمة إشارة صريحة إلى الطريقة المعروفة بـ "التأمل المركز للانتباه والبصر" (chih - kuan) وهذا الأخير هو طريقة بوذية خالصة كانت تمارس في مدرسة تيين ـ تاي [التابعة] لتشيه كاي [تشيه آي 531 ـ 597 ميلادي].

من هذه النقطة فصاعداً، يصبح انقطاع معين في تسلسل الفكر في مقالتنا ملحوظاً. فمن ناحية أولى، يُستزاد في وصف العناية بالزهرة الذهبية؛ ومن الناحية الأخرى، تظهر أفكار بوذية خالصة تتبرأ من العالم وتحول الهدف بشكل مؤكد نحو النيرفانا. ثم تلي بضعة مقاطع(6) هي بالكاد أكثر قيمة من اللقاطة، مع الأخذ في الاعتبار السمو الروحي للعمل ككل وتماسكه. علاوة على ذلك، فإن العمل في اتجاه إعادة ولادة داخلية من خلال "دوران النور"، وخلق نواة البذرة الإلهية لا يوصف إلا في مراحله الأولى، رغم أن المراحل اللاحقة تسمى الهدف. (قارن هوي مينغ تشينغ لليو ـ هوا ـ يانغ، حيث تكون هذه المراحل اللاحقة مشروحة بعناية أكثر). لذلك، لا مفر لنا من الشك في أن قسماً من المخطوط قد ضاع فعلاً، وأجريت التعويضات من مصادر أخرى. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ذلك من شأنه أن يفسر الانقطاع في الاستمرارية والجودة الأدنى لأجزاء غير مترجمة هنا.

على كل، إن قراءة غير متحيزة ستكشف عن حقيقة أن هذين المصدرين، الطاوية والبوذية، لا يكفيان لتغطية المدى الكامل للفكر: فالكونفوشيوسية في شكلها الذي يستند على الآي تشينغ تدخل فيه أيضاً. إن الأصوات الثلاثية، الأحرف الأساسية الثلاثة (pa K ua) للآي تشينغ يجري إدخالها في مقاطع مختلفة من نصنا كرموز لسيرورات داخلية معينة، وسنحاول لاحقاً شرح التأثير الناتج عن هذا الاستعمال

للرموز. أما بالنسبة للبقية، فإن للكونفوشيوسية أساساً مشتركاً مع الطاوية، إذ أن اتحاد هاتين المدرستين الفكريتين لم يحدث خسارة في التماسك.

ربما سيصدم الكثير من القراء الأوروبيين أن تظهر في النص أقوال مألوفة لهم من التعاليم المسيحية، في حين، من الناحية الأخرى، تُعطى هنا منظوراً مختلفاً، تلك الأشياء المشهورة نفسها، والتي لا تعد في أوروبة في غالب الأحيان سوى عبارات كنسية وذلك بسبب الصلات السايكولوجية التي تُستخدم فيها. إذ نجد حدوساً ومفاهيم مثل التالي، إذا اخترنا بشكل عشوائي عدداً قليلاً لكنه صادم بشكل خاص: النور هو حياة الإنسان - العين هي نور الجسد - الإنسان تعاد ولادته روحياً من الماء والنار، اللتين يجب أن يُضاف إليهما "الفكر - التراب" (الروح)، كرحم، أو كحقل محروث. دعونا نقارن أقوال يوحنا: "أعمدك بالماء: فمن بعدي سيأتي من يتعمد بالروح القدس وبالنار"؛ أو: "إن لم يكن الإنسان مولوداً من الماء ومن الروح، فلن يكون بمقدوره أن يدخل إلى ملكوت الرب". كم تصبح موحية، على سبيل المثال، فكرة "الماء" بوصفه البذرة - الجوهر في نصنا! وكم هو واضح الفرق بين النشاط "الدافق نحو الخارج" الذي يستهلك نفسه في الإنجاب (ما يولد من اللحم يبق لحماً) وحركة "التدفق نحن الداخل" (metanoia)!

يلعب الحمّام، أيضاً دوره في إعادة الولادة هذه تماماً كما يلعبه في المعمودية التي يبشر بها يوحنا وكذلك في المعمودية المسيحية. حتى الزواج السري، الذي يلعب مثل هذا الدور الهام في الأمثولات المسيحية، يظهر عدة مرات؛ ويذكر أيضاً الطفل، الصبي بداخلنا (الابن الخالد puer aeternus، المسيح، الذي يجب أن يولد فينا والذي هو، بطريقة أخرى، عريس الروح / النفس)، والعروس أيضاً. ولعل ما هو أكثر إدهاشاً على

الإطلاق، أنه حتى التفصيل الصغير ظاهرياً ـ الحاجة إلى وجود الزيت في المصابيح لكي يكون بمقدورها أن تشتعل بشكل ساطع ـ يأخذ معنى سايكولوجياً جديداً وعظيم الأهمية في نصنا. وجدير بالذكر أن تعبير الزهرة الذهبية (Chin Hua)، في صلة باطنية [أسرارية]، يتضمن كلمة "النور. إذا كتب المرء الحرفين أحدهما فوق الأخر بحيث يتلامسان، فإن الجزء السفلي من الحرف الأعلى والجزء العلوي من الحرف الأسفل يصنعان الحرف الذي يرمز إلى "نور" (Kuang). من الواضح أن هذه العلامة السرية اخترعت في زمن الاضطهاد، عندما كان حجاب من السرية الشديدة ضرورياً لمزيد من انتشار العقيدة. كان هذا بدوره السبب في أن التعاليم بقيت دوماً محصورة بالدوائر السرية. مع ذلك، حتى في يومنا هذا، فإن عدد أعضائها هو أكبر بكثير مما يظهر من الخارج.

إذا سألنا من أين أتت ديانة النور هذه؟ يمكننا قبل كل شيء أن نأخذ في الحسبان بلاد فارس، نظراً إلى أنه كان ثمة معابد فارسية في عهد تانغ في أمكنة كثيرة في الصين. ولكن، على الرغم من أن بعض الأفكار تتطابق مع ديانة زرادشت، وخصوصاً مع التصوف الفارسي، فثمة، من الناحية الأخرى، اختلافات شديدة جداً.

إن الرؤية الأخرى التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار هي التأثير المسيحي المباشر. ففي عهد تانغ، كانت ديانة القبيلة التركية، الاويغوريين Uigurs، الذين كانوا متحالفين مع الامبراطور، وهي الفرع النسطوري من المسيحية، كانت تتمتع بتأييد كبير، كما يشهد على ذلك النصب النسطوري المشهور في سيانغو الذي أقيم في عام 781م، ويحمل نقشاً صينياً ونقشاً سريانياً. لهذا فإن الصلات بين النسطوريين و التشين ـ تان تشياو ممكنة تماماً. ولقد ذهب تيموثي ريتشارد Timothy Richard بعيداً إلى حد اعتبار التشين تان تشياو ببساطة أثراً باقياً للنسطوريين القدماء. وقد

قاده إلى هذه الرؤية بعض التوافقات في الطقوس وبعض تقاليد الانتساب إلى التشين تان تشياو التي تقترب اقتراباً شديداً من الممارسة المسيحية. في الآونة الأخيرة، تبنى ب. ي. ساكي P. Y. Saeki[7] النظرية مرة أخرى، وأقام سلسلة من التوازنات الأخرى، مؤيداً بالطقوس الدينية النسطورية التي وجدها بليوت Pelliot في تون ـ هوانغ. حتى أنه يذهب بعيداً إلى حد مماهاة لو ين Lu – Yen مؤسس التشين تان تشياو ـ بآدم الذي كتب نقش النصب النسطوري ويوقع عن نفسه بالاسم الصيني لو هسيو ـ ين. وفقاً لهذه الفرضية، فإن لو ين، مؤسس التشين تان تشياو، كان مسيحياً من الطائفة النسطورية! يمضي ساكي أبعد مما ينبغي بشكل متعمد في ابتهاجه في التماهيات: فبراهينه هي كلها بالكاد مقنعة، لكنها تفتقر دوماً إلى النقطة الحاسمة التي من شأنها أن تحسم المسألة. إن البراهين الجزئية الكثيرة لا تصنع برهاناً كاملاً، لكن يجب علينا أن نلتقي معه على الأقل إلى درجة الاتفاق على أنه كان في التشين تان تشياو مزيج قوي من الأفكار النسطورية الجلية أيضاً في المخطوط الحالي. يبدو بعض هذه الأفكار غريباً جداً في إهابه الغريب، في حين تكتسي أفكار أخرى نوعاً جديداً رائعاً من الحيوية. هنا نصل إلى إحدى تلك النقاط التي تثبت مرة تلو الأخرى مقولة غوته: لم يعد بالإمكان إبقاء الشرق والغرب مفترقين.[8]

2 - المقدمات السايكولوجية والكوزمولوجية للنص

لجعل الترجمة التالية قابلة للفهم، يجدر بنا أن نقول كلمات قليلة حول أسس الفلسفة التي يستند عليها المنهج. هذه الفلسفة هي، إلى حد معين، الملكية المشتركة لكافة النزعات الفلسفية الصينية. إنها مبنية على

المقدمة القائلة بأن الكون والإنسان، في التحليل النهائي، يخضعان للقانون نفسه؛ وأن الإنسان هو كون صغير microcosm وليس مفصولاً عن الكون الكبير macrocosm بأية حواجز ثابتة. فالقوانين نفسها تحكم أحدهما مثلما تحكم الآخر، ومن أحدهما ثمة طريق يؤدي إلى الآخر. إن النفس البشرية والكون هما بالنسبة لبعضهما البعض مثل العالم الداخلي والعالم الخارجي. لذلك يشارك الإنسان عن طريق الطبيعة في كل الأحداث الكونية، وهو متناسج معها داخلياً كما خارجياً.

إن الطاو، أي الطريق، يحكم الإنسان تماماً مثلما يحكم الطبيعة اللامرئية والمرئية (السماء والأرض). يتألف الحرف الأبجدي الذي يرمز إلى الطاو في شكله الأصلي(9) من رأس، ربما يجب تفسيره "كبداية"، ثم الحرف الذي يرمز إلى "الذهاب" وهو شكل مزدوج يعني أيضاً "المسار"، وفي الأسفل، رمز "الثبات"، الذي يكون محذوفاً في الطريقة اللاحقة للكتابة. إن المعنى الأصلي، إذاً، هو معنى "المسار الذي يؤدي، رغم كونه ثابتاً، ومن البداية، إلى الهدف مباشرة". إن الفكرة الأساسية هي أن الطاو نفسه، رغم أنه عديم الحركة، هو الوسيلة لكل الحركة وهو الذي يمنحها القانون. إن المسارات السماوية هي تلك التي تتحرك على امتدادها الأجرام السماوية؛ أما مسار الإنسان فهو الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه. لقد استخدم لاوتسي هذه الكلمة، وإن يكن بالمعنى الميتافيزيقي، بوصفها المبدأ العالمي النهائي، الذي يسبق زمنياً التحقق وهو ليس مقسوماً بعد عن طريق تنافر الأضداد الذي يعتمد عليه الظهور إلى حيز الواقع. هذه المصطلحات مفترضة مسبقاً في الكتاب الحالي.

يوجد في الكونفوشيوسية بعض الاختلاف في المصطلحات. فهناك لكلمة "طاو" دلالة العالم الداخلي وتعني "الطريق الصحيح"؛ من الناحية الأولى، طريق السماء، ومن الناحية الأخرى، طريق الإنسان. بالنسبة إلى

الكونفوشيوسية، المبدأ النهائي للواحد غير المقسم هو الطاي ـ تشي (العظيم، المطلق الأعلى). يظهر مصطلح "قطب" من حين لآخر في نصنا أيضاً وهو هنا مطابق للطاو.

* من الطاو، والطاي ـ تشي، ينشأ مبدأ الواقع، مع كون أحد القطبين هو المنير (yang) والآخر هو المظلم، أو الظليل (yin). التفت بعض العلماء الأوروبيين، أولاً إلى الإشارات الجنسية من أجل التفسير، لكن الأحرف تشير إلى ظواهر في الطبيعة. فاليين هو الظل، وبالتالي فهو الجانب الشمالي من الجبل والجانب الجنوبي من النهر (لأنه أثناء النهار فإن موقع الشمس يجعل الجانب الجنوبي من النهر يظهر مظلماً). أما اليانغ، في شكله الأصلي، فيدل على الأعلام الثلاثية الطائرة المرفرفة وهو، في مقابل رمز اليين، الجانب الجنوبي من الجبل والجانب الشمالي من النهر. بدءاً بمعنى "المنير" و"المظلم" فقط، عُمِّم المبدأ بعدئذ إلى كل الأضداد القطبية، بما فيها الجنسية. (مع ذلك، لما كان يين ويانغ لهما أصل مشترك في واحد لا ينقسم، حيث يانغ هو المبدأ الفاعل والشارط، ويين هو المبدأ المنفعل (السالب) المشتق والمشروط، كان من الواضح أن الثنائية الميتافيزيقية ليست هي الأساس في هذه الأفكار) أما الأقل تجريداً من اليين واليانغ فهما مفهوما الخلاق و المتلقي (تشيين وكون) اللذان يبرزان في **كتاب التغيرات** [*I ching*]، ويرمز لهما بالسماء والأرض. من خلال اتحاد السماء والأرض، ومن خلال فعالية القوى البدئية المزدوجة ضمن حقل النشاط هذا (المحكوم بالقانون البدئي الواحد، الطاو) تنشأ "الأشياء العشرة آلاف"، أي، العالم الخارجي.

* من بين هذه الأشياء، منظوراً إليها من الخارج، يوجد أيضاً الإنسان في مظهره الجسدي الذي هو، بكل أجزائه، كون صغير (hsiao t'ien – ti). لذلك، بحسب الكونفوشيوسيين، تأتي الطبيعة الداخلية للإنسان من

السماء، أو هي، على حد تعبير الطاويين، شكل ظاهري للطاو. في العالم الظاهري يتحول الإنسان إلى عدد من الأفراد، في كل واحد منهم يكون المونادⁿ الواحد monad المركزي متضمناً بوصفه مبدأ الحياة؛ لكن على الفور، قبل الولادة حتى، في لحظة الحمل، ينفصل إلى الظاهرات الثنائية القطب للطبيعة البشرية والحياة (هسينغ ومينغ).تتألف الكلمة التي تعني الطبيعة البشرية، من الكلمات التي تعنى القلب أو العقل، والأصل، الكينونة مولوداً (sheng). إن القلب، بحسب الفكرة الصينية، هو مقر الوعي العاطفي، الذي توقظه الحواس الخمس من خلال ردود الأفعال اللامنعكسة على الانطباعات التي يتم تلقيها من العالم الخارجي. إن ما يبقى كطبقة تحتية عندما لا يتم التعبير عن أية مشاعر، لكنه يتبقى، إذا جاز القول، في حالة ما فوق واعية supraconscious، متعالية، لهو الطبيعة البشرية. إن الطبيعة البشرية، المتغيرة وفقاً للتعريف الأدق لهذا المفهوم، إما خيرة أصلاً، إذا نظر إليها من موقع الفكرة الأبدية (Menlins)، أو شريرة أصلاً، أو حيادية في أحسن الأحوال. إذا ما أخذت من موقع التطور التجريبي ـ التاريخي، فلا يمكن تحويلها إلى شيء خيّر إلا عن طريق تطور طويل للعادات.

إن الطبيعة البشرية، كفكرة مرتبطة بلا شك باللوغوس تظهر مشبوكة بدقة بالحياة عند دخول العالم الظاهري. إن الرمز مينغ ming يدل فعلاً على أمر ملكي، ثم المصير، القدر، القدر المرسوم للإنسان، وكذلك أيضاً مدة العمر، مقياس الطاقة الحيوية بتصرف المرء، وبذلك يثبت أن مينغ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيروس. إن المبدأين، إذا جاز القول، هما فوق

(°). الموناد: العنصر الأساسي للوجود الواحد الذي لا يتجزأ (المترجم).

فرديين. فالإنسان ككائن روحي يُجعل إنسانياً عن طريق طبيعته. الإنسان الفرد يمتلك المينغ، لكنها تتجاوز حدود الفرد. والحياة هي أيضاً فوق فردية بمعنى أن الإنسان يجب عليه أن يتقبل مصيره ببساطة؛ فهو لا ينبع من إرادته الواعية. إن الكونفوشيوسية ترى في «مينغ» الحياة، قانوناً من صنع السماء يجب على الإنسان أن يتكيف معه؛ أما الطاوية فتعتبره بمثابة اللعب المتعدد الألوان للطبيعة الذي لا يمكنه تجنب قوانين الطاو، لكنه مع ذلك مصادفة خالصة؛ إن البوذية الصينية تراه بوصفه اجتراحاً للكارما ضمن عالم الوهم.

* في مقابل هذه الثنائيات في الإنسان الجسدي ـ الشخصي توجد التوترات الثنائيات القطب التالية. الجسد يتم تفعيله عن طريق تفاعل البنيتين النفسيتين: الأولى،الهون hun، لأنها تنتمي إلى مبدأ اليانغ، تتم ترجمتها بمعنى أنيموس[10]، aminus، والثانية، البو p'o. التي تنتمي إلى مبدأ البين، وأترجمها بمعنى أنيما[11] amina. كلتا الفكرتان تأتيان من رصد ما يحدث عند الموت، ولذلك فإنهما تحتويان في شكلهما المكتوب العلامة التي ترمز إلى العفريت[12]، demon، أي، المرحوم (Kuei). كانت الأنيما يجري التفكير بها بوصفها مرتبطةً خصيصاً بالسيرورات الجسدية؛ عند الموت تغوص في الأرض وتتحلل. أما الأنيموس، من الناحية الأخرى، فهو الروح العليا؛ بعد الموت يرتفع في الهواء، حيث يبقى في البداية فاعلاً لفترة من الزمن ثم يتبخر في الفضاء الأثيري، أو يجري عائداً إلى الخزان المشترك للحياة. في البشر الأحياء.ينطبق الاثنان بدرجة معينة على الجهاز المخي وجهاز الضفيرة الشمسية على التوالي. الأنيموس يسكن في العينين، الأنيما تكون مظلمة ومحاطة بالتراب. العلامة التي ترمز إلى الهون (الأنيموس) تتكون من أحرف ترمز إلى "العفريت"

و"الغيمة"، في حين أن الإشارة التي ترمز إلى البو (الأنيما) تكون مؤلفة من الأحرف التي ترمز إلى "عفري " و"أبيض". يدل هذا على أفكار مشابهة لما نجده في أمكنة أخرى كالظل ـ الروح و الجسد ـ الروح وبلا شك إن المفهوم الصيني يقصد به أن يتضمن شيئاً كهذا. مع ذلك، يجب أن نكون حذرين في مسألة الاشتقاق، لأنه في أقدم نص مكتوب فإن الرسم الذي يرمز إلى العفريب غير موجود ولذلك ربما كنا نتعامل مع رموز أولية، غير مشتقة. بأي حال، فإن الأنيموس (هون) هو روح اليانغ المنير في حين أن الأنيما (بو) هو روح اليين، المظلم.

* إن التدفق الاعتيادي باتجاه عقارب الساعة[13]، أي سيرورة الحياة المتدفقة نزولاً، هو التدفق الذي ترتبط فيه الروحان كما ترتبط العوامل الفكرية والحيوانية. كقاعدة، ستكون الأنيما، الإرادة النزيهة، التي تحثها الأهواء، هي التي تجبر الأنيموس أو العقل على خدمتها. على الأقل ستفعل الأنيما ذلك إلى حد أن العقل ينطلق إلى الخارج، الذي تتسرب عن طريقه طاقات الأنيموس والأنيما بعيداً وتستهلك الحياة ذاتها. إن النتيجة الإيجابية هي خلق كائنات جديدة تستمر الحياة فيها، في حين أن الكائن الأصلي "يستخرج" externalize ذاته و"في نهاية المطاف يحول من أشياء إلى شيء واحد". إن النتيجة هي الموت. الأنيما تهبط والأنيموس ينهض، والأنا، المسلوب من طاقته، يترك متبقياً في حالة ملتبسة.

إذا أذعنت الأنا في "الاستخراج"، فإن ذلك يستتبع الشد نحو الأسفل والغوص في البؤس الأربد للموت، الذي تغذيه بشكل بائس فقط الصور الوهمية للحياة التي يظل ينجذب إليها بدون أن يكون قادراً على المشاركة بشكل فاعل في أي شيء (جحائم، نفوس جائعة). لكن إذا بذلت الأنا جهداً للكفاح نحو الأعلى برغم سيرورة "الاستخراج"، فإنها تصون لفترة من الزمن (في الحقيقة، تكون طويلة بقدر ما تعززها الطاقات المعبر عنها في

الأضاحي [المقدمة] من قبل الناجين)، حياة سعيدة نسبياً، كل واحدة وفقاً لاستحقاقاتها. في الحالتين، يتراجع العنصر الشخصي، وهناك ينتج انحناء نحو الداخل مقابل "للاستخراج". عندئذ يصبح الكائن شبحاً عاجزاً لأنه يفتقر إلى طاقات الحياة و يصل قدره إلى نهايته. إنه يشارك الآن في ثمار أفعاله الخيرة أو الشريرة في الجنة أو الجحيم، التي لا تكون، مع ذلك، حالات خارجية، بل داخلية خالصة. كلما اخترق الكائن هذه الحالات، تقدم الانكماش نحو الداخل إلى أن يختفي نهائياً من سطح الوجود من أي طبيعة كان. ومن ثم، بدخول رحم جديد، يبدأ وجوداً جديداً تؤمنه تصوراته السابقة. هذا الشرط هو حالة العفريت، الروح، المرحوم، الذي ينسحب. الكلمة الصينية المقابلة لأجل هذه الحالة من الكينونة هي كوي Kuei (وغالباً ما تترجم خطأ "بالشيطان"). من الناحية الأخرى، إذا كان ممكناً أثناء الحياة أن نقلع الحركة الصاعدة، "المتدفقة نحو الوراء" لطاقات الحياة، وإذا سيطر الأنيموس على طاقات الأنيما، عندئذ يحدث التحرر من الأشياء الخارجية. ويكون معترفاً بها لكنها ليست مرغوبة. وهكذا فإن الوهم يكون مجرداً من طاقته. يحدث انتشار صاعد، داخلي للطاقات.

تنسحب الأنا من اشتباكها، في العالم، وبعد الموت تبقى حية لأن "الاستدخال" interiorization قد منع تبديد طاقات الحياة في العالم الخارجي. وبدلاً من أن تكون هذه مبددة فقد خلقت ضمن الدوران الداخلي للعنصر الأحادي مركز حياة مستقل عن الوجود الجسدي. مثل هذه الأنا هي إله، رب، شن.

إن الحرف المستعمل لأجل شن يعني يمدد، يخلق؛ باختصار إنه الضد لـ Kuei. في أقدم نص مكتوب صيني يمثل بنمط ملتو مزدوج، مما يمكن أن يعني أيضاً الرعد، البرق، التنبيه الكهربائي. مثل هذا الكائن يبقى حياً

طالما استمر الدوران الداخلي. إذ يمكنه، حتى رغم كونه غير مرئي، أن يظل مؤثراً على البشر ويلهمهم الأفكار العظيمة والأفعال النبيلة. إن قديسي وحكماء الأزمنة القديمة هم كائنات مثل هؤلاء، هم الذين حفزوا البشرية وثقفوها لآلاف السنوات.

على كل، يبقى تحديد واحد: هذه الكائنات تحتفظ بخصيصة شخصية، ولذلك فهي عرضة لتأثيرات الفضاء والزمن. فهي ليست أكثر خلوداً من أبدية السماء والأرض. إن الزهرة الذهبية وحدها، التي تنمو من الانفصال الداخلي عن كل تواشج مع الأشياء، هي سرمدية. والإنسان الذي يبلغ هذه المرحلة يحول أناه؛ إنه لا يعود محدوداً بالعنصر الواحد monad، بل يخترق الدائرة السحرية للثنائية القطبية لكل الظاهرات ويعود إلى الواحد اللامجزأ، الطاو. هنا يكمن الاختلاف بين البوذية والطاوية. في البوذية تكون هذه العودة إلى النيرفانا مرتبطة بانقراض كامل للأنا، التي تكون، مثل العالم، وهماً فحسب. إذا لم يكن بالإمكان شرح النيرفانا بوصفها موتاً، توقفاً، فإنها تظل متعالية فوق الوجود تحديداً. أما في الطاوية، من الناحية الأخرى، فإن الهدف هو الحفاظ على فكرة الشخص في شكل محوَّل على "الآثار" التي تتركها الخبرة. ذاك هو النور، الذي يعود، مع الحياة إلى ذاته والذي يرمز له في نصنا بالزهرة الذهبية.

كتتمة، يجب علينا أن نضيف كلمات قليلة حول استعمال الرموز الثلاثية الثمانية لكتاب التغيرات (I ching) في نصنا.

فالرمز الثلاثي ☳، الرعد، المحرض، هو الحياة التي تتفجر من أعماق الأرض؛ إنه بداية كل الحركة.

الرمز الثلاثي ☴، الريح، الغابة، اللطيف، يصور تدفق طاقات الواقع في شكل الفكرة. مثلما أن الريح تسود كل الأمكنة، كذلك فإن المبدأ الذي ترمز إليه الشمس هو كلي الاختراق، ويخلق "التحقق".

الرمز الثلاثي ☲ Li، الشمس، النار، الشفاف، المتدلي، يلعب دوراً كبيراً في ديانة النور هذه. إنه يسكن في العينين، يشكل الدائرة الحامية، ويحقق إعادة الولادة. إن الرمز الثلاثي كون، الأرض، المتلقي، هو أحد المبدأين الأوليين؛ أي مبدأ اليين الذي يكون مجسداً في طاقات الأرض. إن الأرض، بوصفها حقلاً محروثاً، هي التي تتلقف بذرة السماء وتعطيها شكلاً.

الرمز الثلاثي توي ☱ Tui، بحيرة، سديم /البهيج/ هو إضافة أخيرة على جانب اليين؛ ولذلك ينتمي إلى الخريف.

الرمز الثلاثي تشيين chien ☰، السماء، الخلاق، القوي، هو التجسيد لمبدأ اليانغ الذي يخصب K'un، المتلقي.

الرمز الثلاثي K'an ☵، الماء، السحيق، هو النقيض للي ☲، كما هو مبين في بنيته الخارجية. إنه يمثل منطقة الإيروس، في حين يرمز Li إلى اللوغوس. Li هو الشمس، K'an هو القمر. اقتران K'an و Li هو السيرورة السحرية السرية التي تنتج الطفل، الإنسان الجديد.

الرمز الثلاثي كن Ken ☶، الجبل، الثبات، هو رمز التأمل، الذي يمنح الحياة للعالم الداخلي بإبقاء الأشياء الخارجية ساكنة. لذلك فإن كن هو المكان الذي يلتقي فيه الموت والحياة، حيث يكتمل الخلف والصيرورة.

هوامش (مناقشة النص)

(1). إنها لحقيقة مثيرة للفضول أن الرجل الذي أشاع هذا النص كان قد كتب له عن طريق اللويحة مقدمة لو ـ تسو، وهو نصير من سلالة تانغ [618 ـ 907 بعد الميلاد]، تنسب إليه هذه التعاليم. مع ذلك، فإن هذه المقدمة تنحرف بشكل واسع عن الأفكار المقدمة في الكتاب؛ إنها تافهة وعديمة المعنى، مثل غالبية هذه النتاجات.

(2). إن كتاب **سر الزهرة الذهبية** (Tai I chin Hun Tsung) بدل عنوانه ليصبح Ch' ang Sheng Shu (**فن إطالة الحياة البشرية**) من قبل الناشر الصيني للطبعة المستخدمة هنا.

(3). ولد في حوالي 796 ميلادي (H.W).

(4). في العام 1891، قتل 15000 فرداً من قبل مأجورين منشوريين.

(5). من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد (C. F. B)

(6). هذه المقاطع محذوفة من الترجمة الحالية (ر. ف.).

(7). النصب النسطوري في الصين، لندن، الطبعة الثانية، 1928.

(8). "الشرق والغرب لم يعد بالإمكان إبقاؤهما مفترقين" (غوته).

[9]. قارن Ku - chou - pien، المجلد 66، ص25 وما بعد، التي تم الرجوع إليها أيضاً بخصوص تحليل الأحرف الأبجدية الأخرى.

[10]. إن استخدام فيلهلم لمصطلح "أنيموس" يمنحه معنى مختلفاً تماماً عن المعنى الذي يعطيه إياه مفهوم يونغ، حيث الأنيموس هو عنصر في عقل المرأة. يجد يونغ مصطلح هون hun قريباً من معنى اللوغوس، لكن هذا المصطلح الأخير لا يمكن استخدامه من أجل، أولاً، بسبب وجود مفهوم صيني آخر يظل أقرب إلى اللوغوس، أي هسينغ hsing (الطبيعة البشرية)، وكذلك لأن هون يوصف بكونه عاملاً شخصياً، في حين أن اللوغوس لا شخصي تحديداً. إن التعبير "روح ـ نفس" spirit ـ soul كنقيض لـ "نفس أرضية" P'a يبد أنه يشمل معنى هون كما يشرحه فيلهلم، ولكي نتجنب خلطاً ممكناً في المصطلحات تقرر أن نجري هذا التبديل في الطبعة الإنكليزية، كون المؤلفين اتفقوا على أن التغيير ينصح به. لكن رغم أن الاستبدال المقترح سوف يبسط الأشياء بلا ريب بالنسبة للقارئ، ولن ينطوي على أي تغيير في المعنى، فإنه لا زال يتطلب إعادة ترتيب لعدة فقرات، وبذلك يحدث اختلاف كبير جداً بين الطبعتين. لهذا السبب، لم يتم إجراء التغيير (C. F. B).

[11]. تجدر ملاحظة أن P' o لا ينطبق إلا على جزء واحد من الأنيما كما تصورها يونغ. ففي مفهوم هذا الأخير، الجانب الروحي من الأنيما هو بنفس أهمية الجانب الحيواني تماماً (C. F. B).

[12]. الكلمة المقابلة لـ "demon" (عفريت) في الصينية لا تمتلك بالضرورة دلالة شريرة (C. F. B).

[13]. الكلمة الألمانية المستخدمة هي rechtläufig التي تعني، حرفياً "متدفق يميناً". في النص تصف (الكلمة) "الطاقات في الجسد، التي تجري

نزولاً، ولذلك ففي كل الأمثلة باستثناء المذكور أعلاه فقد ترجمت بمعنى التدفق نحو الأسفل. عندما لا يسمح للطاقات في الجسد بأن تسلك طريقها النازل الطبيعي، بل يتم سدها، توصف الحركة بأنها متدفقة نحو الوراء (ruch laufig). يعلم نظام اليوغا تقنية التأمل التي يمكن بواسطتها إعكاس التدفق الطبيعي، وتجعل الطاقة تصعد إلى المراكز العليا، حيث تصبح روحاً. باستبعاد هذه النتيجة النهائية، من السهل على دارس علم النفس التحليلي أن يرى ارتباطاً بين تياري الطاقة ومفهومي الانبساط والانقباض. الاختلاف الهام هو أن الانبساط والانقباض ينطبقان فقط على حركة الطاقة الذهنية / النفسية، في حين يبدو أن المفهوم الصيني يتضمن كلاً من السيرورة النفسية / الذهنية والفيزيولوجية. (C. F. B).

ترجمة التاي أي تشين هوا تسونغ تشيه



1 ـ الوعي السماوي (القلب)

قال المعلم لو ـ تسو، إن الذي يوجد من خلال ذاته يدعى الطريق (طاو). ليس للطاو اسم ولا شكل. إنه الجوهر الواحد[1]، الروح البدئية الواحدة. الجوهر والحياة لا يمكن رؤيتهما. إنهما محتويان في نور السماء. نور السماء لا يمكن رؤيته. إنه محتوى في العينين. اليوم سأكون دليلكم وسأكشف لكم أولاً سر الزهرة الذهبية العظيم و، انطلاقاً من ذلك، سأشرح الباقي بالتفصيل.

العظيم هو المصطلح الذي يطلق على ذاك الذي لا شيء فوقه. إن سر سحر الحياة يقوم على استخدام الفعل لإحراز اللافعل. يجب على المرء ألا يرغب في القفز فوق كل شيء والاختراق بشكل مباشر. الحكمة التي تناهت إلينا هي أن نتولى العمل على الطبيعة البشرية (هسينغ). لدى القيام بذلك من المهم ألا نسلك أي طريق خاطئ.

الزهرة الذهبية هي النور. ما هو لون النور؟ المرء يستخدم الزهرة الذهبية كرمز. إنها الطاقة الحقيقية للعظيم المتعالي. فعبارة "بداية منطقة الماء ليس لها سوى طعم واحد" تشير إليها.

"السماء خلقت الماء من خلال الواحد"[2]. تلك هي الطاقة الحقيقية للعظيم. إذا ظفر الإنسان الواحد بالماء يصبح حياً؛ إذا فقده يموت. لكن حتى إذا عاش الإنسان في الطاقة (النَفَس الحيوي، برانا Prana) فإنه لا يرى الطاقة (النَفَس الحيوي)، كما يعيش السمك في الماء لكنه لا يرى الماء. الإنسان يموت عندما لا يمتلك نَفَساً حياً، تماماً مثلما تموت الأسماك عندما تحرم من الماء. لذلك فإن الخبراء قد علموا الناس أن يتشبثوا بالبدئي، وحراسة الواحد والحفاظ عليه؛ ونشر النور وصون المركز. إذا حفظ المرء هذه الطاقة الحقيقية، يمكنه أن يطيل الحياة، ويمكنه من ثم أن يطبق طريقة خلق جسد خالد عن طريق "الإذابة والمزج"[3].

يعتمد العمل على نشر النور اعتماداً كاملاً على حركة التدفق رجوعاً، بحيث أن الأفكار / الخواطر (مكان الوعي السماوي، القلب السماوي) تجتمع معاً. يقع القلب السماوي بين الشمس والقمر (أي بين العينين).

يقول **كتاب القلعة الصفراء**: "في حقل الإنش المربع لبيت القدم المربع يمكن ضبط الحياة".

بيت القدم المربع هو الوجه. حقل الإنش المربع في الوجه: ماذا يمكن أن يكون ذلك سوى القلب السماوي؟ في منتصف الإنش المربع يسكن الجلال. في القاعة الأرجوانية من مدينة اليشب يسكن إله الفراغ المطلق والحياة. الكونفوشيوسيون يدعونه مركز الفراغ؛ البوذيون يدعونه مصطبة العيش؛ الطاويون يدعونه الأرض السلفية / بلاد الأسلاف، أو القلعة الصفراء، أو الممر المظلم، أو فضاء السماء السابقة. القلب السماوي مثل مكان السكن، النور هو السيد.

لذلك عندما ينشر النور، تظهر طاقات الجسم بأكمله أمام عرشه، كما، عندما يكون ملك مقدس قد شيد العاصمة ووضع القواعد الأساسية للنظام، فإن الولايات جميعاً تقترب بإجلال، أو كما، عندما يكون السيد هادئاً

وساكناً، فإن الخدم والخادمات يطيعون أوامره من تلقاء أنفسهم، وكل واحد يقوم بعمله.

لذلك ليس عليك إلا أن تجعل النور ينتشر: هذا هو السر الأعمق والأروع. النور من السهل تحريكه لكن من الصعب تثبيته. إنه مصنوع لينتشر طويلاً بما يكفي، ثم يبلور نفسه؛ هذا هو الروح ـ الجسد الطبيعي. هذه الروح المبلورة تتشكل وراء السماوات التسع. إنها الحالة التي يقال عنها في **كتاب ختم القلب**: "بصمت تطير نحو الأعلى في الصباح".

تطبيقاً لهذا المبدأ الأساسي أنت لست بحاجة إلى البحث عن أية طرق أخرى، بل يجب عليك فقط أن تركز أفكارك عليه. يقول كتاب لنغ ين[4]: "بتجميع الأفكار يمكن للمرء أن يطير وسيولد في السماء". السماء ليست السماء الزرقاء الواسعة بل المكان الذي ينجب فيه الجسد في بيت المبدع. إذا حافظ المرء على ذلك لزمن طويل ينشأ بشكل طبيعي تماماً، بالإضافة إلى الجسد، روح ـ جسد آخر.

الزهرة الذهبية هي إكسير الحياة (تشين ـ تان، حرفياً الكرة الذهبية، الحبة الذهبية). تعتمد كل تغيرات الوعي الروحي على القلب. ثمة سحر سري، بالرغم من كونه يعمل على نحو دقيق جداً إلا أنه مائع للغاية، بحيث أنه يحتاج إلى الذكاء والوضوح الشديدين، والسكينة الأكثر كمالاً. فالبشر بدون أعلى درجة من الذكاء والفهم لا يجدون الطريق إلى تطبيق السحر؛ البشر بدون هذه المقدرة القصوى على الاستغراق والسكينة لا يمكنهم الإمساك به بسرعة.

"هذا المقطع يشرح أصل الطريق العظيم (الطاو) للعالم. القلب السماوي هو بذرة الطريق العظيم. إذا كان بمقدورك أن تكون هادئاً بشكل مطلق عندئذ سيكشف القلب السماوي نفسه بشكل عفوي. عندما يتحرك الشعور

ويعبر عن نفسه في التدفق الطبيعي، يُخلق الإنسان كمخلوق أولي، هذا المخلوق يقيم بين الحمل والولادة في الفضاء الحقيقي.

عندما تدخل الإشارة الواحدة للتفرد إلى الولادة، تنقسم الطبيعة البشرية والحياة إلى اثنين. من هذا الوقت فصاعداً، إذا لم يتحقق الهدوء المطلق، فإن الطبيعة البشرية والحياة لا تريان إحداهما الأخرى مرة أخرى أبداً.

لذلك يقال في مخطط المطلق الأسمى[5] إن الواحد العظيم يتضمن داخل ذاته طاقة حقيقية (برانا)، بذرة، روحاً، أنيموس وأنيما. إذا كانت الأفكار ساكنة بشكل مطلق بحيث يمكن رؤية القلب السماوي، فإن الذكاء الروحي يبلغ الأصل بدون مساعدة. هذه الطبيعة البشرية تعيش بالفعل في فضاء حقيقي، لكن إشعاع النور يستقر في العينين. لذلك فإن المعلم يلقن نشر النور بحيث يمكن الوصول إلى الطبيعة البشرية الحقيقية. الطبيعة البشرية الحقيقية هي الروح الأولية. الروح الأولى هي تحديداً الطبيعة البشرية والحياة، وإذا قبل المرء ما هو واقعي فيها، فإنه الطاقة الأولية. والطريق العظيم هو هذا الشيء بالضبط.

لقد شدد المعلم أكثر على أن الناس ينبغي ألا يفقدوا الطريق الذي يؤدي من الفعل الواعي إلى اللافعل اللاواعي. لذلك يقول، إن سحر إكسير الحياة يستفيد من الفعل الواعي لكي يكون بالإمكان إحراز اللافعل اللاواعي. يقوم الفعل الواعي على نشر النور عن طريق الانعكاس لكي يكشف انعتاق السماء. عندئذ إذا ولدت البذرة الحقيقية، وطبق المنهج الصحيح لكي يذيبها ويمزجها، وبتلك الطريقة يخلق إكسير الحياة، عندئذ فإن المرء يخترق المعبر. يُشكل الجنين، الذي يجب تطويره بعمل التدفئة والتغذية والاستحمام والغسل. وهذا يعبر إلى عالم اللافعل اللاواعي. إن عاماً كاملاً من فترة النار هذه يكون مطلوباً قبل أن يولد الجنين، ويشق الطوق، ويعبر خارجاً من العالم العادي إلى العالم المقدس.

هذا المنهج بسيط تماما وسهل. لكن ثمة شروط تحوّل وتغير عديدة مرتبطة به بحيث يقال إن الإنسان لا يستطيع بقفزة واحدة فقط أن يصل فجأة إلى هناك. فمن ينشر الحياة الأبدية يجب أن يفتش عن المكان الذي نشأت فيه الطبيعة البشرية والحياة أصلاً.

2 ـ الروح البدئية والروح الواعية

قال المعلم لو ـ تسو، بالمقارنة مع السماء والأرض، الإنسان مثل ذبابة أيار. إن طاقة البذرة، مثل السماء والأرض، هي طاقة زائلة، لكن الروح البدئية هي خارج الاختلافات القطبية. فهنا المكان الذي تستمد منه السماء والأرض كينونتهما. عندما يفهم الطلاب كيف يفهمون الروح البدئية يتغلبون على الأضداد القطبية للنور والظلمة ولا يعودون يمكثون في العوالم الثلاثة[6]. لكن من يكون قد تصور الوجه الأصلي للطبيعة البشرية هو فقط من يكون قادراً على فعل ذلك.

عندما يُحرر البشر من الرحم، تستقر الروح البدئية في الإنش المربع (بين العينين)، لكن الروح الواعية تسكن أسفل في القلب. لهذا القلب اللحمي الأدنى شكل خوخة كبيرة: إنه مغطى بجناحي الرئتين، مدعوماً بالكبد، وتخدمه الأمعاء.هذا القلب معتمد على العالم الخارجي. فإذا لم يأكل الإنسان ليوم واحد، فإنه [القلب] يشعر بالضيق إلى درجة قصوى. إذا سمع شيئاً مرعباً فإنه يخفق؛ إذا سمع شيئاً مغضباً فإنه يتوقف؛ إذا واجهه الموت يصبح حزيناً؛ إذا رأى شيئاً جميلاً فإنه ينبهر. لكن القلب السماوي في الرأس، متى سيكون قد تحرك في الحد الأدنى؟ هل تسأل: هل يمكن للقلب السماوي ألا يتحرك؟ عندئذ أجيب: كيف أمكن للفكر

الحقيقي في الإنش المربع أن يتحرك! إذا تحرك حقاً، فهذا ليس جيداً. لأنه عندما يموت الناس العاديون يتحرك، لكن هذا ليس جيداً. من الأفضل بالفعل إذا كان النور قد تصلب متحولاً إلى روح ـ جسد واخترقت طاقة الحياة لديه بالتدريج الغرائز والحركات. لكن هذا سر لم يكشف لآلاف السنوات.

يتحرك القلب الأسفل مثل قائد قوي مقتدر يزدري الحاكم السماوي بسبب ضعفه، فاغتصب القيادة في شؤون الدولة. لكن عندما يكون بالإمكان تحصين القلعة البدئية والدفاع عنها، عندئذ يكون كما لو أن حاكماً قوياً وحكيماً قد جلس على العرش. تبدأ العينان نشر النور مثل وزيرين على اليمين واليسار يدعمان الحاكم بكل جبروتهما. عندما يكون الحاكم في المركز على هذه الشاكلة في الترتيب، فكل أولئك الأبطال المتمردين سيقدمون أنفسهم بالرماح المعكوسة جاهزين لتلقي الأوامر.

تُعرف الطريق إلى إكسير الحياة بالسحر الأعلى، والبذرة ـ الماء، والروح ـ النار والفكر ـ الأرض: هذه ثلاثة. فما هي البذرة ـ الماء؟ إنها الطاقة الواحدة الحقيقية للسماء السابقة (الإيروس).

الروح ـ النار هي النور (اللوغوس). الفكر ـ الأرض هو القلب السماوي للمقام الأوسط (الحدس). تستخدم الروح ـ النار من أجل الإنجاز، والفكر ـ الأرض من أجل الجوهر، والبذرة ـ الماء من أجل الأساس. البشر العاديون يصنعون أجسادهم من خلال الأفكار. الجسد ليس فقط الجسم الخارجي بطول سبعة أقدام. في الجسد تكون الأنيما. الأنيما ترتبط بالوعي. الوعي يعتمد في منشأه على الأنيما. الأنيما مؤنث (يين yim)، إنها جوهر الوعي. طالما أن هذا الوعي ليس منقطعاً، فإنه يستمر في الإنجاب من جيل إلى جيل، ولا تتوقف تغيرات شكل الأنيما وتحولات الجوهر.

لكن، إضافة إلى ذلك، ثمة الأنيموس الذي تلتجئ فيه الروح. الأنيموس يعيش في النهار في العينين؛ في الليل يأوي إلى الكبد. عندما يعيش في العينين، فإنه يبصر؛ عندما يسكن في الكبد فإنه يحلم. الأحلام هي تجوالات [صولات] الريح عبر كل السماوات التسع وكل الأراضي التسع. لكن كل من يكون في مزاجٍ كئيب وانطوائيٍ عند الاستيقاظ، ومقيداً إلى شكله الجسدي، يكون مقيداً بالأنيما. لذلك يتحقق تركيز الأنيما عن طريق نشر النور، وبهذه الطريقة يتم الحفاظ على الروح، وإخضاع الأنيما وفصل الوعي. كانت الطريقة المتبعة من قبل القدماء لأجل الهروب من العالم تقوم على إذابة خبث الظلام كاملاً لكي يعود إلى المبدع الخالص. هذا ليس أكثر من إنقاص للأنيما وإكمال للأنيموس. ونشر النور هو الوسيلة السحرية لإنقاص الظلام وإحراز السيادة على الأنيما. ـ حتى لو كان العمل غير موجه نحو استعادة الخلاق، بل ينحصر بالوسيلة السحرية لنشر النور، فإن النور بالضبط هو الخلاق. فبواسطة نشره،



التأمل، المرحلة 1، تجميع النور



يعود المرء إلى الخلاق. إذا اتبعت هذه الطريقة، فإن الكثير من البذرة ـ الماء سيوجد من تلقاء ذاته؛ الروح ـ النار سيتم إشعالها، والفكر ـ سوف يتصلب ويتبلور. وهكذا تنضج الثمرة المقدسة. الجعل يدحرج كرته وفي الكرة تنشأ الحياة كنتيجة للجهد غير المجزأ لتركيزه الروحي. الآن إذا كان بمقدور جنين أن ينمو في السماد، ويشب عن طوقه، فلماذا لا ينبغي على مكان إقامة قلبنا السماوي أيضاً أن يكون قادراً على خلق جسد إذا ركزنا الروح عليه؟

عندما تهبط الطبيعة البشرية الفعلية، الحقيقية الواحدة (اللوغوس موحداً مع الحيوية)، إلى بيت الخلاق، تنقسم إلى أنيموس وأنيما. يكون الأنيموس في القلب السماوي. إنه من طبيعة النور، إنه القدرة على الإنارة والطهارة. إن ما تلقيناه من الفراغ العظيم، هو الذي يكون متطابقاً مع البداية البدئية. الأنيما تشترك بطبيعة الظلام. إنها طاقة الثقيل والعكر؛ إنها مقيدة إلى القلب اللحمي الجسدي. الأنيموس يحب الحياة. الأنيما تنشد الموت. كل الرغبات الحسية ونوبات الغضب هي نتائج للأنيما؛ إن الروح الواعية هي التي تتغذى بعد الموت على الدم، لكنها تكون في أشد كرب في أثناء الحياة المظلم يعود إلى الظلمة ومثل الأشياء يجذب أحدهما الآخر وفقاً لنوعيهما. لكن التلميذ يفهم كيف يقطر الأنيما المظلمة بشكل كامل بحيث تحول ذاتها إلى نور خالص (yang)[7].

(في هذا الجزء يوصف الدور الذي تلعبه الروح البدئية والروح الواعية في صنع الجسد البشري. يقول المعلم، حياة الإنسان مثل حياة ذبابة أيار: وحدها الطبيعة الحقيقية للروح البدئية يمكنها أن تتجاوز دورة السماء والأرض وقدر الدهور. الطبيعة البشرية الحقيقية تنبع من تلك الطبيعة التي لا تمتلك قطبية [النهائية] وتتلقى الطاقة الأولية للقطبية [النهائية] التي تدخل عن طريقها الجوهر الحقيقي للسماء والأرض إلى ذاتها وتصبح

الروح الواعية، كروح بدئية تتلقى طبيعتها البشرية من الأب والأم. هذه الروح البدئية هي بلا وعي ولامعرفة، لكنها قادرة على تنظيم السيرورات التشكلية للجسم. الروح الواعية ظاهرة جداً وفعالة جداً. ويمكنها أن تكيف نفسها بلا توقف. إنها الحاكم للقلب البشري. طالما أقامت في الجسد فهي الأنيموس. بعد الافتراق عن الجسد تصبح روحاً. وبينما يدخل الجسد إلى الوجود، لا تكون الروح البدئية بعد قد شكلت جنيناً يمكنها أن تندمج فيه. لهذا فهي تبلور ذاتها في الواحد الحر اللامستقطب.

في وقت الولادة تستنشق الروح الواعية الطاقة وبذلك تصبح مقر المولود الجديد. إنها تعيش في القلب. منذ ذاك الوقت فصاعداً يكون القلب سيداً، والروح البدئية تفقد مكانها في حين تمتلك الروح الواعية السلطة.

الروح البدئية تعشق السكون، والروح الواعية تعشق الحركة. ففي حركتها تبقى مقيدة إلى المشاعر والرغبات.

إنها تضع البذرة البدئية ليلاً ونهاراً إلى أن تستنفد طاقة الروح البدئية بالكامل. عندئذ فإن الروح الواعية تغادر القوقعة وتمضي بعيداً.

كل من فعل خيراً في الأغلب يمتلك الروح ـ الطاقة التي تكون نقية وصافية عندما يأتي الموت. إنها تخرج عن طريق الفتحات العليا للفم والأنف. ترتفع الطاقة النقية والخفيفة نحو الأعلى و تحلق إلى السماء وتصبح الظل ـ العبقري الحاضر الخماسي الأجزاء أو الظل ـ الروح. لكن لو استعملت الروح البدئية، أثناء الحياة، من قبل كل أصناف الآثام، عندئذ في لحظة الموت تكون الروح ـ الطاقة مضطربة ومشوشة، والروح الواعية تخرج مع الزفير، من خلال الفتحات السفلى لباب البطن. لأنه إذا كانت الروح ـ الطاقة مضطربة وغير نقية فإنها تتبلور نحو الأسفل، تغوص إلى الجحيم، وتصبح عفريتاً. عندئذ لا تفقد الروح البدئية طبيعتها فحسب،

بل تقل بذلك سلطة وحكمة الطبيعة البشرية الحقيقية أيضاً، لذلك يقول المعلم: إذا تحركت، فهذا ليس جيداً.

إذا أراد المرء أن يصون الروح البدئية فيجب عليه أولاً، بلا فشل، أن يُخضع الروح المدركة [بالحواس]. أما الطريق إلى إخضاعها فهو من خلال نشر النور. إذا مارس المرء نشر النور، فيجب عليه أن ينسى كلاً من الجسد والقلب. يجب أن يموت القلب وأن تحيا الروح. عندما تحيا الروح، سيبدأ النفَس بالانتشار بطريقة رائعة. هذا هو ما دعاه المعلم بالأفضل جداً[8]. ثم يجب السماح للروح بأن تغوص في البطن (الضفيرة الشمسية). عندئذ تقيم الطاقة اتصالاً مع الروح، وتتحد الروح مع الطاقة وتبلور ذاتها. هذه هي طريقة إقلاع العمل.

مع مرور الزمن، تحول الروح البدائية ذاتها في متر الحياة إلى الطاقة الحقيقية. في هذا الوقت يجب تطبيق طريقة تدوير دولاب الطاحون لتقطيرها، بحيث تصبح إكسير الحياة. تلك هي طريقة العمل المركز.

عندما يتم إنهاء لؤلؤة إكسير الحياة، يمكن تشكيل الجنين المقدس؛ عندئذ يجب توجيه العمل إلى تدفئة الجنين الروحي وتغذيته. تلك هي طريقة الإنهاء [اللمسات] الأخيرة.

عندما تشكل الطاقة ـ الجسد للطفل تشكلاً تاماً، يجب توجيه العمل كذلك بحيث يولد الجنين ويعود إلى الفراغ. تلك هي طريقة إنهاء العمل.

منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم، هذا ليس حديثاً فارغاً، بل هو تسلسل الطريق العظيم في الطريقة الصحيحة لإنتاج روح حية وخالدة بشكل أبدي وإنسان مقدس.

لكن إذا كان العمل حتى الآن منجزاً، عندئذ فكل شيء ينتمي إلى المبدأ المظلم يجري امتصاصه بالكامل، ويولد الجسد نوراً خالصاً، وعندما تتحول الروح الواعية إلى روح بدئية، نستطيع القول عندئذٍ إنها بلغت قدرة على

التحول لا نهاية لها، وبعد أن تخرج من دورة الولادات تصل إلى الجني الذهبي ذي الحضور السداسي[9]، وإذا لم نطبق منهج الارتقاء هذا فكيف نتخلص من طريق الموت والحياة؟

3 ـ تدوير النور وحماية المركز

قال المعلم لو ـ تسو، منذ متى تم الكشف عن تعبير عبارة "تدوير النور"؟ لقد كشف عنه "البشر الحقيقيون لبداية الشكل". (كوان يين ـ هسي)[10]. عندما يجعل النور يتحرك في دائرة، تتبلور طاقات السماء والأرض، طاقات النور والظلام، هذا ما يصطلح على تسميته بالتفكير الشبيه بالبذرة، أو تنقية الطاقة، أو تطهير الفكرة. عندما يبدأ المرء بتطبيق هذا السحر يكون في منتصف الوجود، كما لو أنه كان ثمة عدم. عندما يتم إكمال العمل في سياق الزمن، وما بعد الجسد يوجد جسد، يكون الأمر كما لو كان ثمة وجود في منتصف العدم.

بعد عمل مركز مدته مئة يوم فقط سيكون النور حقيقياً، عندئذ فقط سيصبح روحاً ـ ناراً. بعد مئة يوم وفي وسط النور تنشأ نقطة قطب النور الحقيقي (يانغ). ثم فجأة تنشأ لؤلؤة البذرة. إنه كما لو أن الرجل والمرأة تعانقا وحدث الحمل. عندئذ يجب على المرء أن يكون هادئاً تماماً وينتظر. إن نشر النور هو عصر النار.

في وسط التحول البدئي، فإن إشعاع النور (yang – kuang) هو الشيء الحاسم. أما في العالم الفيزيائي فإنه الشمس؛ في الإنسان هو العين. إن إشعاع وتبدد الوعي الروحي يتحقق بشكل رئيسي عن طريق هذه الطاقة

عندما تكون موجهة نحو الخارج (تجري نحو الأسفل. لذلك فإن طريق الزهرة الذهبية يعتمد كلياً على طريقة التدفق نحو الوراء.

يقف قلب الإنسان تحت علامة النار[11] يضغط لهب النار نحو الأعلى. عندما تكون العينان تنظران إلى أشياء العالم فإنهما بهذه الرؤية تتجهان نحو الخارج. الآن إذا أغمض المرء العينين وبإعكاس النظر، تتجهان نحو الداخل وتنظران إلى غرفة الأسلاف، تلك هي طريقة التدفق نحو الوراء. إن طاقة الكليتين هي تحت علامة الماء. عندما تُحرك الرغبات، فإنها تجري نحو الأسفل، وتوجه نحو الخارج، وتخلق الأطفال. إذا، في لحظة الإطلاق لا يسمح لها بالتدفق نحو الخارج، لكنها تُعاد عن طريق طاقة الفكر ، بحيث تخترق بوتقة المبدع وتنعش القلب والجسد وتغذيهما، هذه هي أيضاً طريقة التدفق نحو الوراء. لذلك يقال، إن طريق إكسير الحياة يعتمد كلياً على طريقة التدفق نحو الوراء.

ليس نشر النور نشراً للبذرة ـ الزهرة للجسد الفردي فقط، بل هو حتى نشر للطاقات الحقيقية، الخلاقة، التكوينية. إنه ليس استيهاماً لحظياً، بل استهلاك لدورة (هجرات النفس) كل الدهور. لذلك فإن مدة نفس واحد تعني عاماً وفقاً للحساب البشري ومئة عام مقاسة بالليل الطويل للمسارات التسعة (التقمصات).

بعد أن يخلف الإنسان الصوت الواحد للتفرد[12] وراءه، سيولد إلى الخارج وفقاً للظروف، وحتى شيخوخته لن ينظر إلى الوراء أبداً.

إن طاقة النور تستهلك ذاتها وتتبدد، وهذا ما يدخل الظلام المضاعف تسعاً (للتقمصات) إلى العالم. في كتاب لنغ ين[13] يقال: "بتركيز الأفكار، يمكن للمرء أن يطير؛ بتركيز الرغبات، يسقط". عندما يولي التلميذ عناية قليلة لأفكاره وعناية كبيرة لرغباته، يدخل في مسار الانغمار. من خلال

التأمل والهدوء فقط ينشأ الحدس الحقيقي: لذلك تكون طريقة التدفق نحو الوراء ضرورية.

في **كتاب المراسلات السرية**[14] يقال: "يكون الانطلاق في العين". في الأسئلة البسيطة للحاكم الأصفر[15] يقال: "البذور ـ الأزهار للجسد البشري يجب أن تركز نحو الأعلى في الفضاء الخالي". هذا يشير إلى ذلك. فالخلود محتوى في هذه الجملة وكذلك قهر العالم محتوى فيها. هذا هو الهدف المشترك لكل الأديان.

النور ليس في الجسد وحده، ولا هو خارج الجسد فقط. الشمس والقمر ينيران الجبال والأنهار والأرض العظيمة؛ كل ذلك هو هذا النور. لذلك فهو ليس ضمن الجسد فقط. الفهم والوضوح، الإدراك والتنوير، وكل الحركات (حركات الروح) هي بالشكل نفسه هذا النور؛ لذلك فهو ليس مجرد شيء خارج الجسد. فالنور ـ الزهرة للسماء والأرض يملأ كل الفضاءات الألف. لكن النور ـ الزهرة للجسد الفردي أيضاً يمر من خلال السماء ويغطي الأرض. لذلك حالما ينتشر النور، فإن السماء والأرض، الجبال والأنهار، كلها تنتشر معه في الوقت نفسه. إن تركيز البذرة ـ الزهرة للجسد البشري، فوق في العينين، ذاك هو المفتاح للجسد البشري. أيها الأطفال انطلقوا ولو ليوم واحد، لا تمارسوا فيه التأمل، يتدفق هذا النور خارجاً، من يدري إلى أين؟ إذا تأملتم لربع ساعة فقط، فيمكنكم بذلك أن تستغنوا عن الدهور العشرة الآلاف والولادات الألف. كل الطرق تنتهي بالسكينة والهدوء. هذا السحر العجيب لا يمكن سبر أغواره.

لكن عندما يتم البدء بالممارسة، يجب على المرء أن يثابر من الواضح إلى العويص، من الخشن إلى الناعم. كل شيء يعتمد على عدم وجود انقطاع. بداية ونهاية الممارسة يجب أن تكونا واحدة. فيما بينهما توجد لحظات

أبرد وأسخن، من نافلة القول. لكن الهدف يجب أن يكون بلوغ اتساع السماء وأعماق البحر، بحيث تبدو كل الطرائق سهلة تماماً وتعتبر بديهية. عندئذ فقط نكون قد سيطرنا عليه.

كل البشر المقدسين قد توارثوا هذا: لا شيء ممكناً بدون تأمل (فان ـ تشاو، التفكر). عندما يقول كونفوشيوس: "الإدراك يوصل المرء إلى الهدف"، أو عندما يدعوه بوذا: "رؤية القلب"، أو يقول لاو ـ تسي: "رؤية داخلية"، فكله سيان.

كل شخص يمكنه أن يتحدث حول التأمل، لكنه لا يستطيع أن يتمكن منه إذا لم يعرف ما تعنيه الكلمة. ما ينبغي إعكاسه عن طريق التأمل هو القلب الواعي لذاته، الذي يتعين أن يوجه ذاته نحو النقطة التي لا تكون فيها الروح التكوينية ظاهرة بعد.

ضمن جسدنا [البالغ] ستة أقدام يجب أن نكافح من أجل الشكل الذي وجد قبل بسط السماء والأرض. إذا جلس الناس اليوم وتأملوا فقط ساعة أو ساعتين، وهم ينظرون إلي أنواتهم فقط، وسموا ذلك تأملاً، فكيف يمكن أن ينتج أي شيء من ذلك؟

لقد علّمنا مؤسسا البوذية والطاوية أن على المرء أن ينظر إلى رأس أنفه. لكنهما لم يقصدا بذلك أن على المرء أن يثبت أفكاره على رأس الأنف. ولا قصدا أنه، في حين تكون العينان تنظران إلى رأس الأنف، ينبغي تركيز الأفكار على المنتصف الأصغر. فحيثما نظرت العينان، يُوجه القلب أيضاً. كيف يمكن أن يوجه في الوقت نفسه نحو الأعلى (المنتصف الأصغر)، ونحو الأسفل (رأس الأنف)، أو بالتبادل، بحيث يكون تارة إلى الأعلى وتارة إلى الأسفل؟ كل هذا يعني الخلط بين الإصبع التي تشير إلى القمر والقمر نفسه.

ما هو إذاً المقصود حقاً بذلك؟ إن عبارة "رأس الأنف" مختارة بشكل ذكي جداً. يجب أن يخدم الأنف العينين كخط دليل. إذا لم يستهدِ المرء بالأنف، فإما أن يفتح العينين واسعتين ويمعن النظر إلى البعيد، بحيث لا يُرى الأنف، أو ينغلق الجفنان أكثر مما ينبغي، بحيث تغمض العينان، ومرة أخرى لا يُرى الأنف. لكن عندما تُفتح العينان بشكل أوسع مما ينبغي، فإن المرء يرتكب خطأ توجيههما نحو الخارج، وبذلك يُشتت انتباه المرء بسهولة. إذا أُغمضتا أكثر مما ينبغي، فإن المرء يرتكب خطأ تركهما تدوران نحو الداخل، وبذلك يغوص المرء بسهولة في حلم يقظة. عندما يُخفض الجفنان تماماً فقط يكون منتصف المسافة هو رأس الأنف منظوراً إليه بالطريقة الصحيحة تماماً، لذلك يؤخذ كخط دليلي. إن الشيء الرئيسي هو إخفاض الجفنين بالطريقة الصحيحة، ومن ثم السماح للنور بالتدفق من تلقاء ذاته؛ بلا جهد، يقل النور للدخول بشكل مركز. إن النظر إلى رأس الأنف يفيد فقط كبداية للتركيز الداخلي، بحيث تدار العينان في الاتجاه الصحيح من أجل النظر، ومن ثم تُثبتان إلى الخط الدليلي. بعد ذلك، يمكن للمرء أن يدعه. تلك هي الطريقة التي يدلي بها البنّاء خيط الشاقول.

إن التأمل المثبت[16] هو طريقة بوذية لم يتم تقديمها بأي شكل من الأشكال بوصفها سراً.

ينظر المرء بكلتي العينين إلى رأس الأنف، يجلس منتصباً وفي وضعية مريحة، ويثبت القلب إلى المركز في منتصف الشروط. في الطاوية يدعى ذلك المنتصف الأصفر، في البوذية يدعى مركز منتصف الشروط. الاثنان هما واحد. إنه لا يعني بالضرورة منتصف الرأس. إنها فقط مسألة تثبيت المرء تفكيره على النقطة التي تقع تحديداً بين العينين. ثم كل شيء يكون على ما يرام. النور شيء متنقل إلى درجة قصوى. عندما يثبت المرء الفكر على

نقطة المنتصف بين العينين، يتدفق النور داخلاً من تلقاء ذاته. ليس من الضروري توجيه الانتباه بشكل خاص إلى القلعة المركزية. هذه الكلمات القليلة تحتوي على أهم شيء.

المركز في وسط الشروط هو تعبير دقيق جداً. فالمركز هو كلي الوجود؛ كل شيء محتوى فيه؛ إنه متصل بإطلاق سيرورة الخلق بأكملها. الشرط هو الباب. الشرط، أي تحقيق هذا الشرط، يصنع البداية، لكنه لا يحقق البقية بالضرورة الحتمية. إن معنى هاتين الكلمتين مائع ومراوغ جداً.

التأمل المثبت لا غنى عنه؛ فهو يضمن جعل التنوير راسخاً. ما على المرء سوى ألا يبقى جالساً بشكل متصلب إذا جاءت الأفكار الدنيوية، بل يجب عليه أن يتفحص أين تكون الفكرة، أين بدأت، وأين تتلاشى؟ لا شيء يتم إحرازه عن طريق المزيد من التأمل. يجب على المرء أن يكتفي برؤية أين نشأت الفكرة، وألا يسعى إلى ما بعد نقطة الأصل؛ لأن إيجاد القلب (الوعي ـ الوصول إلى ما وراء الوعي بالوعي)، لا يمكن القيام به.

نريد أن نصل بحالات القلب إلى الراحة، ذاك هو التأمل الحقيقي. أما ما يناقضه فهو التأمل الزائف. هذا لا يؤدي إلى أي هدف. عندما يستمر صراع الأفكار في الاتساع، ينبغي على المرء أن يقف ويبدأ التأمل. تلك هي الطريقة المزدوجة لجعل التنور راسخاً. إنها تعني نشر النور. فالنشر هو تثبيت. النور تأمل. التثبيت بدون تأمل هو نشر بدون نور. انتبه إلى ذلك!

"المعنى العام لهذا المقطع هو أن حماية المركز هامة لأجل نشر النور. لقد تعامل المقطع الأخير مع ثيمة أن الجسد البشري يكون ملكية قيّمة جداً عندما تكون الروح البدئية سيدة. لكن عندما تستخدمها الروح الواعية، فإن هذه الأخيرة تتسبب في أن تكون الروح البدئية مفتتة ومهدورة في النهار والليل. عندما تُبلى بشكل كامل فإن الجسد يموت. الآن توصف الطريقة التي يمكن بها إخضاع الروح الواعية وحماية الروح البدئية؛ هذا

مستحيل إذا لم يبدأ المرء بجعل النور ينتشر. إنه يشبه ما يلي: إذا كان المراد تشييد بيت رائع، فيجب أولاً بناء أساس متين. عندما يكون الأساس راسخاً، عندئذ فقط يمكن أن يتقدم العمل ويمكن تأسيس قاعدة الجدران بشكل عميق وصلب، وتشييد الأعمدة والجدران. إذا لم يكن الأساس موضوعاً بهذه الطريقة، فكيف يمكن إكمال البيت؟ إن طريقة رعاية الحياة هي مثل ذلك بالضبط. فنشر النور يقارن بأساس البناء. عندما ينتصب الأساس راسخاً، فكم يمكن بناؤه بسرعة! حماية المنتصف الأصفر بنار الروح: هذا هو عمل البناء. لذلك فإن المعلم يوضح بشكل خاص الطريقة التي يدخل بها المرء إلى رعاية الحياة، ويدعو الناس إلى النظر بكلتي العينين إلى رأس الأنف،



التأمل المرحلة 2. منشأ كائن جديد في مكان القدرة



وإخفاض الجفنين، والنظر إلى الداخل، والجلوس بهدوء بجسم منتصب، وتثبيت القلب على المركز في وسط الشروط.

إن إبقاء الأفكار على الفضاء بين العينين يسمح للنور بالاختراق. بناء على ذلك، تتبلور الروح وتدخل المركز في وسط الشروط. المركز في وسط الشروط هو حقل الإكسير الأدنى، مكان الطاقة (الضفيرة الشمسية).

ألمح المعلم إلى ذلك سراً عندما قال إنه في بداية الممارسة يجب على المرء أن يجلس في غرفة هادئة، يكون الجسم مثل الخشب الجاف، والقلب مثل الرماد المبرَّد. دع جفني العينين مخفضين؛ ثم انظر إلى الداخل وطهر القلب، واغسل الأفكار، وأوقف اللذات، وصن البذرة. اجلس يومياً لتتأمل بساقين متصالبتين. دع النور في العينين محجوزاً؛ دع قدرة الأذن على السمع تتبلور ودع قدرة اللسان على التذوق ضعيفة؛ أي، ينبغي أن يرفع اللسان إلى سقف الفم؛ ودعم التنفس من خلال الأنف إيقاعياً، والأفكار مثبتة على الباب المظلم. إذا لم يُجعل التنفس في البداية إيقاعياً فيخشى أن تكون هناك صعوبة في التنفس، بسبب الانسداد. عندما يغمض المرء العينين ينبغي عليه أن يتخذ مقياساً من النقطة على جسر الأنف التي تقع حوالي نصف إنش تحت نقطة تقاطع خط الرؤية. حيث يوجد نتوء صغير على الأنف. ثم يبدأ المرء بتجميع أفكاره؛ فالأذنان تجعلان التنفس إيقاعياً؛ الجسم والقلب يكونان مرتاحين ومتناغمين. نور العينين يجب أن يشع بهدوء، ولزمن طويل، فلا يجب أن يتسلل النعاس ولا الشرود. العينان لا تنظران إلى الأمام، إنهما تخفضان جفنيهما وتكشفان ما هو بداخلهما. يطبق المرء الشفتين ويتنفس إلى الداخل. التنفس يكون في هذا المكان. الأنف لا يشم أية روائح. الشم في هذا المكان. الأذن لا تسمع الأشياء في الخارج. السمع يكون في هذا المكان. القلب بكامله يطل على ما في الداخل. مراقبته

في هذا المكان. الأفكار لا تسرح نحو الخارج، الأفكار الحقيقية لها أمد في ذاتها.

إذا كانت الأفكار تدوم فإن البذرة دائمة، إذا كانت البذرة تدوم، فإن الطاقة تدوم، إذا كانت الطاقة تدوم فإن الروح سوف تدوم، الروح هي الفكر، الفكر هو القلب، القلب هو النار، النارهي الإكسير. عندما ينظر المرء إلى ما في الداخل بهذه الطريقة، فإن أعجوبتي انفتاح بوابات السماء وانغلاقها لا تنضبان. لكن الأسرار الأعمق لا يمكن إحداثها بدون جعل التنفس إيقاعياً.

إذا بدأ التلميذ ولم يكن بمقدوره أن يثبت أفكاره إلى المكان الواقع بين العينين، إذا أغمض العينين، لكن طاقة القلب لا تمكنه من رؤية فضاء الطاقة، فإن السبب الأكثر رجحاناً هو أن التنفس أعلى صوتاً وأسرع مما ينبغي، والشرور الأخرى تنشأ عن ذلك، لأن الجسم والقلب يبقيان مشغولين، وهما يحاولان أن يكبحا بقوة اندفاع الطاقة والتنفس السريع.

إذا كانت الأفكار مثبتة فقط إلى العينين، لكن الروح ليست مبلورة في الضفيرة الشمسية (المركز في وسط الشروط)، فإنه كما لو أن المرء قد صعد إلى الرواق، لكنه لم يدخل بعد إلى الحجرة الداخلية. عندئذ لن تظهر الروح - النار، وتبقى الطاقة باردة، والثمرة الحقيقية ستكشف نفسها بالكاد.

لذلك يضمر المعلم الخوف من أن يثبت البشر أفكارهم فقط على المكان الموجود على الأنف، في غمرة مساعيهم، لكنهم يفشلون في التفكير في تثبيت فكراتهم على فضاء الطاقة، هذا هو السبب في أنه استخدم مقارنة البناء مع خط الشاقول. يستعمل البنَّاء خط الشاقول فقط لكي يرى إن كان جداره عمودياً أو مائلاً، ولأجل ذلك يفيد الخيط كخط دليل. عندما يكون قد حدد الاتجاه، يمكنه أن يبدأ العمل. لكنه عندئذ يعمل على الجدار، وليس على خط الشاقول، هذا واضح. من يُفهم أن تثبيت الأفكار. وحتى

لو استوعب التلاميذ طريقة القيام بالشيء، فإنه يخشى من أنهم قد يقطعون عملهم، و هكذا يقول بضع مرات: "بعد مئة يوم من العمل المثابر، عندئذ فقط يكون النور حقيقياً؛ عندئذ فقط يمكن للمرء أن يبدأ العمل بالروح - النار". إذا باشر المرء بطريقة هادئة، بعد مئة يوم تنشأ بشكل عفوي في النور نقطة من النور الخلاق الأصيل (يانغ). يجب على التلاميذ أن يتفحصوا ذلك بقلوب مخلصة.

4 - تدوير النور وجعل التنفس إيقاعياً

قال المعلم لو - تسو، يجب تنفيذ القرار بقلب ساكن، وعدم السعي إلى النجاح؛ فالنجاح سيأتي بعدئذ من تلقاء ذاته. في الفترة الأولى من الانطلاق يوجد بشكل رئيسي خطأان: التراخي والشرود. لكن هذا يمكن علاجه؛ فالقلب يجب ألا يدخل في التنفس بشكل كامل أكثر مما ينبغي. التنفس يأتي من القلب(17). حالما يتحرك القلب، تنشأ طاقة التنفس. إن طاقة التنفس هي أصلاً نشاط محوّل للقلب. عندما تمضي فكرتنا سريعة جداً تمر بشكل غير مدرك إلى الاستيهامات التي تكون مصحوبة دوماً بسحبة نَفَس، لأن هذا التنفس الداخلي والخارجي يَعلقان معاً مثل الصوت والصدى. ففي كل يوم نسحب شهقات لا تعد ولا تحصى ونمتلك عدداً مساوياً من الاستيهامات. وهكذا فإن وضوح الروح ينحسر مثلما يجف الخشب ويتطاير الرماد.

هل ينبغي إذن ألا يكون للإنسان أية تخيلات في ذهنه؟ فالمرء لا يمكنه أن يكون بلا تخيلات. هل على المرء ألا يتنفس؟ فالمرء لا يمكنه الاستغناء عن التنفس. أفضل طريقة هي جعل الداء دواء. بما أن القلب والنَفَس

معتمدان على بعضهما البعض بشكل متبادل، فإن نشر النور يجب أن يُوحد مع إيقاع التنفس. من أجل ذلك، فإن نور الأذن هو ضروري قبل كل شيء. إن نور العين هو النور الموحد للشمس والقمر في الخارج. أما نور الأذن فهو البذرة الموحدة للشمس والقمر في الداخل. لذلك فإن البذرة هي النور في الشكل المبلور. كلاهما لهما نفس المنشأ ولا يختلفان إلا في الاسم. لذلك فإن الفهم (الأذن) والوضوح (العين) هما النور الفعلي الواحد ذاته.

في الجلوس، بعد إخفاض الجفنين، يستخدم المرء العينين لكي ينشيء خط شاقول ثم ينقل النور نحو الأسفل. لكن إذا لم يكن النقل نحو الأسفل ناجحاً، عندئذ يوجه القلب نحو الإصغاء إلى التنفس. لا ينبغي للمرء أن يكون قادراً على أن يسمع بالأذن خروج ودخول النَفَس. ما يسمعه المرء يكون أجشَّ وسطحياً، ولا ينفذ إلى العلن. عندئذ يجب أن يُجعل القلب خفيفاً وعديم الأهمية تماماً. كلما زاد إعتاقه، أصبح أصغر؛ وكلما صغر صار أهدأ. فيصبح كله في وقت واحد هادئاً للغاية إلى درجة أنه يتوقف. عندئذ يكون التنفس الحقيقي ظاهراً ويستفيق شكل القلب إلى الوعي. فإذا كان القلب خفيفاً، يكون التنفس خفيفاً، لأن كل حركة من القلب تؤثر على طاقة التنفس. إذا كان التنفس خفيفاً، يكون القلب خفيفاً، لأن كل حركة من طاقة التنفس تؤثر على القلب. لكي يستقر القلب يبدأ المرء بالعناية بطاقة التنفس. لا يمكن للقلب أن يتأثر بشكل مباشر. لذلك تستخدم طاقة التنفس كقبضة، وهذا ما يدعى صون طاقة التنفس المركزة.

أيها الأولاد: ألا تفهمون طبيعة الحركة؟ فالحركة يمكن إنتاجها بوسائل خارجية. إنها ليست سوى اسم آخر للسيطرة. يمكن للمرء أن يجعل القلب يتحرك بمجرد الجري. ألا ينبغي أن يكون المرء أيضاً قادراً على إيصاله إلى الراحة عن طريق السكون المركز؟ القديسون العظام الذين

عرفوا كيف يؤثر القلب وطاقة التنفس بشكل متبادل كل منهما على الآخر، ابتدعوا إجراءً أسهل لكي يساعدوا الأجيال القادمة.

في كتاب الإكسير[18] يقال: "الدجاجة تفقس بيضها لأن قلبها يصغي دوماً". هذه رقية سحرية هامة. فالدجاجة تفقس بيضها بسبب طاقة القلب. لكن طاقة القلب لا يمكنها أن تدفىء القشور؛ لا يمكنها أن تنفذ إلى الداخل. لذلك فهي [أي الدجاجة] تنقل هذه الطاقة نحو الداخل بقلبها. وهذا ما تفعله بسماعها. بهذه الطريقة تركز قلبها بكامله.

عندما ينْفَذ القلب، تنفذ الطاقة، ويتلقى الصوص طاقة القلب ويبدأ بالعيش. لذلك فإن الدجاجة، حتى عندما تترك بيضها في بعض الأحيان، فإنها دوماً تمتلك وضعية الإصغاء بأذن حانية. لهذا فإن تركيز الروح لا يكون منقطعاً. لأن تركيز الروح لا يعاني من أي انقطاع، ولا طاقة القلب تعاني الانقطاع نهاراً أو ليلاً، والروح تستيقظ على الحياة. إن استيقاظ الروح يكون ناجزاً لأن القلب قد مات أولاً. عندما يكون بمقدور إنسان أن يدع قلبه يموت، عندئذ فإن الروح البدئية تستيقظ على الحياة. إن قتل القلب لا يعني تركه يجف ويذوي، بل يعني أنه أصبح غير مجزأ وأصبح مجمعاً في واحد.

قال بوذا: "عندما تثبت قلبك على نقطة واحدة، عندئذ لا شيء مستحيل عليك". القلب يهرب بسهولة، لذلك من الضروري تركيزه بواسطة طاقة التنفس. تصبح طاقة التنفس خشنة بسهولة، لذلك يتعين تهذيبها عن طريق القلب. عندما يُنجز ذلك، فهل يمكن أن يحدث ألا يكون ثابتاً؟

يجب مقارعة خطأي التراخي والشرود عن طريق العمل السريع الذي تتم المواظبة عليه يومياً بلا انقطاع؛ عندئذ سوف يتحقق النجاح بالتأكيد.

وإذا لم يجلس المرء متأملاً، فإنه على الأغلب سوف يشرد دون أن يلاحظ ذلك.

أن تصبح واعياً للشرود هو الإوالية التي تتخلص بها من الشرود. إن التراخي الذي يكون الإنسان واعياً له، والتراخي الذي يكون غير واع له، هما بعيدان عن بعضهما مسافة ألف ميل. فالتراخي اللاواعي هو تراخ حقيقي؛ أما التراخي الواعي فليس تراخياً كاملاً، لأنه يظل بعض الوضوح باقياً فيه. يأتي الشرود من ترك الذهن يجول؛ يأتي التراخي من عدم كون الذهن صافياً بعد. الشرود أسهل تصحيحاً بكثير من التراخي. إنه داء: إذا شعر المرء بالآلام والتحسسات، فيمكنه أن يعالجها بالأدوية، لكن التراخي مثل مرض يترافق بنقص الإدراك. الشرود يمكن معاكسته، التشوش يمكن تسويته، لكن التراخي والنوام ثقيلان وقاتمان، الشرود والتشوش يمتلكان مكاناً على الأقل، أما في التراخي والنوام فتكون الأنيما وحدها فاعلة. في الشرود لا يكون الأنيموس لا يزال موجوداً، أما في التراخي فيسود الظلام الخالص. إذا أصاب النعاس المرء أثناء التأمل، فهذا نتيجة للتراخي. وحده التنفس يفيد في التغلب على التراخي. رغم أن النَفَس الذي يتدفق داخلاً خارجاً من خلال الأنف ليس النَفَس الصحيح، فإن دخول وخروج النفس الصحيح يحدثان بالارتباط معه.

لذلك يجب على المرء دوماً، فيما هو جالس، أن يبقي القلب هادئاً والطاقة مركزة. فكيف يمكن جعل القلب هادئاً؟ بالنَفَس. وحده القلب يجب أن يكون واعياً لخروج ودخول النَفَس؛ إذ يجب ألا يُسمع بالأذنين. إذا لم يُسمع، عندئذ يكون التنفس خفيفاً، فإذا كان خفيفاً، يكون نقياً. إذا كان بالإمكان سماعه، عندئذ تكون طاقة التنفس خشنة؛ إذا كانت خشنة، عندئذ تكون معطلة؛ إذا كانت معطلة، عندئذ ينشأ التراخي والنوام ويرغب المرء في النوم. وهذا مبرهن ذاتياً.

يجب فهم استخدام القلب بشكل صحيح أثناء التنفس، عن طريق النَفَس. وحده القلب يجب أن يكون واعياً لخروج النفس ودخوله؛ يجب ألا يكون مسموعاً بالأذنين. إنه استخدام بلا فائدة. إذ لا ينبغي على المرء سوى أن يدع النور يهبط بشكل لطيف تماماً على السمع. هذه الجملة تحتوي على معنى سري. ماذا يعني أن تدع النور يهبط؟ إنه الإشعاع العفوي لنور العينين. العينان تنظران إلى الداخل فقط وليس إلى الخارج. الإحساس بالسطوع بدون النظر نحو الخارج يعني النظر نحو الداخل. ماذا يعني السماع؟ إنه السماع العفوي لنور الأذن. فالأذن تصغي نحو الداخل فقط ولا تصغي إلى ما هو في الخارج. إن الإحساس بالسطوع بدون الإصغاء إلى ما هو في الخارج هو الإصغاء نحو الداخل، إذ لا علاقة له بالإصغاء بشكل فعلي إلى ما هو في الداخل. في هذا الصنف من السماع، يسمع المرء فقط أنه لا يوجد أي صوت، في هذا النوع من الرؤية، يرى المرء فقط أنه لا يوجد أي شكل. إذا لم تكن العين تنظر نحو الخارج والأذن لا تصغي نحو الخارج، فإنهما يغلقان نفسيهما ويميلان إلى الغوص نحو الداخل. فقط عندما ينظر المرء ويصغي نحو الداخل لا يذهب العضو نحو الخارج ولا يغوص نحو الداخل. بهذه الطريقة يتم التخلص من التراخي والنوام. هذا هو اتحاد البذرة ونور الشمس والقمر.

كنتيجة للتراخي، إذا أصاب النعاس المرء، فيجب عليه أن يقف وأن يتمشى. عندما يكون الذهن قد أصبح صافياً يجب على المرء أن يجلس مرة أخرى. إذا كان ثمة وقت في الصباح، يمكن للمرء أن يجلس أثناء إحراق عود البخور، وهذا هو الأفضل. في فترة ما بعد الظهر، تتداخل الشؤون الإنسانية ولذلك يمكن للمرء أن يقع في التراخي بسهولة. مع ذلك، ليس من الضروري وجود عود بخور. لكن يجب على المرء أن يضع جانباً كل

التعقيدات وأن يجلس ساكناً بهدوء لفترة من الزمن. مع مرور الزمن سيكون هناك نجاح بدون أن يصبح المرء متراخياً وأن يسقط في النوم.

إن الفكرة الأساسية لهذه الفقرة هي أن أهم شيء لإنجاز تدوير النور هو التنفس الإيقاعي. كلما تحسن العمل تعمق التعليم. في أثناء تدوير النور، يجب على التلميذ أن ينسق القلب والتنفس لكي يتجنب مضايقة التراخي والشرود. يخشى المعلم أنه عندما يكون المبتدئون قد جلسوا وأخفضوا أجفانهم، قد تنشأ خيالات مشوشة، و سيبدأ القلب بالخفقان بسببها بحيث يكون من الصعب ضبطه. لذلك فهو يعلم ممارسة عد النَفَس وتثبيت أفكار القلب لكي يمنع طاقة الروح من التدفق نحو الخارج.

لأن النَفَس يخرج من القلب، يأتي التنفس اللاإيقاعي من اضطراب القلب. لذلك يجب على المرء أن يتنفس شهيقاً وزفيراً بشكل لطيف للغاية بحيث يبقى غير مسموع للأذن، ووحده القلب يعد النفسات (الشهقات والزفرات) بهدوء. عندما ينسى القلب عدد النفسات، فهذه علامة على أن القلب قد انحرف إلى العالم الخارجي. عندئذ يجب على المرء أن يثبت القلب. إذا لم تكن الأذن تصغي بانتباه، أو إذا كانت العينان لا تنظران إلى جسر الأنف، فيحدث غالباً أن يتحول القلب إلى الخارج، أو يأتي النوم. وتلك علامة على أن الشرط يميل إلى التشوش والنوام، والبذرة ـ الروح يجب إعادتها إلى النظام مرة أخرى. في تخفيض الجفنين وأخذ الاتجاه من الأنف، إذا لم يكن الفم مغلقاً بإحكام والأسنان ليست منطبقة بشدة إلى بعضها، فقد يحدث بسهولة أن القلب يسرع نحو الخارج؛ عندئذ يجب على المرء أن يغلق الفم بسرعة وأن يطبق الأسنان. إن الحواس الخمس تنظم نفسها وفقاً للقلب، ويجب أن تلتجئ الروح إلى النفس ـ الطاقة بحيث يكون القلب والنفس متناغمين. بهذه الطريقة ثمة حاجة في معظم العمل اليومي إلى عدد قليل من أرباع الساعة من أجل القلب والتنفس،

لكي يدخلا من تلقاء نفسيهما إلى النوع الصحيح من التعاون والتناغم، عندئذ لا يعود المرء يحتاج إلى العد ويصبح التنفس إيقاعياً من تلقاء ذاته. عندما يكون التنفس إيقاعياً يختفي خطأ التراخي والشرود في حينه من تلقاء نفسيهما.

5 ـ الأخطاء المرتكبة أثناء تدوير النور

قال المعلم لو ـ تسو، سيصبح عملك بالتدريج مركزاً وناضجاً، لكن قبل أن تصل إلى الحالة التي تجلس فيها مثل شجرة ذابلة أمام جرف، تبقى إمكانيات كثيرة للغلط أود أن ألفت انتباهكم الخاص إليها. هذه الحالات لا يمكن تمييزها إلا عندما تكون قد اختبرت شخصياً. سأعددها هنا. تختلف مدرستي عن مدرسة اليوغا (chang – tsung)[19] البوذية في أن لها علامات تثبيتية لأجل كل خطوة من الطريق. أولاً أود أن أتكلم عن الأخطاء ومن ثم العلامات تثبيتية.

عندما يبدأ المرء بتنفيذ قراره، يجب اتخاذ الحيطة بحيث يكون بالإمكان مباشرة كل شيء بطريقة مريحة، مسترخية. فلا يجب أن يطلب من القلب أكثر مما ينبغي. يجب أن يكون المرء حريصاً على أن يكون القلب والطاقة متناسقين للغاية، عندئذ فقط يمكن إحراز حالة السكون. أثناء هذه الحالة الهادئة يجب تأمين الشروط الصحيحة والفضاء الصحيح. إذ لا يجب على المرء أن يجلس [ليتأمل] في وسط الأحوال التافهة.

هذا معناه أن الذهن يجب أن يكون خالياً من الانشغالات الفارغة. فكل التعقيدات يجب أن توضع جانباً؛ يجب أن يكون المرء منفصلاً ومستقلاً. ولا يجب أن تكون الأفكار مركزة على الإجراء الصحيح. فهذا الخطر ينشأ

إذا تحمل من العناء أكثر مما ينبغي. لا أقصد أنه لا يتم تحمل أي عناء، بل إن الطريق الصحيح يكمن في الحفاظ على مسافة متساوية بين الوجود والعدم. فإذا تمكن المرء من إحراز التنزه عن الغرض من خلال الغرض، عندئذ فإن الشيء يكون قد تم إدراكه. الآن يمكن للمرء أن يدع نفسه يمضي، منفصلاً بدون تشوش، في طريق مستقل.

علاوة على ذلك، يجب ألا يقع المرء ضحية للعالم الناصب للفخاخ. فالعالم الناصب للفخاخ هو حيث تسرح الأنواع الخمسة من عفاريت الظلام بنفسها. هذا هو الحال، على سبيل المثال، عندما تكون لدى المرء، بعد التأكد، بشكل رئيسي أفكار الخشب الجاف والرماد المنطفيء، وأفكار قليلة للربيع الساطع على الأرض العظيمة. بهذه الطريقة يغوص المرء في عالم الظلام. تكون الطاقة باردة هناك، والتنفس صعباً، وتتكشف صور كثيرة للبرودة والخراب. إذا مكث المرء هناك طويلاً فإنه يدخل عالم النباتات والحجارة.

على المرء ألاّ يتوه بالعشرة آلاف فخاً. هذا يحدث، بعد البدء بالحالة الهادئة، إذا ظهرت فجأة كل أصناف الروابط واحدة تلو الأخرى. فالمرء يريد أن يكسرها ولا يستطيع؛ المرء يتبعها، ويشعر كما لو أن ذلك يريحه. هذا يعني أن السيد أصبح الخادم. إذا مكث المرء في هذه المرحلة طويلاً فإنه يدخل عالم الرغبات الوهمية.

في أحسن الأحوال، يجد المرء نفسه في السماء، وفي أسوأها بين أرواح الثعالب[20]. إن روح الثعلب هذه، وهذا صحيح، قد تكون قادرة على أن تطوف في الجبال الشهيرة وهي تستمتع بالريح والقمر، بالأزهار والثمار، وتأخذ متعتها في الأشجار المرجانية والعشب (المرصع) بالمجوهرات. لكن

بعد القيام بذلك لمدة ثلاثمائة إلى خمسمائة عام، أو على الأكثر لمدة ألفي عام، تنتهي مكافأته ويولد مرة أخرى في عام الاضطراب.

كل هذه مسارات خاطئة. فعندما يعرف الإنسان المسارات الخاطئة يمكنه أن يبحث في العلامات التأكدية.

إن الغرض من هذا المقطع[21] هو لفت الانتباه إلى المسارات الخاطئة في أثناء التأمل، بحيث يدخل المرء فضاء الطاقة بدلاً من كهف الاستيهام. فالأخير هو عالم العفاريت. وهذا، على سبيل المثال، هو الحال إذا جلس المرء ليتأمل ورأى لهب النور أو الألوان الساطعة، أو إذا رأى المرء البوذيساتفات والآلهة يقتربون، أو أية تهيؤات مشابهة أخرى. أو، إذا لم يكن المرء موفقاً في توحيد الطاقة والتنفس، إذا لم يكن بمقدور ماء الكليتين أن يرتفع، بل يضغط نحو الأسفل، تصبح الطاقة البدئية باردة ويصبح التنفس صعباً: عندئذ تكون طاقات النور اللطيفة للأرض العظيمة قليلة جداً، ويهبط المرء في عالم الاستيهام الفارغ. أو، عندما يكون المرء قد جلس زمناً طويلاً، والأفكار تحتشد وهو يحاول أن يوقفها، لكنه لا يستطيع؛ يمتثل المرء لكونه مدفوعاً بها ويشعر أن ذلك أهون: عندما يحدث ذلك، يجب على المرء تحت أي ظرف من الظروف ألا يتابع التأمل، بل يجب أن ينهض و يتمشى قليلاً إلى أن يعود القلب والتنفس إلى التناغم، عندئذ فقط يمكن للمرء أن يعود إلى التأمل. في التأمل على المرء أن يمتلك ضرباً من الحدس الواعي، بحيث يشعر بالطاقة والتنفس يتحدان في حقل الإكسير؛ يجب أن يشعر أن إطلاقاً حاراً ينتمي إلى النور الحقيقي يبدأ بالتحرك بشكل غامض. عندئذ يكون قد وجد الفضاء الصحيح. عندما يكون هذا الفضاء الصحيح قد تم إيجاده، يتحرر المرء من خطر الدخول إلى عالم الرغبة الوهمية أو عفاريت الظلام.





التأمل، المرحلة 3. انفصال الروح الجسد من أجل وجود مستقل



6 ـ التجارب التثبيتية أثناء نشر النور

قال المعلم لو ـ تسو: ثمة أنواع كثيرة من التجارب التثبيتية. يجب على المرء ألا يكتفي بالمطالب الصغيرة، بل يجب أن يرتقي إلى فكرة أنه يتعين على كل المخلوقات الحية أن تنعتق. على المرء ألا يكون تافهاً وغير مسؤول في الصميم، بل يجب أن يكافح ليجعل أفعاله تبرهن أقواله.

عندما يكون ثمة سكون، عندما تمتلك الروح بشكل مستمر ومتواصل إحساساً بالفرح العظيم كما لو أنها ثملة أو مستحمة لتوها، فإن ذلك علامة على أن مبدأ النور متناغم في الجسد برمته؛ عندئذ تبدأ الزهرة الذهبية بالتبرعم. زد على ذلك، عندما تكون كل الفتحات ساكنة، والقمر الفضي يقف في منتصف السماء، ويمتلك المرء الشعور بأن هذه الأرض العظيمة هي عالم من النور والسطوع، فتلك علامة على أن جسم القلب ينفتح على الصفاء. إنها علامة على أن الزهرة الذهبية تتفتح.

علاوة على ذلك، يشعر الجسم كله بأنه قوي ومتين بحيث أنه لا يخشى العاصفة ولا الصقيع. إن الأشياء التي تغضب الناس الآخرين، عندما ألتقي بهم، لا يمكنها أن تعكر سطوع بذرة الروح. الذهب الأصفر يملأ البيت؛ الدرجات هي من اليشب الأبيض. الأشياء الفضية والنتنة على الأرض التي تدخل في تماس مع نَفَس واحد من الطاقة الحقيقية، ستحيا مرة أخرى فوراً. الدم الأحمر يصبح حليباً. الجسم الهش من اللحم يكون ذهباً خالصاً وماساً. تلك علامة على أن الزهرة الذهبية متبلورة.

يقول كتاب التأمل الناجح *Book of Successful Contemplation* (يينغ ـ كوان ـ تشينغ): "الشمس تغرق في الماء العظيم وتظهر صور الأشجار في صفوف". يعني مشهد الشمس أنه في العماء chaos (في العالم قبل الظاهرات، أي قبل العالم القابل للفهم) يوضع الأساس: أي الحالة اللامستقطبة [المطلقة] (وو ـ تشي wu - chi). الخير الأسمى هو مثل الماء،

نقي وطاهر. إنه الناظم للقطبية العظيمة، الإله الذي يظهر في تريغرام الصدمة، تشن. فالتشن يرمز إليه أيضاً بالخشب، وكذلك تظهر صورة الأشجار في صفوف. فالصف المضاعف سبعاً من الأشجار يعني نور فتحات الجسد السبع (أو فتحات القلب). الشمال الغربي هو اتجاه الخلاق. عندما يبتعد أكثر عن مكان واحد، يوجد السحيق. السحيق هو اتجاه منتصف الليل (الفأر، تزو، الشمال). في الانقلاب الشتوي، يكون الرعد (تشن) chenهو منتصف الأرض المخفية تماماً والمغطاة. فقط عندما يتم بلوغ تريغرام(*) تشن يظهر عمود النور فوق الأرض مرة أخرى. تلك هي الصورة التي تمثلها صفوف الأشجار. والباقي يمكن الاستدلال عليه وفقاً لذلك.

إن الجزء الثاني يعني بناء الأساس على ذلك. العالم العظيم مثل الجليد، عالم جوهرة براقة. إن سطوع النور يتبلور تدريجياً. من هنا تبرز مصطبة عظيمة ومع مرور الزمن يظهر البوذا عليها. عندما يظهر الكائن الذهبي فمن ينبغي أن يكون سوى البوذا؟ لأن البوذا هو الرجل المقدس الذهبي للتنوير العظيم. هذه تجربة تأكدية عظيمة.

الآن ثمة ثلاث تجارب تأكدية يمكن اختبارها. الأولى هي أن الآلهة، عندما يكون المرء قد دخل حالة التأمل، تكون في الوادي[22]. يُسمع البشر يتحدثون كما لو على مسافة سبعمائة خطوة، صوت كل واحد منهم واضح تماماً. لكن الأصوات كلها مثل صدى في واد. يمكن للمرء أن يسمعهم دوماً، لكنه لا يسمع نفسه أبداً. وهذا ما يدعى حضور الآلهة في الوادي.

في بعض الأحيان يمكن تجربة ما يلي: حالما يكون المرء هادئاً، يبدأ نور العينين بالتألق، بحيث يصبح كل شيء أمام المرء ساطعاً تماماً كما لو كان في غيمة. إذا فتح عينيه وبحث عن الجسم، فلن يوجد بعد ذلك.

(*). التريغرام في اللغة الصينية هو حرف أبجدي مكون من ثلاثة أصوات (المترجم).

وهذا ما يدعى "في الحجرة الفارغة يصبح منيرا". في الداخل والخارج، يكون كل شيء مضيئاً بالقدر نفسه. تلك علامة إيجابية جداً.

أو، عندما يجلس المرء في التأمل، يصبح الجسد اللحمي مشعاً تماماً مثل الحرير أو اليشب. يبدو من الصعب البقاء جالساً؛ فالمرء يشعر كما لو أنه يُسحب نحو الأعلى. وهذا ما يدعى "الروح تعود وتلمس السماء". عندئذٍ، يمكن للمرء أن يجرب ذلك بطريقة يعوم فيها المرء فعلاً نحو الأعلى.

والآن، من الممكن أن نمتلك الخبرات الثلاث كلها. لكن لا يمكن التعبير عن كل شيء، فالأشياء المختلفة تظهر لكل شخص وفقاً لمزاجه. إذا خبر المرء هذه الأشياء، فذلك علامة على جدارة جيدة. مع هذه الأشياء يكون الأمر مثله عندما ينقط المرء الماء. يمكن للمرء أن يميز بنفسه ما إذا كان الماء دافئاً أم بارداً. بالطريقة نفسها يجب على المرء أن يقنع نفسه بهذه الخبرات، عندئذ فقط تكون حقيقية.

7 ـ الأسلوب الحي لتدوير النور

قال المعلم لو- تسو، عندما يحصل نجاح تدريجي في إنتاج وتدوير النور، على الإنسان ألا يتخلى عن شغله العادي في أثناء قيامه بذلك.

قال الأقدمون: عندما تأتينا المشاغل يجب أن نقبلها؛ عندما تأتي الأشياء إلينا يجب أن نفهمها من الأساس فصاعداً. إذا عولجت المشاغل بشكل مناسب عن طريق الأفكار الصحيحة، فلا يُبدد النور بفعل الأشياء الخارجية، بل ينتشر وفقاً لقانونه الخاص به. حتى التدوير اللامرئي للنور

يُطلق بهذه الطريقة، فكيف إذا، هو الحال مع التدوير الحقيقي للنور، الذي تكشف بوضوح قبلئذ.

عندما يمتلك المرء في الحياة العادية المقدرة دوماً على الرد على الأشياء بالمنعكسات فقط، بدون أي مزيج من فكر الآخرين أو من فكره، فهذا نشر للنور ناشيء عن الظروف. هذا هو السر الأول.

إذا كان بمقدور المرء، في الصباح الباكر، أن يخلص نفسه من كل التعقيدات ويتأمل من ساعة إلى ساعتين اثنتين، ومن ثم يمكنه أن يوجه نفسه نحو كل النشاطات والأشياء الخارجية بطريقة منعكسة موضوعية، وإذا كان بالإمكان مواصلة ذلك بدون أي انقطاع، عندئذ بعد شهرين أو ثلاثة يأتي كل الكاملين من السماء ويستحسنون مثل هذا السلوك.

"يتعامل المقطع السابق مع الحقول السعيدة التي يتم دخولها عندما يتقدم المرء في العمل. إن الهدف من هذا المقطع هو أن يظهر للتلاميذ كيف يجب عليهم أن يشكلوا عملهم بمهارة أكثر يوماً بعد يوم، بحيث يكون بوسعهم أن يأملوا في إحراز مبكر لإكسير الحياة. كيف يحصل أن المعلم في هذه النقطة بالضبط يتكلم عن حقيقة أن الإنسان ينبغي عليه ألا يتخلى عن طريقته العادية في الحياة؟ يمكن الاستنتاج من ذلك أن المعلم أراد أن يمنع التلميذ من إحراز إكسير الحياة بسرعة. فمن يعرف كيف يجيب على ذلك؟ ليس الكل! المعلم قلق من أن يكون التلميذ قد حقق الكارما[*] الخاصة به، لذلك فهو يتكلم بهذه الطريقة. الآن إذا كان العمل قد أدى قبلئذ إلى الحقول السعيدة، يكون القلب مثل رقعة من الماء. عندما تأتي الأشياء، فإنه [الماء] يعكس الأشياء، عندما تذهب الأشياء، تتحد الروح

(*) الكارما في الهندوسية: هي حصيلة أعمال الإنسان التي يحملها معه من حياة إلى الحياة التالية والتي ينجم عنها قدر جيد أو سيء. ما في البوذية ترتبط الكارما بالعناصر الجسدية والفعلية المؤدية إلى النيرفانا.

والطاقة بشكل عفوي مرة أخرى ولا تسمح بأن تجرفها الأشياء الخارجية.
هذا هو ما يعنيه المعلم عندما يقول إنه يجب التخلي بشكل كامل عن كل تعقيد في فكر الناس الآخرين وفي فكر المرء ذاته. عندما ينجح التلميذ في التركيز بأفكار حقيقية على فضاء الطاقة، لا يتعين عليه أن يبدأ تدوير النور، فالنور يدور بنفسه. لكن عندما يدور النور يُصنع الإكسير بشكل عفوي، ولا يكون أداء المهام الدنيوية في الوقت نفسه عائقاً. يكون مختلفاً في بداية ممارسة التأمل، عندما تكون الروح والطاقة لا زالتا مبعثرتين ومشوشتين. إذا لم يكن بالإمكان إبقاء الأمور الدنيوية على مسافة وإيجاد مكان هادئ يمكن فيه للمرء أن يركز بكل طاقته، وبذلك يتجنب كل الإزعاجات من المشاغل العادية، فإنه عندئذ ربما يكون المرء مجداً في الصباح ومتراخياً بالتأكيد في المساء. فكم من الوقت سيستغرق ذلك حتى يصل المرء إلى الأسرار الحقيقية بهذه الطريقة؟ لذلك يقال، عندما يبدأ المرء بالانكباب على العمل، فينبغي أن يضع الشؤون المنزلية جانباً. أما إذا لم يكن ذلك ممكناً بالكامل، ينبغي إشراك شخص ما في متابعتها، بحيث يمكن للمرء أن يتحمل العناء باهتمام كامل. لكن عندما يكون العمل متقدماً إلى هذا الحد، بحيث يتم خبرة تجريب الإثباتات السرية، فليس مهماً إن وضعت الشؤون العادية للمرء، في الوقت نفسه، بالترتيب، بحيث يمكن له أن ينفذ الكارما الخاصة به. وهذا يعني الأسلوب الحي في نشر النور.

منذ زمن طويل قال الإنسان الحقيقي للنور القطبي الأرجواني (تزو يانغ تشن ـ جن)[23] كلمة: "إذا رعى المرء عمله في أثناء اختلاطه مع العالم وكان لا يزال في تناغم مع النور، عندئذ يكون المستدير مستديراً والمضلع ذا زوايا، عندئذ يعيش بين البشر غامضاً لكنه مع ذلك مرئي، مختلفاً لكنه مع ذلك مشابه، ولا أحد يمكنه أن يناله، عندئذ لا أحد يلاحظ أفعالنا

السرية". إن الأسلوب الحي لنشر النور قد كان له هذا العمل بالضبط: أن تعيش متشابكاً مع العالم ومع ذلك تكون في تناغم مع النور.

8 ـ رقية سحرية لأجل الرحلة البعيدة[24]

قال المعلم لو ـ تسو: لقد ترك يو تشينغ وراءه رقية سحرية لأجل الرحلة البعيدة:

أربع كلمات تبلور الروح في فضاء الطاقة.
في الشهر السادس يشاهد الثلج الأبيض فجأة وهو يطير.
في الشهر الثالث راقب قرص الشمس وهو يطلق أشعة مبهرة.
في الماء تهب ريح اللطيف.
وهو يجول في السماء، يلتهم الواحد طاقة المتلقي الروحية.
ولا يزال السر الأعمق للسر:
الأرض التي ليست في أي مكان، تلك هي البيت الحقيقي..

هذه الأبيات مليئة بالغموض. المعنى هو: أهم الأشياء في الطاو العظيم هي الكلمات: الفعل من خلال اللافعل. اللافعل يمنع إنساناً من أن يقع في شرك في الشكل والصورة (المادية).

الفعل في اللافعل يمنع الإنسان من الغرق في الفراغ المخدر والعدم الميت. يعتمد التأثير اعتماداً كاملاً على الواحد المركزي؛ إن إطلاق التأثير يكون في العينين. فالعينان هما مثل قطب الدب الأكبر الذي يدير مجمل الخليقة؛ إنهما تجعلان قطبي النور والظلام ينتشران. يعتمد الإكسير منذ البداية إلى النهاية على شيء واحد: المعدن في وسط الماء، أي الرصاص في منطقة الماء.

حتى الآن نكون قد تكلمنا عن تدوير النور، مشيرين بذلك إلى الإطلاق البدئي الذي يعمل من الخارج على ما يقع في الداخل. وهذه هي مساعدة المرء في الوصول إلى المعلم. من أجل التلاميذ في مراحل البداية، فهم يمرون من خلال المرحلتين الانتقاليتين الدنيويتين لكي ينالوا المرحلة الانتقالية العليا. فبعد أن يكون تسلسل الأحداث واضحاً وطبيعة الإطلاق معروفة، لا تعود السماء تحتبس الطريق، بل تكشف الحقيقة القصوى. أيها المريدون، أبقوه سراً وضاعفوا جهدكم!

إن تدوير النور هو المصطلح الشامل. كلما تقدم العمل زاد تفتح الزهرة الذهبية. لكن لا يزال ثمة نوع من الانتشار أكثر عجباً. حتى الآن اشتغلنا من الخارج على ما هو في الداخل؛ والآن نمكث في المركز ونحكم على ما هو خارجي. حتى الآن كانت تلك خدمة بمساعدة المعلم؛ أما الآن فهو نثر لمطالب المعلم. العلاقة برمتها معكوسة الآن. إذا أراد المرء أن يخترق المناطق الأكثر مكراً بهذه الطريقة، فيجب عليه أولاً أن يرى الجسد والقلب محكومين كلياً، أن المرء حر تماماً وفي سلام، و متحرر من كل التعقيدات، لا تشوشه أوهى إثارة، ومع القلب السماوي في المنتصف تماماً. ثم دع المرء يخفض جفني العينين كما لو أنه تلقى أمراً مقدساً، استدعاء ليصبح كاهناً، فمن سيجرؤ على العصيان؟ عندئذ ينير المرء بيت السحيق (الماء، k'an) بعينيه حيثما ذهبت الزهرة الذهبية، يأتي النور الحقيقي للقطبية إلى لقائها. يكون المتدلي (السطوع، لي Li) ساطعاً من الخارج ومظلماً من الداخل؛ هذا هو جسد الخلاق. يدخل [الخط] الظلم ويصبح سيداً. النتيجة هي أن القلب (الوعي) ينشأ معتمداً على الأشياء، ويوجه نحو الخارج، ويُرمى على الجدول. عندما يشع النور الدوار نحو ما هو في الداخل، فإنه لا ينشأ اعتماداً على الأشياء، ويُثبت طاقة الظلام وتشع الزهرة الذهبية بشكل مركز. هذا هو إذاً النور المجمّع للقطبية. الأشياء

المتصلة تجذب بعضها بعضاً. هكذا فإن خط النور المستقطب للسحيق يضغط نحو الأعلى. فهو ليس النور في الهاوية فقط، بل هو النور المبدع الذي يلاقي النور المبدع. حالما تلاقي هاتان المادتان إحداهما الأخرى، تتحدان بشكل لا يمكن فصله، وتنشأ حياة لا تتوقف، تأتي وتذهب، تصعد وتهبط من تلقاء ذاتها، في بيت الطاقة البدئية. يكون المرء مدركاً للسطوع واللاتناهي. فالجسد بكامله يشعر بالخفة ويود أن يطير. هذه حالة يقال عنها: "السحب تملأ الجبال الألف. تغدو وتروح تدريجياً برقة تامة، إنها تصعد وتهبط بشكل غير محسوس.

النبض يسكن والتنفس يتوقف. هذه لحظة الاتحاد الخلاق الحقيقي، الحالة التي يقال عنها: القمر يجمّع المياه العشرة آلاف. في وسط هذه الظلمة، القلب السماوي يبدأ حركة بشكل مفاجئ. هذه هي عودة المنير، الوقت الذي يأتي فيه الطفل إلى الحياة.

مع ذلك يجب أن تُشرح تفاصيل ذلك بعناية. عندما ينظر شخص إلى شيء ما، ويصغي إلى شيء ما، تتحرك العينان والأذنان، وتتتابع الأشياء إلى أن تكون قد مرت. هذه الحركات هي كلها توافه، وعندما يتابعها الحاكم السماوي في مهامها فهذا يعني: العيش مع العفاريت.

الآن إذا عاش شخص مع الشر، في أثناء كل حركة وكل لحظة راحة، وليس مع العفاريت، عندئذ يكون الحاكم السماوي هو الإنسان الحقيقي. عندما يتحرك، ونحن نتحرك معه، تكون الحركة هي جذر السماء. عندما يكون ساكناً، ونحن ساكنون تماماً معه، فإن هذا السكون هو كهف القمر. عندما يتناوب بلا توقف على الحركة والراحة، تابعْ معه بلا توقف في الحركة والسكون. عندما يصعد ويهبط مع الشهيق والزفير، اصعد واهبط معه. هذا ما يدعى الذهاب والإياب بين جذر السماء وكهف القمر.

عندما يكون القلب السماوي لا يزال ساكنا، تكون الحركة قبل الوقت الصحيح نقصاً في الليونة. عندما يكون القلب السماوي قد تحرك للتو، فإن الحركة التي تلي، لكي تتطابق معها، هي نقص في الصرامة. حالما يتحرك القلب السماوي يجب على المرء فوراً أن يصعد نحو الأعلى بإخلاص إلى بيت الخلاق. هكذا يرى نور الروح الذروة؛ هذا هو القائد. هذه الحركة تكون متوافقة مع الزمن. فالقلب السماوي يصعد إلى قمة الخلاق، حيث يتوسع في حرية تامة. عندئذ، وبشكل مفاجيء، يتطلب ذلك الصمتَ المطبق، ويجب على المرء أن يقوده بسرعة وبإخلاص إلى القلعة الصفراء؛ بذلك تشاهد العينان مكان إقامة الأصفر المركزي للروح.

عندما تأتي الرغبة في الصمت، لا تظهر فكرة واحدة؛ فمن ينظر نحو الداخل ينسَ فجأة أنه ينظر. وبينما ينبغي إطلاق الجسد والقلب بشكل كامل. فإن كل التعقيدات تكون قد اختفت بلا أثر. عندئذ لا أعود في أي مكان يكون بيت روحي وبوتقتي. فإذا أراد إنسان أن يتأكد من جسده، فلا يمكنه الحصول على ذلك. هذا الشرط نفاذ السماء إلى الأرض، الوقت الذي تعود فيه كل الأعاجيب إلى جذورها. لذلك يكون الوقت الذي تدخل فيه الروح المبلورة إلى فضاء الطاقة.

الواحد هو تدوير النور. عندما يبدأ المرء، يكون في البداية مشتتاً ويريد المرء أن يجمعه؛ الحواس الست تكون غير فاعلة. هذه هي رعاية وتغذية أصل المرء، تعبئة الزيت عندما يذهب المرء ليستقبل الحياة. عندما يكون المرء بعيداً بما يكفي لجمعها، يشعر بالخفة والحرية وعدم الحاجة إلى تحمل أقل عناء. هذه هي تهدئة الروح في فضاء الأسلاف، الاستحواذ على السماء السابقة.

عندما يكون المرء متقدماً إلى هذا الحد، بحيث يكون قد اختفى كل ظل وكل صدى، بحيث يكون المرء هادئاً وراسخاً بشكل كلي، فإنه يكون قد

بلغ ملاذاً داخل كهف الطاقة، حيث يعود كل ما هو غريب إلى جذوره. فالمرء لا يبدل المكان، بل إن المكان يقسم ذاته. هذا فضاء مدمج يكون فيه ألف أو عشرة آلاف مكان مكاناً واحداً. المرء لا يبدل الزمن، بل الزمن يقسم ذاته. هذا زمن غير قابل للقياس عندما تكون كل الدهور مثل لحظة.

طالما أن القلب لم يحقق السكينة المطلقة، فلا يمكنه أن يحرك ذاته. فالمرء يحرك الحركة؛ هذه ليست حركة في حد ذاتها. لذلك يقال: إذا تحرك المرء، عندما يكون مدفوعاً بأشياء خارجية، فهذا هو دافع الوجود.

إذا تحرك المرء عندما لا يكون مدفوعاً بأشياء خارجية، فهذه هي حركة السماء. إن الوجود الذي يوضع مقابل السماء يمكن أن يقع ويأتي تحت سيطرة الدوافع. فالدوافع تبنى على حقيقة أن ثمة أشياء خارجية. إنها أفكار تستمر خارج موقف المرء الخاص. ثم تقود الحركة إلى الحركة. لكن عندما لا تظهر أية فكرة، تأتي الأفكار الصحيحة. تلك هي الفكرة الحقيقية. عندما تكون الأشياء ساكنة ويكون المرء صلباً تماماً، ويتحرك إطلاق السماء فجأة، أليست هذه حركة بلا هدف؟ للفعل من خلال اللافعل هذا المعنى بالضبط.

بالعودة إلى القصيدة في البداية، يشير البيتان الأوليان بشكل كامل إلى نشاط الزهرة الذهبية. أما البيتان التاليان فهما مرتبطان بالتنافذ المتبادل للشمس والقمر. الشهر السادس هو المتدلي (لي، النار). الثلج الأبيض الذي يتطاير في الظلمة القطبية الحقيقية في منتصف رمز النار، يكون على وشك أن يتحول إلى المتلقي.

التهجد الثالث هو السحيق (كآن، الماء).

إن قرص الشمس هو الخط القطبي الواحد في رمز الماء، الذي يكون على وشك أن يتحول إلى الخلاق. هذا يتضمن الطريق إلى اتخاذ رمز السحيق والطريق، إلى إعكاس رمز المتدلي (النار، لي).

السطران التاليان لهما علاقة بنشاط قطب الدب الأكبر، وصعود وهبوط إطلاق القطبية برمته. فالماء هو رمز للسحيق؛ العين هي رياح اللطيف (sun). نور العينين يضيء بيت السحيق، ويسيطر هناك على بذرة النور العظيم. "في السماء"، هذا يعني بيت المبدع (ch'ien). "متحولاً في السماء يأكل المرء طاقة روح المتلقي". يظهر هذا كيف تخترق الروح الطاقة، كيف تخترق السماء الأرض؛ هذا يحدث بحيث أن النار يمكن تغذيتها.

أخيراً، يشير السطران الأخيران إلى السر الأعمق، الذي لا يمكن الاستغناء عنه من البداية إلى النهاية. هذا هو غسيل القلب وتطهير الأفكار؛ هذا هو الحمّام. إن العلم المقدس يتخذ كبداية: معرفة أين يقف، وكنهاية: التوقف عند الخير الأسمى. فبدايته هي خارج القطبية وهي تفرغ مرة أخرى خارج القطبية الأساسية للدين.

يتكلم البوذا عن العابر، خالق الوعي، بوصفه الحقيقة الأساسية للدين. ويكمن عمل إكمال الحياة والطبيعة البشرية برمته في طاويتنا في عبارة "تحقيق الفراغ". تتفق الديانات الثلاث كلها في فرضية واحدة، إيجاد الإكسير الروحي لأجل العبور من الموت إلى الحياة. ممَّ يتألف هذا الإكسير الروحي؟ إنه يعني الإقامة إلى الأبد في التجرد من الغرض. لذلك فإن السر الأعمق للحمام



التأمل، المرحلة 4. المركز في وسط الشروط

الذي يتعين إيجاده في تعاليمنا محصور بجعل القلب فارغاً. بذلك تسوى المادة. إن ما كشفته هنا في كلمة هو ثمرة عشر سنوات من الجهد.

إذا لم تكن على بينة حتى الآن إلى أي حد يمكن أن تكون المقاطع الثلاثة كلها موجودة في مقطعنا، فسأوضحه لك من خلال التأمل البوذي المضاعف ثلاثاً للفراغ والتوهم والمركز.

يأتي الفراغ بوصفه أول التأملات الثلاثة. كل الأشياء ينظر إليها بوصفها فارغة. ثم يأتي التوهم. بالرغم من أنه من المعروف أن الأشياء فارغة، فهي لا تُفنى، لكن المرء ينكب على شؤونه في وسط الفراغ. لكن على الرغم من أن المرء لا يفني الأشياء، ولا يلتفت إليها؛ فإن هذا تأمل للمركز. في أثناء ممارسة تأمل الفراغ، يعرف المرء أيضاً أنه لا يمكنه أن يفني الأشياء العشرة آلاف، ويظل لا يلاحظها. بهذه الطريقة تسقط التأملات الثلاثة معاً. لكن رغم كل شيء، فإن القوة هي في تصور الفراغ. لذلك، عندما يمارس المرء تأمل الفراغ، يكون الفراغ فارغاً بالتأكيد، لكن التوهم فارغ أيضاً، والمركز فارغ. إنه يحتاج إلى قوة عظيمة لممارسة تأمل التوهم؛ عندئذ يكون التوهم توهماً بالفعل، لكن الفراغ هو توهم أيضاً، والمركز هو توهم أيضاً. إن كون المرء على طريق المركز، يخلق أيضاً خيالات الفراغ؛ وهي لا تدعى فارغة، لكنها تدعى مركزية. إن المرء يمارس أيضاً تأمل التوهم، لكنه لا يدعوه توهماً، المرء يدعوه مركزياً. أما فيما يتعلق بالمركز فثمة حاجة لقول المزيد.

هذا المقطع يذكر أولاً رقية يوتشينغ السحرية لأجل الرحلة البعيدة. تنص هذه الرقية السحرية على أن الأعجوبة السرية للطريق هي أن ينشأ شيء ما من اللاشيء. بذلك تتحد الروح والطاقة في شكل مبلور، يظهر هناك، في سياق الزمن، في وسط فراغ اللاشيء، [وهي] نقطة النار الحقيقية. في أثناء هذا الوقت، كلما أصبحت الروح أكثر سكوناً، كانت

النار أكثر سطوعاً. إن سطوع النار يقارن بحرارة الشمس في الشهر السادس. لأن النار المتقدة تسبب تبخر ماء السحيق، يُسخن التيار، وعندما يكون قد عبر نقطة الغليان يصعد نحو الأعلى مثل الثلج الطائر. يقصد من ذلك أن المرء يمكنه أن يرى الثلج يطير في الشهر السادس. لكن لأن الماء يتبخر بفعل النار، توقظ الطاقة الحقيقية؛ ومع ذلك عندما يكون الظلام في استراحة، يبدأ النور بالتحرك؛ إنها مثل حالة منتصف الليل. لذلك يدعو الحكماء هذا الوقت وقت منتصف ليلة العيش. في هذا الوقت يعمل المرء بالطاقة بهدف جعلها تتدفق رجوعاً وترتفع وتتدفق إلى الأسفل، لتسقط مثل الغزل الصاعد نحو الأعلى لعجلة الشمس. لذلك يقال: "في التهجد الثالث يرسل قرص الشمس أشعة متوهجة تعمي الأبصار". إن طريقة الدوران تستفيد من التنفس للنفخ على نار بوابات الحياة؛ بهذه الطريقة ينجح المرء في جلب الطاقة الحقيقية إلى مكانها الأصلي. لذلك يقال إن الريح تهب في الماء. من الطاقة الوحيدة للسماء السابقة، ينشأ النَفَس الخارج والداخل للسماء اللاحقة وطاقتها الملتهبة.

يؤدي الطريق من العجز نحو الأعلى في طريق تدفق رجعي إلى قمة الخلاق، ويستمر مروراً ببيت الخلاق؛ ثم يهبط من خلال الطابقين في طريق تدفق رجعي إلى الضفيرة الشمسية، ويسخنها. إن المرء وهو يتجول في السماء يستهلك طاقة الروح للمتلقي. "لأن الطاقة الحقيقية تعود إلى المكان الفارغ، وعندئذٍ تصبح، الطاقة والشكل غنيين ومليئين، والجسد والقلب يصبحان سعيدين وبهيجين. وإذا كان بالإمكان إنجاز ذلك بممارسة تدوير العقيدة، فكيف بغير ذلك سيكون المرء قادراً على دخول هذه الرحلة الطويلة؟ إن ما يرقى إليه ذلك هو التالي: الروح المبلورة تعيد الإشعاع إلى نار الروح، وتؤجج، بواسطة الهدوء الأعظم، النار في وسط الماء". التي تكون في منتصف الكهف الفارغ. لذلك يقال: "ولا يزال السر الأعمق للسر: الأرض التي ليست في أي مكان، تلك هي البيت الحقيقي".

يكون التلميذ الآن قد نفذ في عمله إلى أرض غريبة؛ لكن إذا لم يكن طريقة الإذابة، فيخشى من أن إكسير الحياة سينتج بصعوبة. لذلك فقد كشف المعلم السر محمياً بصرامة بالرجال المقدسين السابقين؛ عندما يبقي التلميذ الروح المبلورة ثابتة داخل كهف الطاقة ويدع، في الوقت نفسه، السكون الأعظم مسيطراً، عندئذ ينشأ خارج الظلام الدامس شيء ما من العدم، أي، تظهر الزهرة الذهبية للعظيم.

في هذا الوقت يُمايز النور الواعي عن نور الطبيعة البشرية. لذلك يقال: "إن التحرك بدافع من الأشياء الخارجية يؤدي إلى الذهاب مباشرة نحو الخارج وخلق إنسان. ذاك هو النور الواعي". في الوقت نفسه إذا جمعت الطاقة الحقيقية بشكل كاف، فإن التلميذ لا يدعها تتدفق مباشرة نحو الخارج، بل يجعلها تتدفق نحو الوراء، ذاك هو نور الحياة؛ يجب أن تطبق طريقة تدوير عجلة الماء [الناعورة]. فإذا استمر المرء في التدوير، تعود الطاقة الحقيقية إلى الجذور، قطرة قطرة. عندئذ تتوقف عجلة الماء، ويكون الجسد نظيفاً، وتكون الطاقة طازجة. إن لفة منفردة واحدة تعني دورة سماوية واحدة، وهي ما دعاها المعلم تشيو دورة سماوية صغيرة. إذا لم ينتظر المرء في استخدام الطاقة إلى أن تكون قد جمعت بشكل كاف، فإنها تكون عندئذ غضة أكثر مما ينبغي وضعيفة ولا يتشكل الإكسير. إذا كانت الطاقة موجودة وغير مستخدمة فإنها تصبح قديمة وقاسية أكثر مما ينبغي، وعندئذ، أيضاً سيتم بالكاد إنتاج إكسير الحياة - عندما لا تكون قديمة أكثر مما ينبغي ولا غضة أكثر مما ينبغي، يكون هذا هو الوقت المناسب لاستخدامها بشكل هادف. هذا ما يعنيه البوذا عندما يقول: "الظاهرة تتدفق إلى الفراغ". هذا هو تصعيد البذرة إلى طاقة. إذا لم يفهم التلميذ هذا المبدأ، وترك الطاقة تتدفق إلى الخارج مباشرة، فسوف تتحول الطاقة إلى بذرة. هذا هو المقصود عندما يقال: "الفراغ يتدفق في النهاية إلى

الظاهرة". لكن كل رجل يتحد جسدياً مع امرأة يشعر باللذة أولاً ثم بالمرارة؛ عندما تكون البذرة قد تدفقت إلى الخارج، يكون الجسد متعباً والروح منهكة. ويكون الأمر مختلفاً تماماً حين يدع الحكيم الروح والطاقة تتحدان. وهذا ما يجلب الطهارة أولاً ومن ثم الطراوة؛ وعندما تُحول البذرة، يكون الجسد معافى وطليقاً. ثمة تراث مفاده أن المعلم العجوز بنغ P'eng بلغ من العمر ثمانمائة عام لأنه استفاد من خدمة الخادمات ليغذي حياته، لكن هذا فهم خاطئ. في الواقع، هو استخدم طريقة تصعيد الروح والطاقة. في إكسير الحياة تستخدم الرموز لأجل القسم الأعظم، وفيها تقارن نار المتدلي (Li) في كثير من الأحيان بالعروس، وماء الهاوية بالعريس (الابن الخالد puer aetermus). من هذا نشأ سوء الفهم حول كون المعلم P'en قد استعاد فحولته من خلال النساء. هذه أخطاء فرضت نفسها فيما بعد.

لكن الحكماء يمكنهم استعمال وسيلة إسقاط السحيق (K'an) والمتدلي (Li) فقط عندما تكون لديهم نية صادقة في العمل، وإلا فإنه لا يمكن إنتاج خليط نقي. فالهدف الحقيقي هو الخاضع إلى الأرض؛ يكون لون الأرض أصفر، لذلك يرمز لها في الكتب عن إكسير الحياة بالجرثومة الصفراء. عندما يتحد السحيق والمتدلي (Li)، تظهر الزهرة الذهبية؛ ويكون اللون الذهبي أبيض، ولذلك يستخدم الثلج الأبيض كرمز. لكن الناس الدنيويين الذين لا يفهمون الكلمات السرية لكتاب إكسير الحياة قد أساؤوا فهم الأصفر والأبيض هناك في أنهم قد اتخذوهما كوسيلة لصنع الذهب من الحجارة. أليس ذلك حماقة؟

قال حكيم قديم: "سابقاً"، كانت كل مدرسة تعرف هذه الجوهرة، وحدهم الحمقى لم يعرفوها بشكل كامل". إذا تأملنا في هذا نرى أن القدماء أحرزوا العمر الطويل في الواقع بمساعدة طاقة البذرة الموجودة في

أجسادهم، ولم يطيلوا سنواتهم بابتلاع هذا الصنف أو ذاك من الإكسير. لكن الأشخاص الدنيويين فقدوا الجذور وتعلقوا برؤوس الأشجار. يقول **كتاب إكسير الحياة** أيضاً: "عندما يستفيد الإنسان الصحيح (الساحر الأبيض) من الوسائل الخاطئة، فإن الوسائل الخاطئة تعمل بالطريقة الصحيحة". يُقصد بذلك تحول البذرة إلى طاقة. "لكن إذا استعمل الإنسان الخاطئ الوسائل الصحيحة، فإن الوسائل الصحيحة تعمل بالطريقة الخاطئة". يقصد بذلك الاتحاد الجسدي للرجل والمرأة الذي ينشأ عنه الأبناء والبنات، الأحمق يضيع أثمن جوهرة من جسده في الشهوة المنفلتة، ولا يعرف كيف يصون طاقة بذرته. عندما تنتهي، يفنى الجسد. الرجال المقدسون والحكماء ليس لهم طريق آخر لرعاية حيواتهم سوى قتل الشهوات وحماية البذرة. تتحول البذرة المتراكمة إلى طاقة. والطاقة، عندما يوجد ما يكفي منها، تصنع الجسد القوي بشكل خلاق. إن الاختلاف الذي يظهره الناس العاديون يعتمد فقط على كيف يطبقون طريق التدفق نحو الأسفل أو طريق التدفق نحو الوراء.

إن المعنى الكامل لهذا المقطع موجه مباشرة نحو إيضاح طريقة ملء الزيت عندما يواجه التلميذ الحياة. هنا تكون العينان هما الشيء الرئيسي. فالعينان هما قبضة النجم القطبي. كما تدور السماء حول النجم القطبي كنقطة مركز، كذلك بين البشر يجب أن تكون النية الطيبة هي السيدة. لذلك يعتمد إكمال إكسير الحياة اعتماداً كلياً على تناغم الهدف الصحيح. عندئذ، إذا قيل إن الأساس يمكن وضعه في مئة يوم، فيجب قبل كل شيء أن تؤخذ في الحسبان درجة الإتقان في العمل ودرجة القوة في البنية الجسدية. فكل من يكون متحمساً في العمل، ويمتلك بنية قوية، ينجح بسرعة أكبر في تدوير عجلة الماء للنهر الخلفي. عندما يكون شخص قد وجد طريقة جعل الأفكار والطاقة تتناغم مع بعضها بعضاً، يمكنه أن يكمل

الإكسير في خلال مئة يوم. لكن من يكون ضعيفاً وخاملاً لن ينتجه حتى بعد مئة يوم. وعندما يُكمل الإكسير، تكون الروح والطاقة نقيتين وصافيتين؛ يكون القلب خالياً، والطبيعة البشرية (هسينغ) جلية. ونور الوعي يتحول إلى نور الطبيعة البشرية. إذا استمر المرء في القبض بإحكام على نور الطبيعة البشرية. فإن السحيق والمتدلي (النار، Li) يتفاعلان بعفوية. عندما يمتزج السحيق والمتدلي تُحمل الثمرة المقدسة. إن نضوج الثمرة المقدسة هو نتيجة لدورة سماوية كبيرة. يتوقف المزيد من الإيضاح على طريقة الدورة السماوية.

هذا الكتاب يعنى بوسائل رعاية الحياة ويبين أولاً كيفية البدء بالنظر إلى جسر الأنف؛ هنا طريقة الإعكاس مبينة؛ إن طرق الإمساك والإفلات هي في كتاب آخر هو Hsü Ming Fang (**طرق إطالة الحياة**)[25].

ملخص[26] المفاهيم الصينية التي تقوم عليها فكرة الزهرة الذهبية، أو الروح ـ الجسد الخالد

يؤدي الطاو، العظيم اللامجزأ، إلى نشوء مبدأي واقع متعاكسين: الظلام والنور، يين ويانغ. لا يمكن التفكير بهما أولاً إلا كقوتين من قوى الطبيعة المنفصلة عن الإنسان. فيما بعد، تشتق منهما القطبيات الجنسية وغيرها أيضاً. فمن يين يأتي كون K'un، المبدأ الأنثوي المتلقي؛ ومن يانغ يأتي تشيين Ch'ien المبدأ الذكري الخلاق؛ من يين تأتي مينغ، الحياة؛ من يانغ، تأتي هسينغ، أو الطبيعة البشرية.

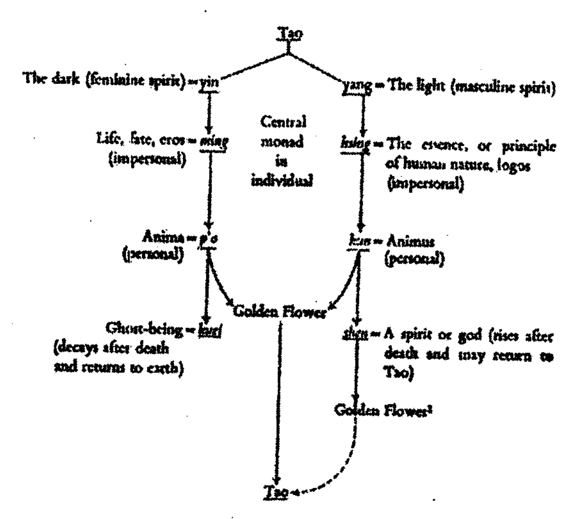
كل فرد يحتوي على موناد مركزي ينقسم، في لحظة الحمل، إلى الحياة والطبيعة البشرية، مينغ وهسينغ. هذان مبدأان ما فوق فرديين، ولذلك يمكن ربطهما بالإيروس واللوغوس.

في الوجود الجسدي الشخصي للفرد يمثلان بقطبيتين أخريين، روح البو P'o (أو أنيما) وروح الهون (أنيموس). طوال حياة الفرد كلها يكونان في تضاد، كل واحد منهما يكافح من أجل التسيد. عند الموت ينفصلان ويمضيان في طريقين مختلفين. فالأنيما تهبط إلى الأرض بوصفها كوي Kuei، كائن ـ شبح. ويصعد الأنيموس ويصبح شن روحاً أو إلهاً. إن شن يمكن مع مرور الزمن أن يعود إلى الطاو.

إذا تدفقت طاقة الحياة نحو الأسفل، أي، بدون عائق أو إعاقة إلى العالم الخارجي، تكون الأنيما منتصرة على الأنيموس؛ ولا ينشأ أي روح ـ جسد، أو زهرة ذهبية، وعند الموت تضيع الأنا ego. إذا وُجهت طاقة الحياة من خلال سيرورة "التدفق نحو الوراء"، أي، كانت مصانة، وجعلت "تصعد" بدلاً من السماح لها بالتبدد، يكون الأنيموس هو المنتصر، وتستمر الأنا في البقاء بعد الموت. عندئذ يصبح شن روحاً، أو إلهاً. فالإنسان الذي يلتزم طريق الصون طوال الحياة قد يصل إلى مرحلة الزهرة الذهبية، التي تحرر الأنا عندئذ من صراع الأضداد، وتصبح مرة أخرى جزءاً من الطاو، العظيم، اللامجزأ.



Diagram of the Chinese concepts concerned with the development of the Golden Flower, or immortal spirit-body



مخطط المفاهيم الصينية المتعلقة بنشوء الزهرة الذهبية[27]،

أو الروح ـ الجسد الخالد



هوامش

(1). هسينغ، أو يترجم بعبارة "الطبيعة البشرية" (المترجم الإنكليزي).

(2). في النص الألماني يقال إن كتاب التغيرات هو الأصل لهذه الجملة. إنها لا ترد هنا، ولذلك فقد حذفت العبارة بإذن من هلموت فيلهلم.

(3). هذا التعليق ربما يعود إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر الهوامش التي رتبها فيلهلم وضعت مع النص. في الطبعة السابقة، بالاتفاق مع الأمان، جاءت الهوامش بعد النص.(المترجم الإنكليزي)

(4). لنغ ين هي سورامغاما سوترا البوذية.

(5). انظر مقالة تشونغ ـ يوانغ تشانغ، تحقيق الذات وسيرورة السلام الداخلية في: Eranos Jahrbuch, Zurich, 1956

(6). السماء، الأرض، الجحيم.

(7). يقصد بالنور هنا كمبدأ عالمي، القطب الموجب، وليس النور الذي يشع.

(8). المراحل الأربع لإعادة الولادة موصوفة هنا. إعادة الولادة (من الماء والروح") هي تطور الجسم الهوائي التنفسي ضمن الجسم الفاني للحم. في هذا تظهر العلاقة بفكرة يوحنا وبولس.

(9). الروح الحالية الخماسية الأجزاء التي يحول إليها عند الولادة الإنسان الذي كافح باتجاه الخير، لكن على نحو أعمى، هي محدودة بمنطقة الحواس الخمس، ولذلك تظل حبيسة على هذه الأرض. تؤثر إعادة الولادة على انتقاله إلى العالم الروحي السادس.

(10). تلميذ لاو- تسي(وفقا للأسطورة.- هيلموت فيلهلم).

(11). القطبان النفسيان هنا متباينان. إذ يتم تمثيلهما كلوغوس (القلب، الوعي) يوجد تحت الرمز الثلاثي للنار (Li)، والإيروس (الكليتان، الجنسانية) تحت تريغرام الماء [كآن]. فالإنسان الطبيعي يدع هاتين الطاقتين تعملان نحو الخارج (الفكر وسيرورة الإنجاب)؛ وهكذا فإنهما "يتدفقان خارجا" ويستهلكان. يقوم الحكيم بتحويلهما إلى الداخل ويجمعهما معاً، وبذلك يخصبان أحدهما الآخر وينتجان حياة للروح حيوية نفسياً، وبالتالي قوية.

(12). الحرف الأبجدي (هو) الذي يترجم هنا بمعنى التفرد يكتب مع الرمز الذي يرمز إلى "الطاقة" بداخل "سياج". لهذا فهو يعني الشكل من الـentelechy المطبوع في الموناد. إنه انفصال وحدة من الطاقة وتغليفها بطاقات البذرة التي تؤدي إلى التجسد. يتم تصور السيرورة على أنها مرتبطة بصوت. من الناحية التجريبية يتزامن ذلك مع الحمل. منذ ذلك الوقت فصاعداً يحدث تطور دائم التقدم، "التفاف"، إلى أن تقوم الولادة بجلب الفرد إلى النور. منذ ذاك الوقت فصاعداً يستمر ذلك بشكل تلقائي إلى أن تستهلك الطاقة ويحدث الموت.

(13). السوراغاما سوترا، سوترا بوذية.

(14). يين فو تشينغ، Yin fu- chingعمل كلاسيكي طاوي. (من اجل ترجمة إنكليزية انظر:

Fredrick Henry Balfour, Taoist Texts, London and Shanghai, n. d. pp. 49 – 62. H. W.)

(15). Huang-ti nei-ching zu-wen عمل طاوي من عصر لاحق يدعي بأنه ينحدر من الحاكم الأسطوري هوانغ تي.

(16). طريقة التأمل المثبت (chih- kuan) هي طريقة تأمل مدرسة تيين ـ تاي البوذية. إنها تتناوب بين تهدئة العواطف بممارسات التنفس وبالتأمل. فيما يلي يتم اقتباس بعض طرائقها. إن "الشروط" هي الظروف، "البيئة" التي تطلق، بالاقتران مع "الأسباب" (Yin) انتشار الوهم. إن القطب الثابت في تحليق الظاهرات" هو بشكل حرفي تماماً في "مركز الظروف".

(17). الحرف الأبجدي الذي يرمز إلى " النفَس" يتكون من الحرف تزو tzu "من" "الذات" والحرف هسين hsin "القلب"، "الوعي". لذلك يمكن تفسيره بأنه "يأتي من القلب" "له أصله في القلب"، لكن في الوقت نفسه يصف الشرط الذي يكون فيه "القلب متوحدا مع الذات"، أي السكون.

(18). كتاب سري لطوائف حبة الحياة الذهبية. (التراث الأسطوري لهذا الكتاب، تان شو Tan- shu يعود إلى زمن بعيد، انظر:

Richard Wilhelm, Das Buch de Sitte, Jena, 1930, p. 302 (Das Scharlachbuch).

المكرس الطاوي الحالي لم يعد يتضمن كتابا بهذا العنوان. هيلموت فيلهلم).

(19). في اليابانية، زن.

(20). وفقا للفولكلور الصيني، يمكن للثعالب أيضاً أن ترعى إكسير الحياة، وبذلك فهي تحرز القدرة على تحويل أنفسها إلى كائنات بشرية. إنه توازي عفاريت الطبيعة في الميثولوجيا الغربية.

(21). تظهر هذه الفقرة بشكل واضح تأثيراً بوذياً. فالإغراء المذكور هنا يقوم على كون المرء مدفوعاً بمثل هذه الاستيهامات لكي يعتبرها واقعية، ويخضع لها. (قارن المشهد الذي يقوم فيه مفيستوفيلس بتنويم فاوست بواسطة عفاريته).

(22). قارن لاو ـ تسي، تاو تي تشينغ، الفقرة 6 (قام أرثر ويلي بترجمة هذا العمل تحت عنوان: The Way and Its Power, London and New York. ثمة طبعة ذات غلاف ورقي سلسلة إفرغرين، نيويورك، ملاحظة من المترجم الإنكليزي).

(23). يوجد بضعة حكماء طاويين يحملون هذا الاسم. الحكيم المشار إليه هنا ربما يكون تشانغ بو ـ تان، الذي عاش في القرن الحادي عشر بعد الميلاد. حول هذا الحكيم وكتاباته قارن تني ل. ديفيز و تشاو يون ـ تسونغ في:

Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences, 73, 5(1939), pp. 97 – 117, and 73, 13 (1940), pp. 371 – 399. (H.W.)

(24). الإحالة هنا إلى الفصل الأول من كتاب تشوانغ j تزو

Chuang – tzu. (H.W.).

(25). اسم آخر لهوي مينغ تشينغ (هـ. ف.)

(26). هذا الملخص والمخطط الذي يلي تم ترتيبه لأجل الطبعة الإنكليزية من قبل المترجم (س. ف. ب.)

(27). لما كان ثمة أدلة وافرة في النص تظهر أن المؤثرات البوذية كانت تمثل الزهرة الذهبية على أنها تأتي في النهاية من الجانب الروحي فقط، فإن تلك الحقيقة قد أشير إليها بالخط المنقط الذي يمتد نزولاً من شن. ومع ذلك، في التعاليم الصينية النقية، فإن خلق الزهرة الذهبية يعتمد على تلاعب بالقدر نفسه بكل من قوى اليانغ واليين (س. ف. ب.).



كتاب الوعي والحياة

(هوي مينغ تشينغ)



1 ـ توقف الدفق

إذا كنت ستكمل الجسد الماسي بلا فيض
فأدفئ بكدٍ جذور الوعي والحياة
أشعل النور في البلد المبارك القريب أبداً.
وهناك دوماً دع ذاتك الحقيقية تسكن خفية.

يظهر الرسم التوضيحي الموجود هنا في النص الصيني جسد إنسان. في منتصف النصف السفلي من الجسد رُسمت خلية جرثومية فُصل بها مدخل الحياة عن مدخل الوعي. فيما بينهما، توجد القناة المؤدية إلى العالم الخارجي التي تتدفق من خلالها السوائل الحيوية إلى الخارج[1].

السر الأبرع للطاو هو الطبيعة البشرية والحياة (hsing ming). لا يوجد طريقة لرعاية الطبيعة البشرية والحياة أفضل من إعادتهما إلى الوحدة. نشر قديسو الأزمنة الغابرة، والحكماء العظام أفكارهم حول توحيد الطبيعة البشرية والحياة بواسطة صور من العالم الخارجي؛ فقد كانوا

رافضين للكلام عنه بشكل علني بلا مجازات. لذلك ضاع سر كيفية رعايتهما في وقت واحد على الأرض. ما أبينه من خلال سلسلة من الصور ليس إفشاءً عبثياً للأسرار. بل على العكس، لأنني دمجت ملاحظات اللنغ ين تشينغ Leng - yen - ching حول انقطاع الفيض والأفكار السرية لـهوا ـ ين ـ تشينغ مع إشارات عرضية إلى السوترات الأخرى، لكي ألخصها في هذه اللوحة الحقيقية، يمكن أن يُفهم منها أن الوعي والحياة ليسا شيئا خارجيا بالنسبة إلى الحويصلة الجرثومية. لقد رسمت هذه اللوحة بحيث يعرف الرفاق الذين يتابعون الأعمال الإلهية للرعاية المزدوجة أنه بهذه الطريقة تنضج البذور الحقيقية، وأنه بهذه الطريقة يتحقق انقطاع الفيض، وأنه بهذه الطريقة تصهر الشلي sheli[2]، وأنه بهذه الطريقة يكمل الطاو العظيم.

لكن الحويصلة الجرثومية هي تجويف غير مرئي: فلا شكل لها ولا صورة. عندما يتحرك النفس الحيوي، فإن بذرة هذه الحويصلة تظهر إلى حيز الوجود؛ عندما تتوقف تختفي مرة أخرى. إنها المكان الذي يؤوي الحقيقة، المذبح الذي يُصنع عليه الوعي والحياة. إنه يدعى قلعة التنين في قاع البحر، المنطقة الحدودية لجبال والثلج، المر البدئي، مملكة الفرح الأكبر، البلاد التي لا حدود لها. كل هذه الأسماء المختلفة تعني هذه الحويصلة الجرثومية. إذا لم يكن الإنسان المحتضر يعرف هذه الحويصلة الجرثومية، فلن يجد وحدة الوعي والحياة في ألف ولادة ولا في عشرة آلاف دهر.

هذه النقطة الجرثومية هي شيء عظيم، فقبل أن يولد جسمنا هذا من أبوينا، في زمن الحمل، تُخلق هذه البذرة أولاً وتسكن فيها الطبيعة البشرية والحياة فيتمازج الاثنان ويشكلان وحدة، مختلطين بشكل لا يمكن فصلهما، مثل الجمرات في فرن التنقية، توليفة من التناغم والقانون

الإلهي. لذلك يقال "في الحالة التي تسبق الظهور يوجد نَفَس لا ينضب. كما يقال: "قبل أن ينجب الأبوان الطفل، يكون نفَس الحياة كاملاً والجنين مكتملاً". لكن عندما يتحرك الجنين، وتتمزق حويصلة الجنين، فإن ذلك كما لو أن إنساناً فقد موطئ قدمه على جبل عال: بصرخة يندفع الإنسان نازلاً إلى الأرض، ومن ثم صاعداً، فتنفصل الطبيعة البشرية والحياة.. من هذه اللحظة لا يعود بإمكان الطبيعة البشرية أن ترى الحياة ولا الحياة ترى الطبيعة البشرية. والآن يأخذ القدر مساره: الشباب يعبر إلى النضج، النضج إلى الشيخوخة، والشيخوخة إلى الفاجعة.

لذلك كشف الجولاي[3] Julai، بحنوه العظيم، الصناعة السرية والصهر.

إنه يعلم المرء أن يعاود الدخول إلى الرحم وأن يعيد خلق الطبيعة البشرية وحياة الأنا؛ إنه يظهر كيف أن الروح والنفَس (النفس الحية) يدخلان الحويصلة الجرثومية، وكيف يجب أن يتفاعلا ليصبحا وحدة لكي يكملا الثمرة، تماماً كما أن نطفة[4] ونفس الأب والأم دخلتا هذه الحويصلة الجرثومية وتوحدتا ككائن واحد لكي تكملا الجنين. المبدأ هو نفسه.

بداخل الحويصلة الجرثومية توجد نار الحاكم؛ في مدخل الحويصلة الجرثومية توجد نار الوزير؛ في الجسم كله، توجد نار الشعب. عندما تعبر نار الحاكم عن نفسها، تتلقاها نار الوزير. عندما تتحرك نار الوزير، تتبعها نار الشعب. عندما تعبر النيران الثلاث عن نفسها بهذا الترتيب ينشأ إنسان. لكن عندما تعود النيران الثلاث بالترتيب المعاكس ينشأ الطاو.

هذا هو السبب في أن كل الحكماء باشروا عملهم بالحويصلة الجرثومية التي توقف فيها الفيض. إذا لم يرسخ المرء هذا المسار فإنه يقيم أشياء

أخرى، إنه ليس مفيداً. لذلك فإن كل المدارس والطوائف التي لا تعرف أن المبدأ الحاكم للوعي والحياة هو في هذه الحويصلة الجرثومية، والتي تنشده لذلك في العالم الخارجي، لا يمكنها أن تحقق شيئاً رغم كل جهودها لإيجاده في الخارج.

2 ـ الفترات الست للتدوير طبقاً للناموس[5]

إذا ميز المرء بداية مسار البوذا
ستكون هناك مدينة الغرب المباركة
بعد الانتشار بالتوافق مع القانون
ثمة انعطافة نحو الأعلى باتجاه السماء عندما يسحب النفس.
عندما يجري النفس خارجاً توجه الطاقة نحو الأرض.
تحتوي الفترة الزمنية الواحدة على ستة فواصل (hou).
في فاصلين يصل المرء إلى (sakymuni)
الطاو العظيم يأتي من المركز
فلا تبحث عن البذرة البدئية في الخارج!

التأثير الأروع للطاو هو الانتشار بالتوافق مع القانون. ما يجعل الحركة غير قابلة للنضوب هو المسار. ما يضبط السرعة هي الإيقاعات (Kuei). أفضل ما يقرر عدد التمارين هو طريقة الفواصل (hou).

يحتوي هذا التقديم على القانون كله، والسمات الحقيقية للبوذا من الغرب متضمنة فيه. تظهر الأسرار المحتواة فيه كيف يتحكم المرء

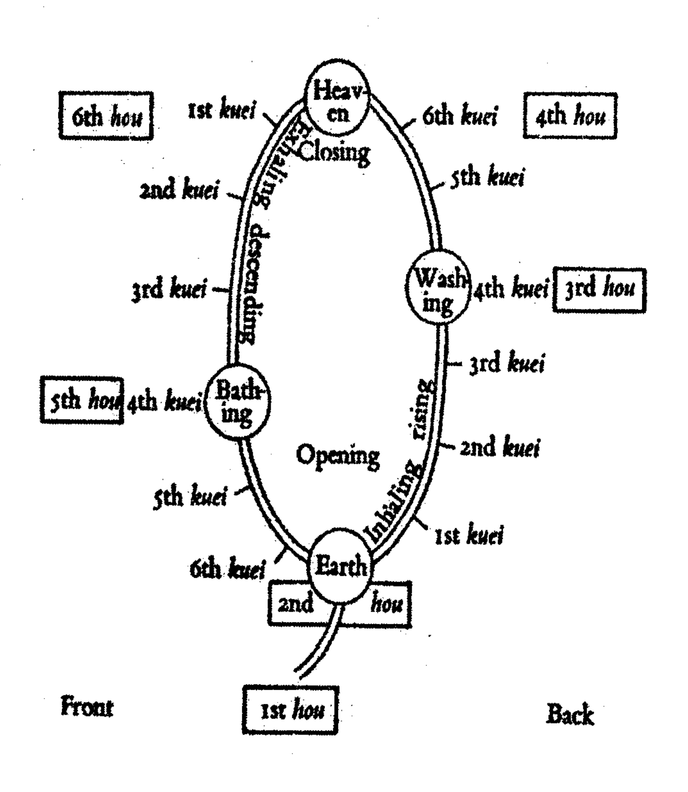
بالسيرورة بالشهيق والزفير، كيف أن التناوب بين النقصان والزيادة يعبر عن نفسه في الإغلاق والفتح، كيف يحتاج المرء إلى الأفكار الحقيقية كيلا ينحرف عن الطريق، كيف أن التحديد الصارم للمناطق يجعل من الممكن الشروع والإنهاء في الوقت الصحيح.

إنني أضحي بنفسي وأخدم الإنسان، لأنني قدمت بشكل تام هذه اللوحة التي تكشف البذرة السماوية بشكل كامل، بحيث أن كل إنسان عادي وكل إنسان من العالم يمكنه أن يصلها وهكذا يوصلها إلى الكمال. إن من يفتقد الفضيلة الحقيقية قد يجد فيها شيئاً، لكن السماء لن تمنحه طاوه. فلماذا لا؟ الفضيلة الحقيقية تنتمي إلى الطاو كما ينتمي أحد جناحي الطائر إلى الجناح الآخر: إذا كان أحدهما مفقوداً، فإن الآخر سيكون عديم الفائدة. لذلك فإن المطلوب هو الولاء والتبجيل والإنسانية والعدل والالتزام الصارم بالوصايا الخمس[6]، عندئذ فقط يمتلك المرء إمكانية إحراز شيء ما.

لكن كل المهارات والأسرار معروضة في **كتاب الوعي والحياة** هذا لكي يتم تأملها ووزنها، بحيث يمكن للمرء أن يحرز كل شي في حقيقته.

"يقصد بالرسم أن يبين انتشار تيارات الطاقة في أثناء حركة التنفس. فالشهيق يترافق بهبوط البطن والزفير يترافق بارتفاعه، لكن النقطة في هذه التمارين هي أننا نحصل على حركة تدفق نحو الوراء كما يلي: عند الشهيق، يفتح المرء بوابة الطاقة السفلى ويسمح للطاقة بالارتفاع نحو الأعلى على امتداد خط الطاقة الخلفي (في الحبل الشوكي)، وهذا التدفق نحو الأعلى يقابل الفواصل الزمنية المشار إليها في الرسم. في





Heaven
Closing
Exhaling descending
Washing
rising
Inhaling
Bathing
Opening
Earth
1st *kuei*
2nd *kuei*
3rd *kuei*
4th *kuei*
5th *kuei*
6th *kuei*
6th *kuei*
5th *kuei*
4th *kuei*
3rd *kuei*
2nd *kuei*
1st *kuei*
6th *hou*
4th *hou*
3rd *hou*
5th *hou*
2nd *hou*
1st *hou*
Front
Back



الزفير، تُغلق البوابة العليا ويسمح لتيار الطاقة بالتدفق نحو الأسفل على امتداد الخط الأمامي، بالشكل نفسه بترتيب الفواصل الزمنية المشار إليه. علاوة على ذلك، يجب التنويه إلى أن المحطات من أجل "الاغتسال" و"الاستحمام" لا تقع بالضبط في منتصف الخطين، بل إن "الاغتسال" يقع فوق المنتصف إلى حد ما و"الاستحمام" تحته، كما يبين الرسم.

3 ـ مسارا الطاقة للوظيفة والتحكم

هناك يظهر طريق الشهيق والزفير للممر البدئي، فلا تنسَ المسار الأبيض أسفل الانتشار وفقاً للقانون!

ودع دوماً كهف الحياة الأبدية يتغذى من خلال النار!

آه! فاختبر المكان الخالد للؤلؤة المتلألئة.

"في النص توجد صورة أخرى مشابهة جداً للأولى. إنها تظهر مرة أخرى مسارات الطاقة: المسار في الواجهة المقدمة يؤدي إلى الأسفل ويدعى مسار الوظيفة (Jen)، والمسار في الخلف يؤدي إلى الأعلى هو مسار التحكم (lu)".

ـ هذه الصورة هي في الواقع نفس الصورة التي تسبقها. إنني أظهرها مرة أخرى لكي يكون بإمكان الشخص الذي يكافح من أجل رعاية الطاو أن يعرف أنه ثمة في جسده الخاص انتشار وفقاً للقانون. لقد قدمت هذه الصورة لكي أنور الرفاق في البحث عن الهدف.

عندما يمكن إدخال هذين المسارين (القيام بالوظائف والتحكم) في صلة لا تنفصم، عندئذ فإن كل مسارات الطاقة تكون متصلة. فالغزال يبقي أنفه على ذيله لكي يغلق مسار طاقة التحكم. أما اللقلق والسلحفاة فيغلقان

مسارات وظائفهما. من هنا فإن هذه الحيوانات الثلاثة تبلغ من العمر ألف عام على الأقل. فكم يمكن للإنسان أن يمضي أبعد! فالإنسان الذي يتابع رعاية الطاو، الذي يحرك الانتشار وفقاً للقانون، لكي يدع الوعي والحياة ينتشران، لا حاجة به للخوف من ألا يطيل عمره وألا يكمل مساره.

4 ـ جنين الطاو

وفقاً للقانون، لكن بلا إجهاد، يجب على المرء
أن يملأ نفسه بالنور بإتقان.
وينظر إلى الداخل، ناسياً المظهر، ويساعد القدرة الروحية الحقيقية
لمدة عشرة أشهر يكون الجنين تحت النار
بعد عام تصبح الغسولات والحمامات دافئة.

الصورة التي ترد هنا تنطبق على الصورة المبينة على الصفحة 37[7].

هذه الصورة ستوجد في الطبعة الأصلية من كتاب Leng - yen - ching. لكن الرهبان الجاهلين الذين لم يتعرفوا على المعنى الخفي ولم يعرفوا شيئاً حول جنين الطاو، ارتكبوا لهذا السبب خطأ، باستبعاد هذه الصورة. لم أكتشف إلا من خلال شروحات الأنصار أن الجولاي Julai (تاثاغاتا Tathagatta) يعرف العمل الواقعي على جنين الطاو. هذا الجنين ليس شيئاً مرئياً من الناحية الجسدية يمكن إكماله من قبل الكائنات الأخرى، بل هو في الواقع طاقة التنفس الروحية للأنا. أولاً يجب على الروح أن تخترق طاقة النَفَس، عندئذ تغلف طاقة التنفس الروح.

عندما تتوحد الروح وطاقة التنفس بشكل متين وتكون الأفكار هادئة وساكنة، فهذا يوصف بأنه الجنين. يجب أن تتبلور طاقة التنفس؛ عندئذ فقط ستصبح الروح فعالة. لذلك يقال في اللنغ - ين - تشينغ: "الطاقتان تغذيان وتقويان إحداهما الأخرى. لذلك يقال: "يحدث النمو اليومي". عندما تكون الطاقة قوية بما فيه الكفاية ويكون الجنين مستديراً وكاملاً فإنه يخرج من قمة الرأس. هذا ما يدعى: الظهور المكتمل الذي يأتي كجنين ويلد ذاته بوصفه ابن البوذا.

5 - ولادة الثمرة

خارج الجسد ثمة جسد يدعى صورة البوذا
الفكر الذي يكون قوياً، في غياب الأفكار، هو بوذي Bodhi
تتفتح زهرة اللوتس ذات الألف بتلة، متحولة من خلال طاقة التنفس بسبب تبلور الروح، فيشع بهاء مضاعف مئة ضعف.

اللوحة التي ترد هنا تنطبق على اللوحة المبينة في الصفحة 79.

في اللنغ - ين - تشو[8] يقال: "في ذاك الوقت جعل حاكم العالم نوراً نفيساً مئة ضعف يشع من خصلات شعره. في وسط النور سطعت زهرة اللوتس النفيسة ذات الألف بتلة. وهناك بداخل الزهرة جلس جولاي محوَّل. ومن قمة رأسه خرجت عشرة أشعة من النور النفيس الأبيض، كانت مرئية في كل مكان. تطلع الحشد إلى نور الزفير وأعلن الجولاي: "المانترا السحري، الإلهي هو ظهور روح النور، لذلك فإنه اسمه هو ابن بوذا".

إذا لم يتلق الإنسان تعليماً حول الوعي والحياة، بل اكتفى بتكرار صيغ التأمل ببلادة وفي عزلة، فكيف يمكن أن ينشأ عن جسده الجولاي، الذي يجلس ويشع في زهرة اللوتس ويظهر في روحه ـ جسده الخاص! يقول الكثيرون إن روح النور هي التعليم الأصغر، لكن كيف يمكن لما يتلقاه الإنسان من حاكم العالم أن يكون تعليماً أصغر؟ بهذه الطريقة أكون قد أفشيت السر الأعمق للنغ ـ ين Leng – yen لكي أعلم المريدين. من يتلقى بهذه الطريقة يرتقي في الحال إلى السر المظلم ولا يعود يصبح مغموراً في غبار الحياة اليومية.

6 ـ فيما يخص استبقاء الجسد المحوّل

كل فكرة مستقلة تأخذ هيئة وتصبح مرئية في اللون والشكل.
القدرة الروحية الكلية تكشف آثارها وتحول نفسها إلى فراغ.
في الخروج إلى الوجود والدخول إلى العدم، يكمل المرء الطاو الخارق كل الهيئات المستقلة تظهر كأجساد، متحدة مع مصدر حقيقي.

الصورة التي ترد هنا تنطبق على الصورة المبينة على الصفحة 93.

7 ـ الوجه استدار إلى الجدار

الأشكال التي كونتها نار الروح ليست ألوانا وتكوينات فارغة

نور الطبيعة البشرية يشع مرتداً على البدئي، الحقيقي،
دمعة القلب تعوم في الفضاء، غير ملوثة، نور القمر يشع،
قارب الحياة بلغ الشاطئ، نور الشمس يشع ساطعاً.

الصورة التي ترد هنا تنطبق على الصورة المبينة في الصفحة 53.

8 ـ لا نهائية فارغة

بلا بداية، بلا نهاية،
بلا ماض، بلا مستقبل
هالة من النور تحيط بعالم القانون
إننا ننسى بعضنا بعضاً، هادئون وأنقياء، فارغون وأقوياء.
الفراغ يشع بنور القلب ونور السماء
ماء البحر أملس ويعكس القمر في وجهه
الغيوم تختفي في الفضاء الأزرق، الجبال تشع صافية
الوعي يعود إلى التأمل، قرص الشمس يرتاح لوحده.
الصورة التي ترد هنا هي نفسها الموجودة أدناه.

هوامش

(1). هذه الملاحظة التفسيرية والملاحظات التي تليها كانت بمساهمة من ريشارد فيلهلم.

(2). ساريرا، الصلب، الجسد الخالد.

(3). البوذا تاثاغاتا.

(4). تشينغ، النطفة، البذرة الذكرية، تشي، الروح، طاقة النفَس، أي العنصر الأنثوي، المتلقي.

(5). هذا المصطلح مستعار من المصطلحات البوذية، في السياق الذي يترجم فيه عادة بمعنى "عجلة القانون" (هلموت فيلهلم).

(6). الوصايا البوذية الخمس هي: (1) لاتقتل، (2) لاتسرق، (3) لا ترتكب الزنى، (4) لا تكذب، (5) و لا تشرب ولا تأكل اللحم.

(7). هذه الملاحظة التفسيرية والملاحظات الأربع المشابهة التي تليها قدمها هلموت فيلهلم (س. ف. ب.).

(8). سورامغاما مانترا (هـ. ف.).

تعليقـــات

بقلم

كارل غوستاف يونغ



مقدمة

1 ـ الصعوبات التي يواجهها الأوروبي في محاولته لفهم الشرق

نظراً لكوني غربياً في الشعور، فأنا بالضرورة متأثر تأثراً عميقاً بغرابة النص الصيني. صحيح أن بعض المعرفة بالأديان والفلسفات الشرقية يساعد عقلي وحدسي على فهم هذه الأفكار إلى حد معين، تماماً مثلما يمكنني أن أفهم مفارقات المعتقدات البدائية بلغة "الإثنولوجيا"، أو بلغة "التاريخ المقارن للأديان". بالفعل، هذه هي الطريقة الغربية لإخفاء المرء قلبه تحت عباءة ما يدعى الفهم العلمي. فمن ناحية أولى، إننا نفعل ذلك جزئياً بسبب الغرور البائس للخدم *miserable vanite des servants* الذي يخاف ويعارض بشكل مذعور أية إشارة على التعاطف الحي؛ ومن الناحية الأخرى، لأن الفهم التعاطفي قد يسمح للاحتكاك مع روح غريبة أن يصبح تجربة خطيرة.

كان من شأن ما يدعى الموضوعية العلمية أن تحفظ هذا النص من أجل الحدة الفيلولوجية لعلماء الصينيات، وأن تحميه بشكل غيور من أي

تفسير آخر. لكن ريشارد فيلهلم نفذ إلى الحيوية السرية والغامضة للحكمة الصينية بشكل أعمق من أن يسمح باختفاء مثل هذه اللؤلؤة من لآلئ البصيرة الحدسية على رفوف الاختصاصيين. يشرفني شرفاً عظيماً أن اختياره لمعلق سايكولوجي قد وقع علي.

إن هذا يستتبع المخاطرة، بأن هذا الكنز الفريد سيبتلعه علم اختصاصي آخر، أن أي شخص يسعى إلى التقليل من مزايا العلم والبحث الغربيين إنما يقوض الدعامة الرئيسية للعقل الأوروبي. إن العلم ليس أداة كاملة حقاً، لكنه أداة ممتازة، ولا غنى عنها، وهي لا تحدث ضرراً إلا عندما تؤخذ كغاية في حد ذاتها. لا بد أن يُخدم المنهج العلمي؛ إنه يضل عندما يغتصب عرشاً. إذ يجب عليه أن يكون مستعداً لخدمة كل فروع العلم، لأن كل فرع، بسبب عدم كفايته، يحتاج إلى الدعم من الفروع الأخرى. فالعلم هو عدة العقل الغربي ويمكن به فتح أبواب أكثر مما يمكن فتحه بالأيدي العارية. إنه جزء لا يتجزأ من معرفتنا، وهو لا يضبب بصيرتنا إلا عندما يعتقد أن الفهم الذي يمنحه هو النوع الوحيد الذي يوجد. لقد علمنا الشرق فهماً آخر، أوسع وأعمق وأرقى، هو الفهم من خلال الحياة. نحن نعرف هذا الطريق بشكل غامض فقط، كمجرد عاطفة مبهمة منقاة من المصطلحات الدينية، ولذلك فنحن نتخلص بسعادة من "الحكمة" الشرقية بعلامات اقتباس، ونحيلها إلى الأرض الغامضة للإيمان والخرافة. لكننا بهذه الطريقة نسيء فهم "واقعية" الشرق بالكامل. فهذا النص، على سبيل المثال، لا يقوم على العاطفة المبالغ فيها أو الحدوس الصوفية المرهقة التي تقارب الباثولوجي [المرضي] وتنجم عن النزوات الزهدية والتنسكية. إنها تقوم على التبصرات العملية للعقول الصينية العالية التطور، التي لا نملك أوهى تبرير للتقليل من قيمتها.

هذا الجزم قد يبدو جريئاَ، ربما، ومن المحتمل أن يقابل بعدم التصديق، لكن هذا ليس مفاجئاً، إذا أخذنا في الاعتبار مدى ضآلة ما نعرفه حول المادة. علاوة على ذلك، فإن غرابة المادة هي لافتة للنظر للغاية، بحيث أن ارتباكنا إزاء كيف وأين يمكن ربط عالم الفكر الصيني بعالمنا، هو ارتباك قابل للتفهم تماماً.

عندما يواجَه الإنسان الغربي بمعضلة فهم أفكار الشرق، يكون خطؤه المعتاد هو مثل خطأ الطالب في مسرحية فاوست Faust. فهو، إذ ضلله الشيطان، يدير ظهره للعلم باحتقار، ويضطلع بممارسات اليوغا بشكل حرفي تماماً، وقد جرفته نزعة الإيمان بالقوى الشرقية، ويصبح مقلداً يستحق الشفقة. (الثيوصوفية Theosophy هي مثالنا الأفضل على هذا الخطأ). وهكذا يتخلى عن الأساس الآمن للعقل الغربي ويتيه في وسط الكلمات والأفكار التي لم تنشأ أبداً في الأدمغة الأوروبية، والتي لا يمكن أبداً تطعيمها بها بشكل مثمر.

قال خبير قديم: "إذا استعمل الرجل الخاطئ الوسائل الصحيحة فإن الوسائل الصحيحة تعمل بالطريقة الخاطئة". لسوء الحظ إن هذا القول الصيني، وكله صادق، يتناقض تناقضاً حاداً مع إيماننا بالمنهج "الصحيح" بغض النظر عن الإنسان الذي يطبقه. في الواقع، في مثل هذه المسائل يعتمد كل شيء على الإنسان، ويعتمد اعتماداً ضئيلاً أو معدوماً على المنهج. لأن المنهج هو مجرد الطريق، الاتجاه الذي يسلكه الإنسان. إن الطريقة التي يتصرف بها هي التعبير الحقيقي عن طبيعته. إذا كف المنهج عن أن يكون ذلك، عندئذ لا يكون أكثر من تأثر، شيء مضاف بشكل مصطنع، لا جذور له وفاقد للحيوية، لا يخدم سوى الهدف غير المشروع لخداع الذات. إنه يصبح وسيلة لاستغباء الذات ولمراوغة ما قد يكون ربما القانون الذي لا سبيل لتغييره لوجود المرء. وهذا بعيد جداً عن الصفة الدنيوية

الغائبة والإخلاص للفكر الصيني. على العكس من ذلك، إنه إنكار لوجود المرء، وخيانة ذاتية لصالح آلهة غريبة ونجسة، إنه حيلة جبانة خدمة لغرض اغتصاب التفوق النفسي، وكل ما هو في الحقيقة مناقض بشدة لمعنى "المنهج" الصيني، لأن هذه التبصرات تنجم عن طريقة حياة كاملة، أصيلة، وصادقة بالمعنى الأكمل؛ إنها تبصرات تأتي من تلك الحياة الثقافية القديمة للصين التي نمت بشكل متسق ومتماسك من أعمق الغرائز، وهي، بالنسبة لنا، عصية أبداً ومستحيلة التقليد.

إن التقليد الغربي للشرق مأساوي بشكل مضاعف، من حيث أنه يأتي من سوء فهم لا سايكولوجي عقيم، مثله في ذلك كمثل الأعمال الطائشة الحديثة في الطاوات، وجزر بحر الجنوب السعيدة، وأفريقيا الوسطى، حيث يتم اللعب على "البدائية" في حين يتهرب الإنسان المتحضر الغربي من واجباته المهددة بالخطر، من ميدان الاختيار Hic Rhodus hic salta. إنها ليست مسألة تقليدنا، أو ما هو أسوأ، أن نصبح مبشرين بما هو أجنبي أصلاً، بل بالأحرى مسألة بناء ثقافتنا الغربية الخاصة بنا، التي تعاني من ألف علة. وهذا ما يتعين القيام به في المكان، ومن قبل الأوروبي الحقيقي كما هو بأشيائه المألوفة الغربية، بمشاكله الزوجية، بعصاباته neuroses، بأوهامه الاجتماعية والسياسية، وتخبطاته الفلسفية برمتها.

يجب أن نفعل خيراً بأن نعترف حالاً بأننا لا نفهم أساساً الانفصال الكامل عن عالم نص كهذا، ولا نريد أن نفهمه. فهل نمتلك، ربما، إلماعة إلى أن موقفاً عقلياً يمكنه أن يوجه النظر نحو الباطن إلى حد يمكنه أن يحقق مثل هذا الانفصال فقط، لأن هؤلاء الناس قد نفذوا بشكل كامل المطالب الغريزية لطبيعاتهم بحيث أن القليل أو لا شيء يمنعهم من رؤية الجوهر اللامرئي للعالم؟ هل من الممكن، ربما، أن المقدمة لمثل هذه الرؤية هي التحرر من تلك الطموحات والأهواء التي تقيدنا بالعالم المرئي؟ ألا

ينتج هذا التحرر عن التنفيذ المسؤول للمطالب الغريزية، بدلاً من التحرر من الكبت المبكر لها أو الخوف الفطري منها؟ هل تكون أعيننا مفتوحة على الروح فقط عندما تُطاع قوانين الأرض؟ إن أي شخص يعرف تاريخ الثقافة الصينية، ودرس الآي تشنغ I ching، كتاب الحكمة الذي تخلل كل الفكر الصيني لآلاف السنوات، لن يتجاهل هذه الأسئلة بخفة. علاوة على ذلك، سيعرف أن الآراء المقدمة في نصنا ليست شيئاً استثنائياً من وجهة النظر الصينية، بل هي استنتاجات سايكولوجية لا مفر منها فعلاً.

في ثقافتنا المسيحية، كانت الروح والشغف بالروح، لزمن طويل أعظم القيم والأشياء الأكثر استحقاقاً للكفاح من أجلها. بعد أفول العصور الوسطى، وفي أثناء القرن التاسع عشر فقط، كان أن بدأت الروح تنحدر إلى العقل، انطلق رد فعل ضد هيمنة النزعة العقلية التي لاتحتمل. هذه الحركة - وهذا صحيح - ارتكبت في البداية الخطأ الذي لا يمكن غفرانه وهو خلط العقل بالروح، ولوم الأخيرة على آثام الأول. إن العقل، في الحقيقة، يؤذي الروح عندما يتجرأ على أن يمتلك بنفسه إرثها. إنه ليس مهيئاً لفعل ذلك بأي شكل، لأن الروح هي شيء ما أسمى من العقل في أنها تتضمن، ليس فقط الأخير، بل المشاعر أيضاً. إنه اتجاه، أو مبدأ، للحياة يسعى نحو الذرى ما فوق البشرية المتألقة. وعلى النقيض منه يقف المبدأ المظلم، الأنثوي، الدنيوي (يين)، بعاطفيته وغريزيته اللتين تمتدان بعيداً إلى الوراء في أعماق الزمن، وإلى جذور الاستمرارية الفيزيولوجية. بلا شك هذه المفاهيم هي تبصرات حدسية خالصة، لكن المرء لا يمكنه أن يستغني عنها تماماً إذا كان يحاول أن يفهم طبيعة النفس البشرية. لم يكن بمقدور الصين أن تستغني عنها لأنها، كما يبين تاريخ الفلسفة الصينية، لم تذهب بعيداً للغاية عن الحقائق النفسية المركزية إلى حد أن تفقد ذاتها في تطور مفرط أحادي الجانب وتقييم مفرط لوظيفة نفسية واحدة. لذلك لم

يفشل الصينيون أبداً في تمييز المفارقات والقطبية المتأصلة فيما هو حي. لقد كانت الأضداد دوماً توازن أحدها الآخر، وهي علامة على الثقافة الراقية. إن أحادية الجانب، رغم أنها تعطي زخماً، هي علامة على البربرية. إن رد الفعل الذي يبدأ الآن في الغرب ضد العقل لصالح الشعور، أو لصالح الحدس، يبدو لي علامة تقدم ثقافي، وتوسيعاً للوعي إلى ما وراء الحدود الضيقة جداً للعقل الاستبدادي.

لا رغبة لدي في التقليل من قيمة التمايز الهائل للعقل الغربي؛ فالعقل الشرقي، مقاساً به، يمكن وصفه بأنه طفولي. (من الواضح أن هذا لا علاقة له بالذكاء). إذا كان علينا أن ننجح في إعلاء وظيفة نفسية أخرى، أو حتى ثالثة، إلى العقل الذي أُضفيت عليه منزلة رفيعة، عندئذ فإن الغرب يمكن أن يتوقع أن يتفوق على الشرق بهامش كبير جداً. لذلك يكون محزناً بالفعل عندما يبتعد الأوروبي عن طبيعته الخاصة ويقلد الشرق أو "يحاكيه" بأية طريقة.

إن الإمكانيات المفتوحة أمامه ستكون أكبر بكثير لو بقي صادقاً مع نفسه، وأخرج من طبيعته الخاصة كل ما ولده الشرق من كينونته الداخلية على مدى قرون.

عموماً، إذا نظرنا إلى العقل من وجهة النظر الخارجية بشكل لا براء منه، فسوف يبدو كما لو أن الأشياء يجري تقييمها تقييماً عالياً للغاية إذا لم تكن مرغوبة بالنسبة لنا. فالعقل وحده لا يمكنه أن يفهم في البداية الأهمية العملية التي يمكن أن تمتلكها الأفكار الشرقية بالنسبة لنا، وهذا هو السبب في أن بمقدوره أن يصنف هذه الأفكار بوصفها غرائب فلسفية وإثنولوجية لا أكثر. إن نقص الفهم يمتد بعيداً للغاية بحيث أن حتى علماء الصينيات الضليعين لم يفهموا التطبيق العملي للآي تشينغ I

ching، ولذلك نظروا إلى الكتاب بوصفه مجموعة من الرقى السحرية المبهمة.

2 ـ علم النفس الحديث يقدم إمكانية للفهم

إن الملاحظات المستخلصة في ممارستي قد فتحت، لي مقاربة جديدة تماماً وغير متوقعة للحكمة الشرقية. لكن يجب أن يُفهم جيداً أنني لم أكن أمتلك معرفة، مهما تكن غير كافية، بالفلسفة الصينية كنقطة انطلاق. على العكس، عندما بدأت عمل حياتي في ممارسة الطب النفسي والعلاج النفسي، كنت جاهلاً بشكل كامل بالفلسفة الصينية، ولم تظهر لي تجربتي المهنية إلا فيما بعد أنني في تقنيتي كنت منقاداً بلا وعي على الطريق السري الذي كان الشغل الشاغل لأفضل عقول الشرق على مدى قرون. وهذا كان بالإمكان اعتباره وهما ذاتياً ـ وهو أحد الأسباب لممانعتي السابقة لنشر أي شيء حول الموضوع ـ لكن ريشارد فيلهلم، ذاك المفسر العظيم لروح الصين. أثبت تماماً أنه الموازي لي. وبذلك منحني الشجاعة للكتابة حول نص صيني ينتمي بالكامل إلى الظلال الغامضة للعقل الشرقي. وهو في الوقت نفسه، وهذا هو الشيء الاستثنائي، مواز حي من حيث المضمون لما يحدث في التطور النفسي لمرضاي، الذين ليس بينهم صيني واحد.

لجعل هذه الحقيقة الغريبة مفهومة أكثر بالنسبة للقارئ، تجب الإشارة إلى أنه، كما أن الجسم البشري يظهر تشريحاً مشتركاً فوق كل الاختلافات العرقية، كذلك، أيضاً، فإن النفس البشرية تمتلك طبقة تحتية مشتركة تتجاوز كل الاختلافات في الثقافة والوعي.

لقد أطلقت على هذه الطبقة السفلية اسم اللاوعي الجمعي. هذه النفس البشرية اللاواعية، المشتركة بين كل الجنس البشري، لا تتكون فقط من محتويات قادرة على أن تصبح واعية، بل من استعدادات كامنة تجاه بعض ردود الأفعال المتطابقة. هكذا فإن حقيقة اللاوعي الجمعي هي ببساطة التعبير النفسي عن تطابق بنية الدماغ بغض النظر عن كافة الاختلافات العرقية. وهذا يفسر التماثل، وفي بعض الأحيان حتى التطابق، بين مختلف موتيفات الأساطير، والرموز، وإمكانية الكائنات البشرية على جعل نفسها مفهومة بشكل متبادل. إن مختلف خطوط التطور النفسي تبدأ من جذع مشترك تعود جذوره إلى كل طبقات الماضي. وهذا يفسر أيضاً التوازيات السايكولوجية مع الحيوانات.

يعني ذلك، من الناحية السايكولوجية الخالصة، أن البشرية تشترك بغريزتي التخيل والفعل. فكل تخيل وكل فعل واع يتطور على أساس من الصور البدئية النمطية ويظل مرتبطاً بها دائماً. وتكون هذه هي الحال خصوصاً عندما يبلغ الوعي درجة عالية من الوضوح، أي عندما يعتمد في جميع وظائفه على الغرائز أكثر من اعتماده على الإرادة الواعية، وعندما تحكمه العاطفة أكثر مما تحكمه المحاكمة العقلية هذا الشرط يكفل عافية بدائية للنفس البشرية تصبح، مع ذلك، على الفور انعداماً للتكيف، حالما تنشأ ظروف تستدعي جهداً معنوياً أعلى. تكفي الغرائز فقط لأجل الفرد المحتضن في الطبيعة، التي تبقى، على العموم دوماً هي نفسها. فالفرد الذي يكون أكثر اهتداءً بالاختيار اللاواعي من اهتدائه بالاختيار الواعي، يميل لذلك نحو النزعة المحافظة النفسية الملحوظة. هذا هو السبب في أن البدائي لا يتغير على مدى آلاف السنوات، وهو أيضاً السبب في أنه يخاف كل ما هو غريب وغير معتاد. قد يقوده ذلك إلى سوء التكيف، وبذلك إلى أكبر الأخطار النفسية، إلى نوع من العصاب في الحقيقة. فالوعي

الأرقى والأوسع، الذي لا يتحقق إلا من خلال تمثل غير المألوف، ينحو باتجاه الاستقلال، باتجاه الثورة ضد الآلهة القدماء الذين ليسوا أكثر من تلك الصور النمطية البدئية اللاواعية القوية التي أبقت الوعي مستعبداً على الدوام.

كلما أصبح الوعي أكثر قوة واستقلالاً، ومعه الإرادة الواعية، دفع اللاوعي إلى الخلف. عندما يحدث هذا يكون من الممكن بسهولة بالنسبة للبنى الواعية أن تنفصل عن الأنماط البدئية اللاواعية. وهي إذ تحرز هذا المكسب في الحرية تكسر سلاسل الغريزية المجردة، وتصل في النهاية إلى حالة مجردة من الغريزة، أو معاكسة لها. بذلك يخلع الوعي من جذوره ولا يعود قادراً على الاحتكام إلى مرجعية الصور النمطية البدئية؛ إنه يمتلك حرية بروميثيوسية، صحيح، لكنه [يمتلك] أيضاً عجرفة hybris بلا آلهة. إنه يحلق بالفعل فوق الأرض، حتى فوق الجنس البشري. لكن خطر الانقلاب قائم، ليس بالنسبة لكل فرد، بالتأكيد، بل بشكل جماعي بالنسبة للأفراد الضعفاء لمثل هذا المجتمع، الذين يكونون عندئذ، مثل بروميثيوس، مقيدين Caucasus عن طريق اللاوعي. ولقد قال الصينيون الحكماء بكلمات الآي تشينغ: عندما يكون يانغ قد بلغ أعظم قوته، تولد القدرة المظلمة ليين yin داخل أعماقه، لأن الليل يبدأ في منتصف النهار عندما ينبلج يانغ ويبدأ التحول إلى يين.

يكون الطبيب في موقع [يؤهله] ليرى هذا التقليب يحدث حرفياً في الحياة. فهو يرى، على سبيل المثال، رجل أعمال يحقق كل رغباته متجاهلاً خطره، ثم، وقد انسحب من النشاط في ذروة نجاحه، يقع خلال وقت قصير في عصاب، يحوله إلى امرأة عجوز نكدة، تثبته إلى فراشه، وبذلك تحطه في النهاية. إن اللوحة كاملة حتى في التحول من موقف ذكوري إلى موقف نسائي. ثمة مواز دقيق لهذا هي حكاية نبوخذ نصّر

الأسطورية في سفر دانيال، وفي الواقع، الجنون القيصري عموماً. إن حالات مشابهة من المبالغة أحادية الجانب في وجهة النظر الواعية، وحالات رد فعل البين المقابلة للاوعي، تشكل جزءا ليس صغيراً من ممارسة الأطباء النفسيين في عصرنا، وهو الذي يضفي قيمة زائدة للغاية على الإرادة الواعية إلى حد الإيمان بأنه حيث توجد الإرادة يوجد طريق.

ليس معنى ذلك أنني أرغب في الانتقاص على الأقل من القيمة الأخلاقية العالية لفعل الإرادة الواعية؛ فالوعي والإرادة يمكن أن يستمرا في كونهما يعتبران أرقى الإنجازات الثقافية للبشرية. لكن ما فائدة أخلاقية تحطم الكائن البشري؟ إن جعل الإرادة والقدرة العقلية في تناغم يبدو لي شيئاً أفضل من الأخلاقية. فالأخلاقية a tout prix هي علامة بربرية - في أغلب الأحيان الحكمة أفضل - لكنني ربما كنت أنظر إلى ذلك من خلال النظارات المهنية للطبيب الذي يجب عليه أن يصلح العلل الناتجة في أعقاب إنجاز ثقافي مبالغ فيه.

ليكن ما يكون. في حالتي، إنها لحقيقة أن الوعي المعمق بأحادية جانب ضرورية يبتعد كثيراً عن الأنماط البدئية التي يليها الانهيار. فقبل الكارثة الفعلية بزمن طويل، تعلن علامات الخطأ عن نفسها كغياب للغريزة، وعصبية، وفقدان لحس الاتجاه، وتشابكات في أوضاع مستحيلة ومشاكل. عندما يأتي الطبيب للفحص، يجد لاوعياً في تمرد كامل ضد قيم الوعي، في حين أن العكس، بالطبع، هو خارج المسألة تماماً. عندئذ نواجه بصراع لا يقبل المصالحة ظاهرياً. لا يمكن للعقل البشري أن يتعامل معه إلا عن طريق الحلول الزائفة أو التسويات المريبة. إذا رفضت هاتان الحيلتان، نواجه بسؤال عمّا آلت إليه وحدة الشخصية المطلوبة كثيراً، وعن ضرورة السعي إليها. وهنا نأتي إلى المسار الذي قطعه الشرق منذ زمن سحيق. من الواضح تماماً أن الصيني يدين باكتشاف هذا المسار إلى حقيقة

أنه لم يكن قادراً أبداً على فصل الأضداد في الطبيعة البشرية، بحيث أن كل الصلة الواعية قد ضاعت. يمتلك الصيني مثل هذا الوعي الشامل لأنه، كما في حالة العقلية البدائية، بقي النعم واللا في قرابتهما الأصلية. مع ذلك، لم يكن بمقدوره أن يهرب من الشعور بصراع الأضداد، ولذلك يبحث عن تلك الطريقة في الحياة التي سيكون فيها ما يصطلح الهندوسي على تسميته نردفاندفا nirdvandva خالياً من الأضداد.

يُعنى نصنا بهذا الطريق، وتبرز هذه المشكلة ذاتها مع مرضاي أيضاً. لا يمكن أن يكون هناك خطأ أكبر من أن يتبنى الغربي الممارسة المباشرة لليوغا الصينية، لأنها ستكون مسألة إرادته ووعيه، وستقوي الأخير فقط ضد اللاوعي، محدثة التأثير ذاته الذي يتعين تجنبه. فالعصاب سيكون عندئذ شديداً ببساطة، إذ لا يمكن التشديد بقوة كافية على أننا لسنا شرقيين، ولذلك نمتلك نقطة انطلاق مختلفة كلياً في هذه الأشياء. سيكون خطأً كبيراً أيضاً أن نفترض أن هذا هو المسار الذي يجب أن يسلكه كل عصابي، أو أنه هو الحل الذي يتعين السعي إليه في كل مرحلة من المشكلة العصابية. إنه ملائم فقط في تلك الحالات التي يكون الوعي فيها قد بلغ درجة غير طبيعية من التطور، ولذلك فقط انحرف أكثر مما ينبغي عن اللاوعي. هذه الدرجة العالية من اللاوعي هي الشرط اللازم الذي لابد منه فلا شيء سيكون أكثر خطأً من الرغبة في فتح هذا الطريق للعصابيين الذين يكونون مريضين بسبب الهيمنة المفرطة للاوعي. وللسبب نفسه، فإن طريق التطور هذا قلما كان له أي معنى قبل منتصف العمر (بشكل طبيعي بين سن الخامسة والثلاثين وسن الأربعين)؛ في الحقيقة، إذا تم دخوله أبكر من اللازم، فقد يكون ضاراً.

كما أشرنا، كان المبرر لأجل البحث عن طريق جديد، هو حقيقة أن المشكلة الأساسية للمريض كانت تبدو غير قابلة للحل بالنسبة لي، ما لم

يُمارس العنف على هذا الجانب أو ذاك من طبيعته. كنت أعمل دوماً بقناعة مزاجية أنه لا توجد أساساً مشاكل غير قابلة للحل، وكانت الخبرة تبررني بقدر ما رأيت في الغالب أفراداً تجاوزوا ببساطة مشكلة كانت قد حطمت آخرين. هذا الـ "تجاوز"، كما أسميته سابقاً، على مزيد من التجربة، كان ينظر إليه على أنه يقوم على مستوى جديد من الوعي. لقد برز بعض الاهتمام الأعلى أو الأوسع حول أفق الشخص، ومن خلال هذا التوسيع لرؤيته فقدت المشكلة غير القابلة للحل إلحاحيتها. فهي لم تحل منطقياً بلغتها الخاصة، بل تلاشت عندما ووجهت بنزعة حياة جديدة وأقوى. لم تُكبت وتجعل لا واعية، بل ظهرت فحسب في ضوء مختلف، وهكذا أصبحت في الواقع مختلفة. على مستوى أدنى، فإن ما قاد إلى أشرس النزاعات وإلى اندفاعات مذعورة للعاطفة، منظوراً إليها من المستوى الأعلى للشخصية، كانت تبدو آنذاك مثل عاصفة في الوادي، تُرى من قمة جبل مرتفع. هذا لا يعني أن العاصفة الرعدية مجردة من واقعيتها، بل بدلاً من كون المرء فيها، فهو الآن فوقها. مع ذلك، بما أننا كلاً من الوادي والجبل بالنسبة إلى النفس البشرية، فقد يبدو وهماً فارغاً أن يشعر المرء أنه خارج ما هو بشري. فالمرء بالتأكيد يشعر بالتأثر ويهزه ذلك ويعذبه، مع أنه في الوقت نفسه مدرك لوعي أرقى، يمنع المرء من أن يصبح متماهياً مع الوجدان، وعي يعتبر الوجدان موضوعياً، ويمكنه أن يقول "أعرف أنني أعاني": إن ما يقوله نصنا عن التراخي: " تراخ يكون الإنسان واعياً له وتراخ يكون لا واعياً له، يبعدان عن بعضهما ألف ميل"، ليصحّ في أعلى درجة من الوجدان أيضاً.

هنا وهناك حدث في ممارستي أن مريضاً تجاوز نفسه بسبب إمكانيات مجهولة، وهذه أصبحت تجربة ذات أهمية أساسية بالنسبة لي. لقد تعلمت في هذه الأثناء أن أعظم وأهم مشاكل الحياة هي كلها بمعنى معين

غير قابلة للحل. يجب أن تكون كذلك لأنها تعبر عن القطبية الضرورية المتأصلة في كل منظومة ذاتية التنظيم لا يمكن حلها أبداً، بل يمكن تجاوزها فقط. سألت نفسي إن كانت هذه الإمكانية من التجاوز، أي المزيد من النمو النفسي، ليست هي الشيء الطبيعي، وأن الشيء المرضي هو، بالتالي، ما يظل عالقاً في نزاع يجب على كل شخص أن يمتلك ذاك المستوى الأعلى، علىٍ الأقل في الشكل الجنيني، وفي الظروف المؤاتية يجب أن يكون قادراً على تطوير إمكانياته. عندما تفحصت طريق تطور أولئك الأشخاص الذين تجاوزوا أنفسهم بهدوء، وكما لو كان ذلك بشكل لا واعٍ، قلت إن أقدارهم مشتركة. الشيء الجديد جاء إليهم من الإمكانيات الغامضة سواءً خارج ذواتهم أو داخلها؛ لقد قبلوا ذلك وازدادوا تطوراً بواسطته. كان يبدو لي نموذجياً أن البعض أخذوا الشيء الجديد من خارج ذواتهم، والآخرون من داخلها؛ أو بالأحرى، إنه دخل إلى بعض الأشخاص من الخارج، وإلى الآخرين من الداخل. لكن الشيء الجديد لم يأت حصراً إما من الداخل أو من الخارج. فلو نشأ من الخارج، لأصبح تجربة ذاتية على نحو عميق؛ لو نشأ من الداخل، لأصبح حدثاً خارجياً. بأي حال من الأحوال لم يتم استحضاره إلى الوجود من خلال الهدف والإرادة الواعية، بل بالأحرى كان يبدو محمولا على تيار الزمن.

إننا نُغرى إغراءً كبيراً بتحويل كل شيء إلى هدف و منهج إلى درجة أنني أعبر عن نفسي بشكل متعمد بمصطلحات مجردة جداً لكي أتجنب إحداث حكم مسبق في اتجاه أو آخر. الشيء الجديد يجب ألا يُهمل تحت أي عنوان، لأنه يصبح عندئذ وصفة تطبق بشكل آلي وسيكون مرة أخرى حالة من "الوسيلة الصحيحة" في يدي "الرجل الخطأ". لقد تأثرت تأثراً شديداً بحقيقة أن الشيء الجديد الذي يقدمه القدر نادراً ما يتوافق أو لا يتوافق أبداً مع التوقع الواعي. والأكثر جدارة بالملاحظة، رغم أن الشيء

الجديد يناقض الغرائز العميقة الجذور كما عرفناها، أنه تعبير ملائم بشكل فريد عن الشخصية الإجمالية، وهو تعبير لم يكن بمقدور المرء أن يتخيله في شكل أكمل.

ما الذي فعله هؤلاء الأشخاص لكي ينجزوا التطور الذي حررهم؟ بقدر ما أمكنني أن أرى فإنهم لم يفعلوا شيئاً (wu wei)[1] سوى ترك الأشياء تحدث. كما يعلمنا المعلم لو ـ تسو في نصنا، فإن النور يدور وفقاً لقانونه الخاص، إذا لم يتخل المرء عن شغله العادي. إن فن ترك الأشياء تحدث، الفعل من خلال اللافعل، ترك [الشيء] يسير من تلقاء ذاته، كما يعلمنا المعلم إكهارت Messter Eckhart، أصبح بالنسبة لي المفتاح الذي يفتح الباب إلى الطريق. يجب أن نكون قادرين على ترك الأشياء تحدث في النفس البشرية. بالنسبة لنا، هذا بالفعل فن لا يعرف عنه قلة من الناس أي شيء. فالوعي إلى الأبد يتدخل، يساعد، يصحح، و يلغي، ولا يترك النمو البسيط للسيرورات النفسية في سلام. سيكون ذلك بسيطاً بما يكفي، فقط لو لم تكن البساطة هي أصعب الأشياء قاطبة. بداية، تقوم المهمة حصراً على الرصد الموضوعي لشذرة من استيهام في تطوره. لا شيء كان من الممكن أن يكون أبسط، ومع ذلك فإن الصعوبات تكمن هنا. لا يبدو أن ثمة أي شذرة استيهام تظهر ـ أو نعم، تظهر واحدة، لكن ذلك غباء أكثر مما ينبغي ـ مئات من الأسباب الوجيهة تمنعها. لا يمكن للمرء أن يركز على ذلك ـ إنه مضجر جداً ـ ما الذي كان سيصل إليه ـ إنه "ليس سوى"، إلخ... العقل الواعي يثير اعتراضات وفيرة، في الحقيقة إنه غالباً ما يبدو منكباً على حجب نشاط الاستيهام العفوي بالرغم من التبصر الواقعي، حتى بالرغم من العزم الثابت من طرف الفرد على السماح

---

[1]. الفعل من خلال اللافعل (س. ف. ب.)

للسيرورات النفسية بأن تتقدم بدون تدخل. في غالب الأحيان يوجد تشنج حقيقي من الوعي.

إذا كان المرء ناجحاً في التغلب على الصعوبات الأولية، فإن النقد لا يزال من المرجح أن يبدأ فيما بعد ويحاول أن يفسر الاستيهام، يصنفه، يجمّله، أو يحط من قيمته. إن الإغراء للقيام بذلك يكاد لا يقاوم. بعد الرصد الكامل والأمين، يمكن إطلاق العنان لنفاذ صبر العقل الواعي؛ في الحقيقة يجب أن يطلق، وإلا نشأت مقاومات معيقة. لكن في كل مرة تُنتج فيها مادة الاستيهام، يجب أن يوضع نشاط الوعي جانباً مرة أخرى.

في معظم الحالات لا تكون نتائج هذه الجهود مشجعة في البداية. فهي تتألف عادة من شبكات الاستيهام التي لا تثمر أي معرفة واضحة بأصلها أو هدفها. كذلك، فإن طريقة الوصول إلى الاستيهامات مختلفة بشكل فردي. بالنسبة لأشخاص كثيرين، من الأسهل كتابتها؛ فيما آخرون يتصورونها، وسواهم يرسمونها مرة أخرى ويلونونها بتصور أو بدونه.

في حالات وجود درجة عالية من التشنج الواعي، في غالب الأحيان يمكن لليدين وحدهما أن تقوما بالاستيهام؛ فهما تقولبان أو ترسمان أشكالاً تكون في غالبيتها غريبة تماماً على العقل الواعي.

هذه التمارين يجب مواصلتها إلى أن يُزال التشنج في العقل الواعي، أو، بعبارة أخرى، إلى أن يتمكن المرء من ترك الأشياء تحدث، وهو ما كان الهدف المباشر للتمرين. بهذه الطريقة يتم خلق اتجاه جديد، موقف يقبل اللاعقلاني، وغير القابل للفهم، ببساطة لأنه هو ما يحدث. هذا الموقف سيكون سماً لشخص كان قبل الآن مغموراً بأشياء تحدث فحسب، لكنه ذو قيمة عليا بالنسبة لمن لا يختار، بنقد واعٍ حصرياً، إلا الأشياء المقبولة لوعيه فقط من بين الأشياء التي تحدث، وبذلك تُخرج تدريجياً من تيار الحياة [لتدخل] إلى الماء المرتجع الراكد.

عند هذه النقطة، فإن الطريق الذي سلكه النمطان المذكوران أعلاه يبدو مستقلاً. فكلاهما تعلما أن يقبلا ما يأتي إليهما. (كما يعلمنا المعلم لو ـ تسو: "عندما تأتي المشاغل إلينا يجب أن نقبلها؛ عندما تأتي الأشياء إلينا يجب أن نفهمها من الأساس). ثمة إنسان واحد سيأخذ بشكل رئيسي ما يأتي إليه من الخارج، بينما سيأخذ الآخر ما يأتي من الداخل، ووفقاً لقانون الحياة، فإن الأول سيكون عليه أن يأخذ من الخارج شيئاً لم يكن من الممكن أن يقبله من قبل من الخارج، والآخر سيقبل من الداخل أشياء كانت مستبعدة دوماً من قبل.

هذا الإعكاس لكينونة المرء يعني تضخيماً، وإعلاءً وإغناءً للشخصية. يتم الإبقاء على القيم السابقة بالتوازي مع التغيير بشرط، بالطبع، ألا تكون هذه القيم مجرد أوهام. إذا لم يتم الإبقاء على القيم، يقفز الفرد إلى الجهة الأخرى، ويعبر من اللياقة إلى عدم اللياقة، من التكيف إلى انعدامه، ومن المعنى إلى الهراء، وحتى من العقلانية إلى الاضطراب العقلي. إن الطريق لا يخلو من الخطر. فكل شيء جيد مكلف، وتطور الشخصية هو أحد الأشياء الأكثر كلفة على الإطلاق. إنها مسألة قول نعم للذات، مسألة اعتبار ذات المرء بوصفها أخطر المهام، مسألة كونه واعياً لكل شيء يفعله، وإبقائه بشكل ثابت أمام عيني المرء في مظاهره المثيرة للشك ـ إنها حقاً مهمة ترهقنا إلى الحد الأقصى.

يمكن للصيني أن يلجأ إلى مرجعية مجمل ثقافته. فإذا بدأ الطريق الطويل، فإنه يفعل ما يعترف به كونه أفضل كل الأشياء التي كان بإمكانه أن يفعلها. لكن الغربي الذي يرغب في السير على هذا الطريق، إذا كان جاداً بشكل صادق في ذلك، فكل مرجعية فكرياً وأخلاقياً وثقافياً ـ هذا هو السبب في كان في غاية اليسر بالنسبة لإنسان هو أن يحاكي الطريق الصيني، ويهجر الطريق الأوروبي العسير، أو يبحث مرة أخرى عن طريق

العودة إلى قروسطية الكنيسة المسيحية، ويعلي الجدار الأوروبي المقصود به أن يفصل المسيحيين الحقيقيين عن الوثنيين البائسين والأشخاص الغريبي الأطوار الإثنوغرافيين القابعين في الخارج. إن المغازلات الجمالية أو الفكرية مع الحياة والقدر تصل إلى نهاية مباغتة هنا. فالخطوة إلى وعي أعلى تخرجنا وتبعدنا عن كل غطاء المؤخرة وعن كل إجراءات السلامة. يجب على الفرد أن يسلم نفسه للطريق الجديد بشكل كامل، لأنه بواسطة كماله فقط يمكنه أن يتقدم، ويمكن لسلامته فقط أن تضمن أن طريقه ليس مغامرة عبثية.

سواء كان قدر الشخص يأتي إليه من الخارج أم من الداخل، فإن خبرات وأحداث الطريق تبقى هي نفسها. لذلك لست بحاجة لقول شيء حول الأحداث الخارجية والداخلية المتشعبة، والتشكيلة التي لا نهاية لها التي لم يكن بمقدوري أن أستنفدها بأي حال. علاوة على ذلك، فإن فعل ذلك لا علاقة له بالنص قيد المناقشة. لكن ثمة الكثير لقوله عن الحالات النفسية التي ترافق مزيداً من التطور. هذه الحالات النفسية يعبر عنها رمزياً في نصنا، وفي الرموز ذاتها التي كانت مألوفة لي لسنوات كثيرة في أية ممارسة.

المفـاهيم الأساسيـة

1 ـ الطاو

تعود الصعوبة الكبيرة في تفسير هذا النص والنصوص المشابهة له[1] بالنسبة للعقل الأوروبي إلى حقيقة أن المؤلف الصيني يبدأ دائماً من النقطة المركزية، من النقطة التي ندعوها هدفه أو غايته؛ بعبارة أخرى، إنه يبدأ بالتبصر الأساسي الذي شرع في التوصل إليه. هكذا يبدأ المؤلف عمله بأفكار تتطلب مثل هذا الفهم الشامل، بحيث أن شخصاً ذا عقل مميز يجب أن يشعر أنه سيكون متهماً بالادعاء المثير للسخرية، وحتى النطق بالهراء المطلق إن كان عليه أن ينكب على خطاب فكري حول التجارب النفسية البارعة لأعظم عقول الشرق. على سبيل المثال، يبدأ نصنا: "إن ما يوجد من خلال ذاته يدعى الطريق". يبدأ **الهوى مينغ تشينغ** *Hui Ming Ching* بالكلمات: "أبرع سر للطاو هو الطبيعة البشرية والحياة".

إن الخصيصة المميزة للعقل الغربي هي أنه لا يملك أي مفهوم للطاو. فالحرف الأبجدي الصيني مكون من حرف بمعنى "رأس" وحرف بمعنى "ذهاب". يترجم فيلهلم الطاو بكلمة sinn (المعنى)[2]. فيما يترجمه آخرون بمعنى "طريق" "عناية إلهية" أو حتى "إله / الله كما يترجمه

اليسوعيون. هذا يكشف المعضلة. فالـ "رأس" يمكن اعتباره الوعي، والذهاب هو سلوك طريق، وهكذا تكون الفكرة: "أن تذهب بوعي"، أو الطريق الواعي. هذا يتفق مع حقيقة أن "نور السماء" الذي يسكن بين العينين بوصفه "القلب السماء" يستعمل بشكل مرادف للطاو. فالطبيعة البشرية والحياة متضمنان في "نور السماء" و، بحسب ليو- هوا - يانغ، هما أهم أسرار الطاو. الآن يكون "النور" هو المكافئ الرمزي للوعي، و يعبر عن طبيعة الوعي بالمقارنات مع النور.

يُتصدر الهوي مينغ تشينغ الأبيات التالية:

إذا أكملت الجسد الماسي بلا فيض
فسخن بكد جذور الوعي[3] والحياة.
أشعل النور في البلد المبارك في المتناول أبداً
وهناك، دع ذاتك الحقيقية تسكن خفية دوماً.

هذه الأبيات تحتوي على نوع من التعليم الخيميائي، منهج أو طريقة لخلق "الجسد الماسي" المقصود أيضاً في نصنا. فالتسخين ضروري، أي يجب أن يحصل تكثيف للوعي لكي يكون بالإمكان "تنوير" مكان إقامة الروح. لكن ليس الوعي وحده ما يجب تكثيفه، بل الحياة نفسها أيضاً. إن اتحادهما ينتج "الحياة الواعية". وفقاً للهوي مينغ تشينغ، كان الحكماء الأقدمون يعرفون كيف يجسرون الهوة بين الوعي والحياة لأنهم كانوا يرعون الاثنين. بهذه الطريقة "يُصهر" الشلي sheli، الجسد الخالد، وبهذه الطريقة "يُكمل الطاو العظيم"[4].

إذا أخذنا الطاو على أنه المنهج أو الطريق الواعي الذي نوحد به ما هو مقسم، فربما نكون قد اقتربنا من المضمون السايكولوجي للمفهوم. بأي

حال، إن فصل الوعي عن الحياة لا يمكن فهمه جيداً على أنه يعني أي شيء سوى ما وصفته أعلاه بأنه أيضاً حرف أو استئصال للوعي بلا شك. إن تحقق الضد الخفي في اللاوعي، أي "الإعكاس"، يرمز إلى إعادة التوحد مع القوانين اللاواعية للوجود، والغرض من إعادة التوحد هذه هو تحقيق الحياة الواعية أو، كما يعبر عنه بالمصطلحات الصينية، تحقيق الطاو.

2 ـ الحركة الدائرية والمركز

كما أشرنا للتو، فإن اتحاد الأضداد[5] على مستوى عال من الوعي ليس شيئاً عقلياً، ولا هو مسألة إرادة؛ إنه سيرورة تطور نفسية تعبر عن نفسها بالرموز، وما زال تطور الشخصية الفردية اليوم يقدم نفسه بأشكال رمزية. لقد تكشفت الحقيقة لي في الملاحظات التالية: إن نتاجات الاستيهام العفوي المذكورة أعلاه تصبح أكثر عمقاً، وتركز نفسها تدريجياً حول البنى المجردة التي تمثل بشكل ظاهري "المبادئ"، الـ archai الغنوصية الحقيقية. عندما يعبر عن الاستيهامات بشكل أساسي بالأفكار، تكون النتائج صيغاً حدسية لقوانين أو مبادئ محسوسة بشكل مبهم، تنحو في البداية إلى أن تكون ممسرحة أو مشخصنة. (سنعود إلى هذه مرة أخرى فيما بعد). إذا تم التعبير عن الاستيهامات بالرسوم، تظهر الرموز التي تكون بشكل رئيسي من النمط الذي يدعى المندالة[6]. "فالمندالة"[*] تعني

[*]. المندالة: رمز الكون عند البوذيين وهي عبارة عن دائرة تطوق مربعاً وعلى كل جانب من جوانبها توجد صورة إله (المترجم).

دائرة، وبشكل خاص أكثر دائرة سحرية، وهذا الرمز لا يوجد في كل الشرق فقط، بل بيننا أيضاً؛ لقد رسمت المندالات بكثرة في العصور الوسطى. فالعصور الوسطى المبكرة كانت غنية بشكل خاص بالمندالات المسيحية، ويظهر المسيح في المركز في معظمها، وذلك مع مؤلفي الأناجيل الأربعة، أو رموزهم، على عدد النقاط الرئيسية. ويجب أن يكون هذا التصور قديما جداً، لأن المصريين صوروا حورس مع أبنائه الأربعة بالطريقة نفسها (من المعروف أنه كان لحورس مع أبنائه الأربعة صلات وثيقة بالمسيح ومبشريه / مؤلفي أناجيله الأربعة)... فيما بعد تبين وجود مندالة لا تخطئ ومثيرة للانتباه جداً) في كتاب ياكوب بويمه Jacob Boehme عن الروح[7]. هذه المندالة الأخيرة، كما هو واضح، تعالج منظومة كونية نفسية تلونها أفكار مسيحية. يطلق عليها بويمه اسم "العين الفلسفية"[8]، أو "مرآة الحكمة"، التي تعني بشكل جلي ملخصاً للمعرفة السرية. إن شكل المندالة، في الجزء الأعظم منه، هو شكل زهرة، صليب، أو دولاب، مع ميل واضح نحو البنية الرباعية الأجزاء. (وهو ما يذكر المرء بالـ Tetraktys العدد الأساسي في النظام الفيثاغوري). و توجد المندالة من هذا النوع أيضاً في اللوحات الرملية المستخدمة في طقوس هنود البويبلو والنافاهو[9]. لكن أجمل المندالات هي، بالطبع، مندالات الشرق، وخصوصاً تلك العائدة إلى البوذية التبتية. إن رموز نصنا ممثلة في هذه المندالات. ولقد عثرت على رسوم مندالات أيضاً بين المرضى عقلياً، وفي الواقع بين أشخاص لم تكن لديهم بالتأكيد أدنى فكرة عن أي من الصلات التي ناقشناها[9].

لقد مررت بحالات لنساء من مريضاتي لم يرسمن مندالات، بل رقصنها بدلاً من ذلك. في الهند يدعى هذا النمط مندالا نريثيا mandala

nrithya أو رقصة المندالة، وتعبر أشكال الرقص عن نفس المعاني التي تعبر عنها الرسوم. لا يمكن لمريضاتي أن يتحدثن سوى القليل حول معنى الرموز، لكنهن مفتونات بها ويجدنها، بطريقة أو أخرى، معبرة ومؤثرة بخصوص حالتهن النفسية.

يعد نصنا "بكشف سر الزهرة الذهبية للعظيم". فالزهرة الذهبية هي النور، ونور السماء هو الطاو. إن الزهرة الذهبية هي رمز مندالة غالباً ما صادفته في المادة التي جلبها لي مرضاي. إنها تُرسم إما منظوراً إليها من فوق كزخرفة هندسية منتظمة، أو كزهرة / نوارة تنمو من نبات. وفي كثير من الأحيان يكون النبات تشكيلاً بألوان نارية فاقعة ينمو خارجاً من سرير من الظلمة، ويحمل زهرة النور في الأعلى، وهو رمز مشابه لرمز شجرة عيد الميلاد. يعبر رسم من هذا النوع أيضاً عن أصل الزهرة الذهبية؛ وفقاً للهوي مينغ تشينغ فإن "الحويصلة الجرثومية" ليست سوى "القلعة الصفراء"، "القلب السماوي"، "مصطبة الحياة"، "حقل الإنش المربع لبيت القدم المربع"، القاعة الأرجوانية لمدينة اليشب"، "المعبر المظلم"، "فضاء السماء السابقة، "قلعة التنين في قاع البحر". وتدعى أيضاً "المنطقة الحدودية لجبال الثلج"، "المعبر البدئي"، "مملكة الفرح الأعظم"، "الأرض بلا حدود"، و"المذبح الذي يصنع عليه الوعي والحياة". إذا لم يعرف الإنسان المحتضر هذه الحويصلة الجرثومية"، يقول الهوي مينغ تشينغ، فإنه لن يجد وحدة الوعي والحياة في ألف ولادة، ولا في عشرة آلاف دهر".

إن البداية، التي لا يزال كل شيء فيها واحداً ـ ولذلك تظهر بوصفها الهدف الأسمى ـ تكمن في قاع البحر في ظلمة اللاوعي. وفي الحويصلة الجرثومية، فإن الوعي والحياة ("الطبيعة البشرية" و"الحياة،) لا يزالان "وحدة"[10]، ممتزجين بشكل لا يمكن فصلهما مثل الجمرات في فرن التنقية. بداخل الحويصلة الجرثومية توجد نار الحاكم". " كل الحكماء

بدأوا عملهم بالحويصلة الجرثومية". لاحظ تشبيهات النار. أعرف سلسلة من رسوم المندالات الأوروبية فيها شيء يشبه بذرة النبات محاطة بأغلفتها وهي تطفو في الماء، ومن الأعماق في الأسفل، فإن النار التي تخترق البذرة تجعلها تنمو وتسبب تشكل زهرة ذهبية كبيرة من داخل الحويصلة الجرثومية.

تحيل هذه الرمزية إلى نوع من عملية التنقية والتنبيل الخيميائية؛ فالظلمة تلد النور، ومن رصاص منطقة الماء ينمو الذهب النبيل؛ ما هو لا واعٍ في شكل سيرورة من الحياة والنمو.

تقدم يوغا كونداليني الهندوسية تماثلاً تاماً. بهذه الطريقة يحدث اتحاد الوعي والحياة.

عندما يرسم مرضاي لوحات المندالة يكون ذلك، بالطبع، ليس من خلال الإيحاء؛ ولقد صنعت لوحات مشابهة قبل وقت طويل من معرفة معناها أو صلتها بممارسات الشرق التي كانت في ذاك الوقت غير مألوفة كلياً بالنسبة لي. لقد جاءت اللوحات بشكل عفوي تماماً ومن مصدرين، أحدهما هو اللاوعي: الذي ينتج مثل هذه الاستيهامات بشكل عفوي؛ أما المصدر الآخر فهو الحياة التي تجلب، إذا عيشت بتكريس كامل، حدس الذات والكينونة الفردية. إن إدراك الذات الفردية يعبر عنه في الرسم، في حين أن اللاوعي يتطلب التكريس للحياة. إن رمز المندالة يتناغم تماماً مع التصور الشرقي، فهو ليس وسيلة للتعبير فقط، بل يمارس تأثيراً أيضاً. إنه يرتد على صانعه. إن الآثار السحرية القديمة جداً تكمن مخفية في هذا الرمز لأنه يشتق أصلاً من "الدائرة المطوقة"، "الدائرة المسحورة، السحر الذي تم الحفاظ عليه في تقاليد شعبية لا حصر لها[11]. لقد كان للصورة هدف واضح هو رسم خندق سحري sulcus primigenius، أخدود سحري حول المركز، فضاء مقدس templum، أو حرم مقدس temenos

(تخم مقدس)، للشخصية الأعمق، لكي يمنع "التدفق خارجاً / الانسكاب"، أو يحمي بالوسائل الواقية من الانحرافات من خلال المؤثرات الخارجية. ليست الممارسات السحرية سوى الإسقاطات لأحداث نفسية، تطبق هنا ضد النفس البشرية، مثل نوع من الرقية على شخصية المرء. هذا معناه أنه بواسطة هذه الأداءات الملموسة يعاد الانتباه، أو الأصح، الاهتمام إلى حقل مقدس داخلي، هو المصدر والهدف للروح، والذي يحتوي على وحدة الحياة والوعي. إن الوحدة ما إن تُمتلك حتى تفقد، وعندئذ يجب البحث عنها مرة أخرى.

إن وحدة هذين الاثنين، الحياة والوعي، أي الطاو، الذي سيكون رمزه هو النور الأبيض المركزي (قارن الباردو تودول Bardo Thodol **كتاب الأموات التبتي**)[12]. هذا النور يسكن في "الإنش المربع"، أو في "الوجه"، أي، بين العينين. إنها صورة النقطة الخلاقة، نقطة تمتلك كثافة بدون اتساع، يفكر بها بوصفها مرتبطة بفضاء "الإنش المربع"، الرمز لما يمتلك امتداداً. إنهما معاً يصنعان الطاو: الطبيعة البشرية والوعي اللذان يعبر عنهما في رمزية النور، وهما لذلك كثافة، في حين أن الحياة [ming] تتقاطع مع الامتدادية الأولى تمتلك خاصية مبدأ اليانغ، والأخيرة تمتلك خاصية مبدأ اليين. إن المندالة المذكورة أعلاه لفتاة مسرنمة (سائرة في نومها) عمرها خمسة عشر عاماً ونصف، كانت تحت مراقبتي منذ ثلاثين عاماً، تظهر في مركزها "نبع طاقة الحياة" بدون امتداد، يتصادم في انبثاقاته بشكل مباشر مع مبدأ الفضاء المضاد - إنه تماثل تام مع الفكرة الأساسية للنص الصيني.

يُعبر عن "التطويق" أو الإحاطة في نصنا بفكرة الاستدارة. فالاستدارة ليست مجرد حركة في دائرة، بل تعني، من ناحية أولى، تحديد التخم المقدس، ومن الناحية الأخرى، التثبيت والتركيز. تبدو عجلة الشمس

بالدوران أي إن الشمس يتم تحريكها وتبدأ بأخذ مسارها، أو بعبارة أخرى، يبدأ الطاو بالعمل ويضطلع بالقيادة. يعكس الفعل إلى لا فعل؛ كل ما هو محيطي خاضع لما هو مركزي. لذلك يقال: "الحركة ليست سوى اسم آخر للسيادة". سايكولوجياً، هذه الاستدارة هي "الالتفاف في دائرة حول الذات"، الذي تصبح بموجبه كل جوانب الشخصية مشمولة بوضوح". إنها تجعل قطبي النور والظلام يدوران"، أي، يتناوب النهار والليل.

Es wech selt paradieshelle

Mit tiefer schauervoller Nacht[12]

لهذا فإن الحركة الدائرية تمتلك أيضاً الدلالة الأخلاقية لتفعيل كل قوى النور والظلام للطبيعة البشرية؛ ومعها، كل الأضداد السايكولوجية من أي نوع. إنها معرفة الذات بواسطة حضن الذات (في السنسكريتية تاباس Tapas). ثمة مفهوم نمطي بدئي مشابه للكينونة الكاملة هو مفهوم الإنسان الأفلاطوني، المدور من كل الجوانب ويوحد الجنسين داخل ذاته.

إن أحد أجمل الموازيات لما قيل هنا هو الوصف الذي قدمه إدوارد ميتلاند Edward Maitland معاون آنا كينغسفورد[13] Anna kingsford لتجربته الأساسية. فقد اكتشفت أنه في أثناء التأمل في فكرة، تصبح الأفكار المتصلة بها ظاهرة، إذا جاز القول، في سلسلة طويلة تعود ظاهرياً إلى مصدرها، الذي كان،بالنسبة له، هو الروح الإلهية. بواسطة التركيز على هذه السلسلة، حاول النفاذ إلى أصلها، إذ يقول: "كنت بشكل مطلق بلا معرفة أو توقع عندما استسلمت إلى الدافع إلى القيام بالمحاولة. لقد جربت على ملكة عقلية faculty وأنا جالس إلى طاولة الكتابة في تلك الأثناء لكي أسجل النتائج كما ترد، وقررت أن أحتفظ بسيطرتي على وعيي الخارجي والمحيطي، بغض النظر عن مدى ما يمكن أن أذهب نحو وعيي الداخلي

والمركزي. لأنني لم أكن أعرف ما إذا كان علي أن أكون قادراً على استعادة الأول [الوعي الخارجي] إذا تخليت مرة واحدة عن سيطرتي عليه، أو على استجماع حقائق التجربة. أخيراً حققت هدفي، وإنْ كان ذلك بجهد شديد، لكون التوتر الذي سببه السعي لإبقاء طرفي الوعي تحت النظر في الحال توتراً كبيراً جداً.

"حالما أنطلق جيداً بناء على طلبي، وجدت نفسي أجتاز سلسلة من الكرات أو السيور... الانطباع الذي يحدثه صعود سلم ضخم يمتد من محيط المنظومة الكونية إلى مركزها، كون المنظومات الثلاث مختلفة ومتطابقة بآن معاً...

في الوقت الحالي، بقدرة قادر أعلى، وبما شعرت أنه جهد أخير... نجحت في استقطاب مجمل الأشعة المتقاربة لوعيي إلى البؤرة المطلوبة. وفي اللحظة نفسها، كما لو أنه من خلال الاشتعال المفاجئ للأشعة المندمجة في وحدة، وجدت نفسي في مواجهة بهاء من البياض والسطوع اللذين لا يوصفان، واللمعان الشديد يكاد تقريباً أن يردني...... لكن رغم الشعور بأنني كان علي أن أتوغل أكثر، قررت أن أجعل الاطمئنان مؤكداً بشكل مضاعف بأن أتبين إن كان بمقدوري أن أخترق البريق الخاطف للبصر، ورؤية ما الذي كان يدخره. بجهد كبير نجحت، وكشفت النظرة لي أن ما شعرت به لابد أن يكون موجوداً. لقد كان الشكل الثنائي للابن..... الغامض جُعل جلياً، ما لا شكل له صار ذا شكل، اللامتفرد صار متفرداً، الله بوصفه الرب، يبرهن من خلال ثنائيته أن الله جوهر بالإضافة إلى كونه قوة، هو حب بالإضافة إلى كونه إرادة، مؤنثاً بالإضافة إلى كونه مذكراً، أُماً بالإضافة إلى كونه أباً". لقد وجد أن الله هو اثنان في واحد مثل الإنسان. إضافة إلى ذلك نلاحظ شيئاً يشدد عليه نصنا أيضاً، ألا وهو تعليق التنفس". فهو يقول بأن يوقف التنفس العادي ويستعاض عنه بتنفس

داخلي و"كما لو باستنشاق شخصية متميزة إلى الداخل وخلافاً للمتعضي الفيزيائي. لقد عد هذا الكائن الإنسان الكامل لدى أرسطو، والمسيح الداخلي للرسول بولس، الفردية الروحية والمادية المتولدتان ضمن الشخصية الفيزيائية والظاهرية، ويمثل، لذلك، إعادة ولادة الإنسان على مستوى يتجاوز المادة ".

هذه التجربة الأصيلة تحتوي على كل الرموز الأساسية لنصنا. فالظاهرة نفسها، أي رؤية النور، هي تجربة مشتركة بين كثير من الصوفيين، ولها بدون شك الأهمية الكبرى، لأنها تظهر في كل الأزمنة والأمكنة بوصفها الشيء اللاشرطي، الذي يوحد في ذاته أعظم طاقة وأعمق معنى. تعبر هيلدغارد أوف بينغن Hildegarde of Bingen، وهي شخصية بارزة تماماً بعيداً عن تصوفها، بنفسها عن رؤيتها المركزية بطريقة مشابهة، إذ تقول: "منذ طفولتي، كنت دائماً أرى نورا في روحي، لكن ليس بالعينين الخارجتين، وليس من خلال أفكار قلبي؛ ولم تشارك الحواس الخمس في هذه الرؤية....... النور الذي أدركه ليس من نوع محلي، بل هو أسطع بكثير من الغيمة التي تحمل الشمس.

لا يمكنني أن أميز فيه الارتفاع أو العرض أو الطول...... ما أراه أو أتعلمه في مثل هذه الرؤية يبقى طويلاً في ذاكرتي. أنا أرى، أسمع، وأعرف في اللحظة نفسها..... لا يمكنني أن أميز أي ضرب من الشكل في هذا النور، رغم أنني في بعض الأحيان أرى فيه نوراً آخر معروفاً لي بوصفه النور الإلهي....... وبينما أستمتع بمشهد هذا النور، يتلاشى كل الحزن والأسى من ذاكرتي.......".

أعرف أفراداً قلائل على اطلاع على هذه الظاهرة من التجربة الشخصية. وبقدر ما كنت قادراً على فهمها، يبدو أن للظاهرة علاقة بحالة وعي حادة، شديدة بقدر ما هي مجردة، ووعي "مفصول" (انظر أدناه)،

يرفع إلى المناطق الواعية من النفس البشرية أحداثاً تكون مغطاة بشكل عادي بالظلمة، كما تعلق هيلدغارد بشكل صائب.

إن حقيقة أن الإحساسات الجسدية العامة تختفي في أثناء مثل هذه التجربة، توحي بأن طاقتها النوعية قد سُحبت منها، وأنها كما يبدو قد ذهبت باتجاه تقوية نقاء الوعي. كقاعدة، فإن الظاهرة هي عفوية، تأتي وتذهب بمبادرتها الخاصة. إن تأثيرها مذهل في أنها تحقق بشكل شبه دائم حلاً للتعقيدات النفسية، وبذلك تحرر الشخصية الداخلية من التشابكات العاطفية الانفعالية والفكرية، خالقة بذلك وحدة وجود تكون ملموسة كونياً بوصفها "انعتاقاً".

لا يمكن للإرادة الواعية أن تحرز مثل هذه الوحدة الرمزية، لأن الوعي نصير في هذه الحالة. إن معارضه هو اللاوعي الجمعي الذي لا يفهم لغة الوعي. لذلك من الضروري امتلاك سحر الرمز الذي يحتوي على تلك التماثلات البدائية التي تخاطب اللاوعي. لا يمكن بلوغ اللاوعي والتعبير عنه إلا بالرموز، وهذا هو السبب في أن سيرورة التفرد لا يمكنها أبداً أن تستغني عن الرمز. فالرمز هو التعبير الرمزي عن اللاوعي، لكنه في الوقت نفسه هو أيضاً فكرة مقابلة لأرقى حدس نتيجة الوعي.

إن أقدم رسم مندالة معروف لي هو أداة حجرية قديمة تدعى "عجلة الشمس"، اكتشفت حديثاً في روديسيا. إنها نستند أيضاً على مبدأ الأربعة. فالأشياء التي تعود إلى الوراء كثيراً في التاريخ البشري تلامس بشكل طبيعي أعمق طبقات اللاوعي، وتؤثر على هذا الأخير حيث يكشف الكلام والخطاب الواعي نفسه أنه مهم تماماً. مثل هذه الأشياء لا يمكن تصورها، بل يجب أن تنمو مرة أخرى من الأعماق المنسية، إذا كان عليها أن تعبر عن أعمق تبصرات اللاوعي وأعلى حدوس الروح. وهي آتية من هذه الأعماق تمزج فرادة الحاضر مع الماضي القديم للحياة.

هوامش

(1). كذلك حسب الطريق، انظر ص (س. ف. ب.)

(2). الرأس هو أيضاً "مقر النور السماوي".

(3). في هوي مينغ تشينغ، يستخدم مصطلحا هسينغ (الطبيعة البشرية) وهوي (الوعي) بشكل متبادل (كلاهما ضدان لمصطلح مينغ (الحياة) لكنهما ليسا متطابقين (س. ف. ب.)

(4). ص 70.

(5). قارن مناقشتي في كتاب **الأنماط السايكولوجية**، الفصل 5، [لندن ونيويورك، 1923].

(6). من أجل مناقشة المندالة، انظر:

Heinrich Zimmer, Kunstform und Yoga im Indischen Kultbird, Frankfurt, Verlaganstalt, Berlin 1926; Mircea Eliade، Yoga: Immortality and Freedom, Bollingen Series, LVI, London and NewYork, 1958 (C.F. B.)

(7). قارن واليس بدج، آلهة المصريين، لندن، 1904.

(8). من أجل مسائل الروح، 1602، الترجمة الإنكليزية الأولى.

(9). قارن المفهوم الصيني للنور السماوي بين العينين.

(11). Matthews, The Mountain Chant, Fifth Annual Report of The Bureau of Ethnology, 1883 – 4, and Stevenson, Ceremonial of Hasjelti Dailjiis, Eighth Annual Report of the Bureau of Ethnology, 1886 - 7.

(10). نشرت مندالات مسرنم في الأعمال الكاملة في علم النفس التحليلي (من اجل الطبعة المنقحة من هذه المقالة، انظر: Psychiatric Studies, vol. I من الأعمال الكاملة ليونغ، ترجمة ر. ف. س. هل، سلسلة بولينغن، xx، لندن ونيويورك، 1957، س. ف. ب.).

(11). هوي مينغ تشينغ، ص 70.

(14). A. Avalon, The Serpent Power, London, 1931.

(12). انظر المجموعة الرائعة لكنوخل

E. F. knuchel, Die Umwandlung im Kult, Magic und Rechtsgebrauch, Basel, 1919

(13). و. ي. ايفانز- ونتز، كتاب الأموات التبتي، لندن، 1927.

(14). إشعاع الفردوس يتناوب مع الليل المفزع، العميق (فاوست)

(18). Anna Maitland, Anna Kingsford, Her Life, Letters, Diary, and Work, London, 1896.

انظر بشكل خاص الصفحة 129 وما بعد؛ أنا مدين بهذه الإحالة إلى زميلتي المحترمة، الدكتورة بياتريس هينكل، من نيويورك.

(15) . هذه التجارب أصيلة، لكن أصالتها لا تثبت أن كل الاستنتاجات أو القناعات التي تشكل سياقها هي سليمة بالضرورة. حتى في حالات الجنون يمر المرء بتجارب نفسية سليمة بشكل كامل. (الملاحظة الواردة أعلاه أضافها يونغ إلى الترجمة الإنكليزية الأولى).



ظاهـرات الـطريق

1 ـ تفكك الوعي

كلما قابل الوعي الفردي المحدود على نحو ضيق، لكن الواضح بشدة، الاتساع الهائل للاوعي الجمعي، فثمة خطر، لأن لهذا الأخير تأثيراً مفككاً لا ريب فيه على الوعي.

في الواقع، وفقاً لعرض الهوي مينغ تشينغ، يعود هذا التأثير إلى الظاهرات الخصوصية لممارسة اليوغا الصينية. إذ يقال هناك[1]: "كل فكرة مستقلة تأخذ شكلاً وتصبح مرئية في اللون والشكل، تكشف القدرة الروحية الكلية عن آثارها"[2]. يُظهر أحد الشروحات المرافقة للكتاب حكيماً غارقاً في التأمل، ورأسه محاط بألسنة النار التي تخرج منها خمسة أشكال بشرية؛ هذه الأشكال الخمسة تنقسم مرة أخرى إلى خمسة وعشرين شكلاً أصغر. وهذه ستكون سيرورة انفصامية schizophremic إذا كانت ستصبح حالة دائمة. لذلك تقول التعليمات، كما لو كانت تنذر النصير: "الأشكال التي تكونها نار الروح ليست سوى ألوان وأشكال فارغة. نور الطبيعة البشرية [هسينغ] يشع منعكساً على البدئي، الحقيقي".

هكذا يُفهم أن النص يعود إلى الشخصية الحارسة "للدائرة المطوقة". فالمقصود بها أن تمنع " الانسكاب" وتحمي وحدة الوعي من الانقسام عن طريق اللاوعي. علاوة على ذلك، يحدد المفهوم الصيني طريقاً نحو التقليل من التأثير المفكك للاوعي. إنه يصف "أشكال الفكر" أو الأفكار المستقلة" بوصفها "ألواناً وأشكالاً فارغة"، وذلك لإضعافها قدر الإمكان. هذه الفكرة تتخلل مجمل البوذية (وخصوصاً شكل المهايانا)، وفي التعليمات إلى الأموات في كتاب الأموات التبتي، حتى أنها تدفع إلى حد شرح الآلهة الإيجابية كما السلبية منها بوصفها توهمات لا يزال يتعين التغلب عليها. إنه بالتأكيد ليس من ضمن اختصاص عالم النفس أن يثبت الصدق الميتافيزيقي لهذه الفكرة أو كذبها؛ إذ يجب عليه أن يكتفي بأن يحدد، أينما كان ذلك ممكناً، ما الذي يمتلك تأثيراً نفسياً. بفعل ذلك، لا داعي لأن يزعج نفسه بما إذا كان الشكل قيد البحث هو وهم غامض أم لا، بما أن الإيمان، وليس العلم، هو الذي يتعين عليه أن يحسم هذه النقطة. إننا نعمل هنا في حقل كان يبدو لوقت طويل أنه خارج مضمار العلم، ولذلك كان ينظر إليه بوصفه وهمياً بالكامل.

لكن لا يوجد تبرير علمي لافتراض كهذا، لأن مادية هذه الأشياء ليست مشكلة علمية لأنها لن تكون بأي حال من الأحوال خارج مجال الإدراك والمحاكمة البشريين، وبالتالي خارج أية إمكانية للبرهان. إن عالم النفس ليس معنياً بجوهر هذه العقدة، بل بالخبرة النفسية. بلا شك إنها مضامين نفسية يمكن اختبارها، وتمتلك استقلالاً لا جدال فيه. إنها منظومات نفسية متشظية إما أن تظهر بشكل عفوي في حالات انتشائية وفي ظل ظروف معينة، وتخلق انطباعات وتأثيرات قوية، أو تصبح ثابتة بوصفها اضطرابات عقلية في شكل توهمات وهلوسات، محطمة بذلك وحدة الشخصية.

يكون الطبيب النفسي ميالاً إلى الإيمان بالذيفانات (التوكسينات)(*) وما شابه، وتفسير الشيزوفرينيا [انفصام العقل في الذهان] بهذه المصطلحات، ومن هنا عدم وجود أي تأكيد على المضامين النفسية. من الناحية الأخرى، في الاضطرابات ذات المنشأ النفسي (الهستيريا، عصاب القهر، إلخ.) حيث تكون الآثار السمية وتدهور الخلية خارج المسألة، تُصادَفُ عقد الانفصام العفوي، كما، على سبيل المثال، في الحالات السرنمية (السير في أثناء النوم). لقد كان فرويد يحب أن يفسر هذه [الحالات] على أنها تعزى إلى الكبت اللاوعي للجنسانية، لكن هذا التفسير ليس سارياً بأي شكل من الأشكال على كل الحالات، لأن المحتويات التي لا يتمكن الوعي من تمثلها يمكن أن تنشأ بشكل عفوي خارج اللاوعي، وفرضية الكبت غير ملائمة في مثل هذه الحالات. علاوة على ذلك، فإن الاستقلال الجوهري لهذه العناصر يمكن رصده في آثار الحياة اليومية التي تقحم نفسها بعناد ضد إراداتنا، ومن ثم، برغم جهودنا الجادة لكبتها، تتغلب على الأنا وتجبره على الخضوع لسيطرتها. لا عجب أن البدائي إما أن يرى في هذه الأمزجة حالة مس أو يعزوها إلى فقدان الروح. إن كلامنا العامي يعكس الشيء نفسه عندما نقول: "لا أعرف ما الذي أصابه اليوم"؛ "إنه ممسوس بالشيطان"؛ "إنه خارج نفسه [خارج عن طوره]؛ إنه يتصرف كما لو كان ممسوساً". حتى الممارسة القانونية تعترف بدرجة من المسؤولية المنقوصة في حالة التأثر. هكذا تكون المحتويات النفسية الاستقلالية خبرات مشتركة تماماً بالنسبة لنا. هذه المحتويات لها تأثير مدمر على المزاج الواعي.

(*). التوكسين أو الذيفان: هو مادة سامة تنتجها الخلايا الحية بداخلها (المترجم).

لكن إضافة إلى التأثيرات العادية المألوفة، ثمة حالات عاطفية أكثر تعقيداً، وأكثر دهاءً، لم يعد بالإمكان وصفها بأنها تأثيرات خالصة وبسيطة، بل هي منظومات نفسية متشظية معقدة. وكلما كانت أكثر تعقيداً، امتلكت خاصية الشخصيات. فهي بوصفها عوامل مكونة للشخصية النفسية المتشظية، تظهر بشكل خاص في الأمراض العقلية، في حالات الانفصام ذي المنشأ النفسي للشخصية (الشخصية المزدوجة)، وبالطبع في الظاهرات الوسطية. إنها تصادف أيضاً في الظاهرات الدينية. فالكثير من الآلهة القديمة قد تطوروا من "أشخاص" إلى أفكار مشخصة، وأخيراً إلى أفكار مجردة، لأن المحتويات اللاواعية المفعَّلة تظهر دائماً في البداية كإسقاطات على العالم الخارجي. في سياق التطور، يتمثلها الوعي تدريجياً بوصفها إسقاطات في الفضاء، ويعيد تشكيلها محولاً إياها إلى أفكار واعية تصادر عندئذ خصيصتها المستقلة أصلاً والشخصية. وكما نعرف، أصبح بعض الآلهة القدماء مجرد نعوت وصفية عن طريق علم التنجيم (شجاع / مارسي [مريخي]، مرح / جوبيتري [نسبة إلى جوبيتر: كوكب المشتري]، كئيب / زحلي، شهواني / إيروسي، عاقل، مجنون / قمري، وهلم جرا).

تمكننا تعليمات كتاب الأموات التبتي على وجه الخصوص من أن نرى إلى أي حد كبير يكون الوعي مهدداً بالتفكك من خلال هذه المجازات. مرة تلو الأخرى، يؤمر الأموات بألا يأخذوا هذه المجازات على أنها حقيقة، وألا يخلطوا مظهرها المظلم بالنور الأبيض الخالص للذارماكايا Dharmakaya (الجسد الإلهي للحقيقة). القصد هو أنهم ينبغي ألا يجسدوا النور الواحد للوعي الأعلى في أشكال مملمسة concretized، وبطريقة تحلله إلى مجموعة من المنظومات المفتتة المتشظية المستقلة.

لو لم يكن ثمة خطر في [حدوث] ذلك، ولو لم تكن هذه المنظومات تمثل نزعات مستقلة ومتباعدة على نحو مهدد، لما كانت هذه التعليمات الملحة ضرورية. إذا أخذنا في الاعتبار موقف العقل الشرقي الأبسط الموجّه نحو تعدد الآلهة، فإن هذه التعليمات تكاد تكون المكافئ للتحذيرات الموجهة إلى المسيحي بألا يدع نفسه يعميه توهم وجود إله / الله شخصي، ناهيك عن وجود ثالوث [الأب والابن والروح القدس] وملائكة وقديسين لا حصر لهم.

لو لم تكن النزعات نحو الانفصال متأصلة في النفس البشرية، لما انشطرت أجزاء [منها] أبداً؛ بعبارة أخرى، لما كانت الأرواح ولا الآلهة قد وجدت. هذا هو السبب، أيضاً، في أن زمننا كافر ووثني إلى هذا الحد، لأننا نفتقر إلى المعرفة بالنفس اللاواعية والسعي وراء عبادة الوعي [وصولاً] إلى استبعاد كل شيء آخر. إن ديننا الحقيقي هو توحيد monotheism الوعي، استحواذ به، مقروناً بإنكار تعصبي أن ثمة أجزاء من النفس تكون مستقلة. لكننا نختلف عن عقيدة اليوغا البوذية في أننا حتى ننكر أن هذه الأجزاء المستقلة هي صالحة للتجربة. ينشأ خطر نفسي كبير هنا، لأن الأجزاء عندئذ تتصرف مثل أية محتويات مكبوتة أخرى: إنها بالضرورة تستحث مواقف خاطئة، لأن المادة المكبوتة تظهر مرة أخرى في الوعي في شكل متحول. هذه الحقيقة، الصادمة للغاية في كل حالة عصاب، تصح أيضاً على الظاهرات النفسية الجمعية. وبهذا الخصوص فإن عصرنا واقع في خطأ قاتل: إننا نعتقد أن بإمكاننا أن ننتقد الحقائق الدينية فكرياً؛ فنحن نظن، على سبيل المثال، مثل لابلاس Laplace، أن الله فرضية يمكن إخضاعها للمعالجة الفكرية، أو الإثبات أو الإنكار. يُنسى كلياً أن السبب في أن الجنس البشري يؤمن بـ"الروح الحارسة / العفريت" لا

علاقة له بالعوامل الخارجية، بل يعزى إلى الإدراك البسيط للتأثير الداخلي الباطني القوي للمنظومات المتشظية / المستقلة. هذا التأثير لا ينفيه انتقاد اسمه فكرياً، ولا بوصفه بأنه زائف. فالتأثير يكون موجوداً دائماً بشكل جمعي؛ والمنظومات المستقلة تعمل دوماً، لأن البنية الأساسية للاوعي لا تمسها تذبذبات وعي انتقالي.

إذا أنكرنا وجود المنظومات المستقلة، متصورين أننا قد تخلصنا منها بنقد الاسم، عندئذ لا يمكن فهم تأثيرها الذي يستمر مع ذلك، ولا يعود بالإمكان تمثلها في الوعي. إنها تصبح عامل اضطراب لا يمكن تفسيره، ونفترض في النهاية أنه يجب أن يوجد في مكان أو آخر خارج ذواتنا. بهذه الطريقة، يحدث إسقاط للمنظومات المفتتة المستقلة، وفي الوقت نفسه يتم خلق وضع خطير، لأن التأثيرات المزعجة تعزى الآن إلى الإرادة السيئة خارج ذواتنا التي لا توجد بالطبع في أي مكان بل في جوارنا على الضفة الأخرى من النهر (de l'autre cote de la riviere). هذا يقود إلى توهم جمعي، و"أحداث"، وحرب، وثورة، بكلمة، إلى ذُهانات جماعية تدميرية.

إن الجنون هو مس عن طريق محتوى لا واعٍ لا يتم تمثله، هكذا، إلى داخل الوعي؛ ولا يمكن تمثله، نظراً إلى أن العقل الواعي قد أنكر وجود مثل هذا المحتوى. هذا الموقف، معبراً عنه بلغة الدين، هو مكافئ للقول: "لم يعد لدينا أي خوف من الله، ونعتقد أنه يجب الحكم على كل شيء بمعايير بشرية". هذه العجرفة، أي هذا الضيق في الوعي، هي دوماً أقصر الطرق إلى مشفى المجانين. أوصي بالتقديم الممتاز لهذه المسألة في رواية والد كريستينا ألبرتا، من تأليف هـ. ج. ويلز، ورواية[3] *Denkwürdigkeiten eines Nerven kranken* من تأليف شربر Schreber.

إن الأوروبي المتنور من المحتمل أن ينفرج عندما يقال في الهوي مينغ تشينغ إن "الأشكال التي تشكلها الروح - النار ليست سوى ألوان وأشكال فارغة".

هذا يردد صدى أوروبياً تماماً ويبدو أنه يلائم عقلنا بشكل ممتاز. بالفعل، نعتقد أن بمقدورنا أن نتملق أنفسنا بكوننا قد بلغنا هذه المستويات العالية من الوضوح، لأننا نتخيل أننا قد خلفنا وراءنا هذه الأشباح الآلهة. لكن ما تجاوزناه ليس سوى أطياف الكلمات، وليس الحقائق النفسية التي كانت مسؤولة عن ولادة الآلهة. فنحن لا زلنا تستحوذ علينا محتوياتنا النفسية المستقلة كما لو كانت آلهة. إنها تدعى اليوم رُهابات Phobias، ودوافع قهرية، وهلم جرا، أو بكلمة، أعراضاً عُصابية. فالآلهة قد أصبحت أمراضاً؛ لم يعد زيوس يحكم أوليمبوس بل الضفيرة الشمسية، ويخلق العينات لأجل غرفة الطبيب، أو يشوش أدمغة السياسيين والصحفيين الذين يطلقون العنان بشكل غير متعمد للأوبئة العقلية.

هكذا يكون من الأفضل للإنسان الغربي، لو كان لا يعرف في البداية أكثر مما ينبغي حول البصيرة السرية للحكماء الشرقيين، لأنها عندئذ ستكون حالة من حالات "الوسيلة الصحيحة في يدي الإنسان الخطأ". بدلاً من أن يسمح الغربي لنفسه أن يقتنع مرة أخرى بأن يجرب حقيقة هذا الوهم، ينبغي عليه أن يتعلم أن يميز هذه القوى النفسية مرة أخرى، وألا ينتظر حتى تكشف له أمزجته وحالاته العصبية وهلوساته بالطريقة الممكنة الأكثر إيلاماً أنه ليس السيد الوحيد في بيته. إن نواتج نزعات الانفصال هي شخصية نفسية فعلية لواقع نسبي. فهي واقعية عندما لا يُعترف بها هكذا، ولذلك يتم إسقاطها؛ وهي واقعية نسبياً عندما تكون مرتبطة بالوعي (بالمصطلحات الدينية، عندما توجد العبادة)؛ لكنها غير واقعية إلى حد أن الوعي قد بدأ ينفصل عن محتوياته.

على كل، يكون الأخير هو الحال عندما تكون الحياة قد عيشت بشكل مستنفد للغايّة، وبمثل هذا التكريس، بحيث لا توجد أية التزامات أخرى غير موفى بها للحياة، عندما، بالتالي، لا توجد رغبات، لا يمكن التضحية بها بلا تردد، تقف في طريق الانفصال الداخلي عن العالم. من غير المجدي أن نكذب على أنفسنا حول ذلك. حيثما نكون لا زلنا معلقين، نكون لا زلنا مستحوَذين؛ وعندما يكون المرء مستحوَذاً، فهذا يعني وجود شيء ما أقوى منه. ("حقاً من ذلك المكان لن تأتي أبداً حتى تكون قد دفعت آخر فارز (فلس)"). إنها ليست مسألة لا مبالاة فيما إذا كان المرء يدعو شيئاً ما "هوساً mania أم إلهاً. إن خدمة الهوس مقيتة وغير مبجلة، أما خدمة إله فهي بلا جدال أكثر معنى وأكثر مردوداً لأنها تعني فعل خضوع لكائن روحي أسمى. إن التشخيص يمكن المرء من رؤية الحقيقة النسبية للمنظومة المتشظية النفسية المستقلة، وبذلك يجعل تمثلها ممكناً ويضعف قوى القدر. فحيثما لا يُعترف بالإله ينشأ الهوس بالأنا، ومن هذا الهوس يأتي المرض.

يسلم تعليم اليوغا جدلاً بالاعتراف بالآلهة. لذلك فإن إرشاده السري مخصص فقط لأجل من يكون نور وعيه على نقطة فصل اشتباك ذاته عن قوى القدر، لكي يدخل إلى الوحدة اللامجزأة المطلقة، إلى "مركز الفراغ"، حيث "يسكن إله الفراغ الأقصى والحياة"، كما يقول نصنا. "إن سماع مثل هذا التلقين من الصعب تحقيقه في آلاف الدهور". من الواضح أن حجاب المايا لا يمكن رفعه بمجرد قرار من العقل، بل يتطلب أتم الاستعداد وأقصى الحرص اللذين يقومان على الإيفاء التام لكل الديون [المستحقة] للحياة. لأنه طالما وجد التعلق غير الشرطي من خلال الشهوة، فإن الحجاب لا يُرفع، وقمم الوعي الحالي من المحتويات والخالي من الوهم لا يتم بلوغها؛ ولا يمكن لأية صلة ولا لأية خدعة أن تحقق ذلك. إنه

مثال لا يمكن تحقيقه بالكامل إلا في الموت. حتى ذاك الوقت توجد أشكال واقعية وواقعية نسبياً من اللاوعي.

2 ـ الأنيموس والأنيما

وفقاً لنصنا، من بين أشكال اللاوعي لا توجد الآلهة فقط، بل الأنيموس والأنيما أيضاً. إن كلمة هون hun يترجمها فيلهلم بالأنيموس. بالفعل، يبدو مفهوم "أنيموس" ملائماً لأجل هون. فالحرف الذي يرمز إليه مكون من حرف "الغيوم" ورمز "العفريت". هكذا يعني هون "عفريت الغيوم"، وهو "روح" ينتمي إلى مبدأ اليانغ وبالتالي فهو مذكر. بعد الموت، يرتفع الهون نحو الأعلى ويصبح شن shen، الروح أو الإله "المتسع والكاشف عن ذاته". إن الأنيما، التي تدعى بو P'o، وتكتب بالأحرف التي ترمز إلى "الأبيض" و"العفريت"، أي "الشبح الأبيض"، ينتمي إلى النفس الجسدية المقيدة بالأرض، مبدأ البين. ولذلك فهو مؤنث. بعد الموت، يهبط نحو الأسفل ويصبح كوي Kuei (العفريت)، الذي يفسر غالباً بمعنى "الذي يعود" (أي إلى الأرض). العائد بعد الموت، الشبح. تُظْهِر حقيقة أن الأنيموس والأنيما يفترقان بعد الموت ويمضيان في طريقهما بشكل مستقل أنهما، بالنسبة للوعي الصيني، "عاملان نفسيان لا يمكن تمييزهما، لهما تأثيران مختلفان بشكل ملحوظ، ورغم حقيقة أنهما أصلاً متحدان في "الطبيعة البشرية الحقيقية، الفعالة الواحدة"، في "بيت الخلاق"، فإنهما اثنان. "الأنيموس هو في القلب السماوي". "الأنيموس يسكن في النهار في العينين (أي في الوعي)؛ وفي الليل يسكن في الكبد". إن "ما تلقيناه من الفراغ العظيم، متطابق في الشكل مع البداية البدئية". أما الأنيما، من

الناحية الأخرى، فهي "طاقة الثقيل والعكر"؛ إنه يتعلق بالقلب اللحمي، الجسدي. "الرغبات والدوافع إلى الغضب" هي تأثيراته. "من يكون كئيباً ونكداً عند الاستيقاظ يكون مقيداً من قبل الأنيما".

منذ سنوات عديدة، قبل أن يطلعني فيلهلم على نصه، استخدمت مفهوم "أنيما"[4] بطريقة مماثلة تماماً للتعريف الصيني لـ بو، ولكنها بالطبع بعيدة كلياً عن أي مقدمة ميتافيزيقية. بالنسبة لعالم النفس، ليست الأنيما كائناً متعالياً بل شيئاً يقع ضمن مجال الخبرة تماماً. لأنه كما يبين التعريف الصيني أيضاً، فإن الشروط العاطفية هي خبرات آنية. لكن لماذا يتكلم المرء إذاً عن الأنيما وليس ببساطة عن الأمزجة؟ السبب هو أن للعواطف خصيصة مستقلة، ولذلك فإن معظم الناس يكونون تحت سلطتها. لكن، كما رأينا، فإن العواطف هي محتويات للوعي قابلة للتحديد، أجزاء من الشخصية. فهي كأجزاء من الشخصية، تشترك بخصيصتها ولذلك يمكن تشخيصها بسهولة، وهي سيرورة لا تزال جارية إلى يومنا هذا، كما أظهرت الأمثلة المذكورة أعلاه. ليس التشخيص بسهولة، وهي سيرورة لا تزال جارية إلى يومنا هذا، كما أظهرت الأمثلة المذكورة أعلاه. ليس التشخيص اختراعاً تافهاً، طالما أن الفرد الذي تحركه العاطفة لا يبدي خصيصة حيادية، بل خصيصة متميزة تماماً، مختلفة عن خصيصته العادية.

لقد بين الاستقصاء الدقيق أن للخصيصة العاطفية في الإنسان سمات أنثوية. هذه الحقيقة السايكولوجية قد ولدت التلقين الصيني لروح بو، إضافة إلى مفهومي للأنيما. يكشف الاستبطان الأعمق، أو الخبرة الانتشائية، عن وجود شخصية أنثوية في اللاوعي، وبالتالي الاسم المؤنث،

أنيما، نفس بشرية أو روح. يمكن تعريف الأنيما أيضاً بوصفها ايماجو(*) أو طراز أصلي archetype، أو بوصفها حصيلة كل خبرات الرجل مع المرأة. هذا هو السبب في أن الأنيما، كقاعدة، يتم إسقاطها على المرأة. وكما نعرف، فإن الشعر غالباً ما وصف الأنيما ومجدها[5]. إن ربط الأنيما بالشبح بالمفهوم الصيني هو ذو أهمية بالنسبة لعلماء الباراسيكولوجيا بقدر ما تكون "التحكمات" هي في غالبيتها من الجنس المضاد.

رغم أن ترجمة فيلهلم للهون hun بمعنى "أنيموس" تبدو مبررة بالنسبة لي، فلدي مبررات هامة لاختيار "لوغوس" من أجل روح الرجل، بسبب الوضوح الذكوري للوعي والعقل، بدلاً من التعبير الملائم من نواح أخرى، "أنيموس". إن الفلاسفة الصنينن معفيون من بعض المصاعب التي تثقل كاهل علماء النفس الغربيين، لأن الفلسفة الصينية، مثل كل النشاط العقلي والروحي للعصور القديمة، هي مكون حصري من مكونات العالم الذكوري. إن مفاهيمها لا تؤخذ من الناحية السايكولوجية أبداً، ولذلك لم تختبر إلى أي مدى تنطبق على النفس البشرية الأنثوية. لكن عالم النفس ربما لا يستطيع أن يتجاهل وجود المرأة وسايكولوجياها الخاصة. إن أسباب تفضيلي لترجمة الهون باللوغوس، كما يظهر لدى الرجل، ترتبط بهذه الحقيقة.

يستعمل فيلهلم في ترجمته اللوغوس كمقابل للمفهوم الصيني هسينغ، الذي يمكن ترجمته بمعنى جوهر [الطبيعة البشرية]، أو الوعي الخلاق. بعد الموت يصبح هون شن shen، روح، الذي هو قريب جداً، بالمعنى الفلسفي، إلى هسينغ. وبما أن المفاهيم الصينية ليست منطقية بمفهومنا،

(*). الايماجو imago: صورة ذهنية عن شخص أو عن النفس تتسم بالتقديس والإعجاب الشديد. (المورد). م.

بل هي أفكار حدسية، فإن معناها لا يمكن سبره إلا من خلال الطرق التي تستعمل بها، وبملاحظة تكوين الحرف المكتوبة، أو بالأحرى، ارتباطات مثل علاقة الهون بشن. فالهون، إذاً، سيكون النور الكاشف للوعي وللعقل لدى الرجل، الآتي أصلاً من logos spermatikos الهسينغ، والعائد بعد الموت من خلال شن إلى الطاو. من أجل هذا الاستعمال، ينبغي أن يكون التعبير "لوغوس" ملائماً بشكل خاص، نظراً إلى أنه يتضمن فكرة الكائن الكوني، ولذلك يغطي حقيقة أن وضوح الرجل وأهليته لأجل العقل هما كونيان أكثر من كونهما شيئاً فريداً بشكل فردي؛ علاوة على ذلك فهو ليس شخصياً، بل هو لا شخصي بالمعنى الأعمق للكلمة، ولذلك فهو في تباين حاد مع الأنيما، التي هي عفريت شخصي يعبر عن نفسه بأمزجة شخصية كلياً (وبالتالي بحقد!)

بدراسة هذه الحقائق السايكولوجية، احتفظت بمصطلح "أنيموس" لأجل النساء حصراً، لأنه يجيب على السؤال الشهير هل فاقد الشيء يعطيه. يحتوي علم النفس الأنثوي على عنصر مماثل لأنيما الرجل. في المقام الأول، إنه ليس طبيعة عاطفية بل عنصر شبه فكري، من الأفضل وصفه بكلمة تحامل. إن الجانب الواعي من المرأة يقابل الجانب العاطفي من الرجل، وليس "عقله". العقل يكوّن / "النفس / الروح"، أو بالأحرى، "أنيموس" المرأة، ومثلما أن أنيما الرجل تتألف من أحكام دونية، أو من الأفضل أن تقول آراء. (من أجل مزيد من التفاصيل يجب أن أحيل القارئ إلى المقالة المستشهد بها أعلاه، لأنني هنا لا يمكنني سوى الانكباب على المظاهر العامة). يقوم أنيموس المرأة على مجموع آراء مسبقة التصور، ولذلك لا يكون قابلاً للتشخيص عن طريق شخصية واحدة، بل يظهر غالباً كجماعة أو كحشد. (المثال الجيد على ذلك من الباراسيكولوجيا هو ما يدعى مجموعة / جماعة "الامبراطور" في حالة السيدة بايبر)[6]. على

مستوى أدنى، يكون الأنيموس لوغوساً دونياً، كاريكاتوراً للعقل الذكري المتمايز، مثلما أن الأنيما، على مستوى أدنى، هي كاريكاتور للإيروس الأنثوي. وبمتابعة المزيد من التوازي، يمكننا القول إنه، مثلما أن الهون يقابل الهسينغ، الذي يترجمه فيلهلم باللوغوس، كذلك فإن إيروس المرأة يقابل المينغ، الذي يترجم بالقدر، Fatum، المصير، ويفسره فيلهلم بوصفه إيروساً. فالإيروس تناسج؛ اللوغوس معرفة ممايزة، نور موضح كاشف؛ الإيروس ارتباط؛ اللوغوس تمييز وفصل. هكذا يظهر اللوغوس الدوني في أنيموس المرأة بوصفه شيئاً غير متصل تماماً، وبالتالي كتحامل / حكم مسبق / متعذر التأثير فيه، أو كرأي، على نحو مغضب كفاية، لا علاقة له بالطبيعة الجوهرية للموضوع.

غالباً ما وُبختُ بسبب تشخيص الأنيما والأنيموس كما تفعل الميثولوجيا، لكن هذا التوبيخ كان مبرراً فقط لو برهن أنني في استعمالي السايكولوجي لهذين المصطلحين إنما أملسهما بنفس الطريقة التي تملسهما بها الميثولوجيا. يجب أن أعلن مرة وإلى الأبد أن التشخيص ليس من اختراعي، بل هو متأصل في طبيعة الظاهرات. سيكون منافياً للعلم أن أتجاوز حقيقة أن الأنيما هي خارقة للطبيعة، وبالتالي فهي منظومة شخصية مستقلة. لا أحد من الأشخاص الذين يتهمونني سيتردد ثانية واحدة في القول: "حلمت بالسيد إكس"، في حين أنه، ولنتكلم "على نحو صارم" كان يحلم فقط بتمثيل السيد إكس. ليست الأنيما سوى تمثيل للطبيعة الشخصية للمنظومة المستقلة قيد البحث. لا يمكننا أن نعرف ما هي طبيعة هذه المنظومة المستقلة بمعنى متعالٍ، أي، خارج حدود الخبرة.

لقد عرَّفْتُ الأنيما لدى الرجل بأنها تشخيص للاوعي عموماً، ولذلك اعتبرتها جسراً إلى اللاوعي، أي، لتكون وظيفة الارتباط باللاوعي. ثمة نقطة مثيرة للاهتمام في نصنا بهذاالخصوص. فالنص يقول إن [حالة]

الوعي (أي، الوعي الشخصي) تأتي من الأنيما. بما أن العقل الغربي يتأسس بالكامل على موقف الوعي، فيجب عليه أن يعرف الأنيما بالطريقة التي عرفتها بها، لكن الشرق، المستند كما هو الحال على موقف اللاوعي، يرى الوعي كأثر للأنيما. بلا شك، إن الوعي ينشأ أصلاً من اللاوعي. وهذا شيء ننساه غالباً، ولذلك فنحن نحاول دائماً أن نماهي النفس البشرية بالوعي، أو على الأقل نحاول أن نصور اللاوعي بوصفه مشتقاً، أو أثراً للوعي (كما، على سبيل المثال، في نظرية الكبت الفرويدية). لكن للسبب المذكور أعلاه، من الضروري ألا يُستبعد شيء من واقع اللاوعي، وأن أشكال اللاوعي ينبغي أن تفهم بوصفها كميات فاعلة. إن الشخص الذي فهم ما هو المقصود بالواقع النفسي لا داعي لأن يكون لديه أي خوف من أن يكون قد سقط في عالم العفاريت البدائي. في الواقع إذا لم تؤخذ الأشكال اللاواعية على محمل الجد بوصفها عوامل فاعلة بشكل عفوي، فسوف نصبح ضحايا لإيمان أحادي الجانب بالعقل الواعي، يقود في النهاية إلى حالة من التوتر المفرط. عندئذ تكون الكوارث محتمة الحدوث، لأنه، رغم كل وعينا، فإن القوى النفسية المظلمة يكون قد تم تجاهلها. فلسنا نحن من نشخصها؛ إذ أنها تمتلك طبيعة شخصية من البداية. عندما نعترف بذلك اعترافاً كلياً فقط يمكننا أن نفكر بنزع التشخيص عنها، أن نفكر "بإخضاع الأنيما"، كما يعبر نصنا عن ذلك.

هنا نجد مرة أخرى اختلافاً كبيراً بين البوذية وموقف عقلنا الغربي، ومرة أخرى ثمة شكل خطير من التوافق. ترفض تعاليم اليوغا كل محتويات الاستيهام ونحن نفعل ذلك، لكن الشرق يفعل ذلك على أسس مختلفة تماماً. في الشرق، تسود التصورات والتعاليم التي تعبر عن الاستيهام الخلاق بأغنى المعايير؛ في الحقيقة، إن الحماية مطلوبة ضد فرط

الاستيهام. أما نحن، من الناحية الأخرى، فننظر إلى الاستيهام بوصفه حلم يقظة ذاتي، عديم القيمة.

من الناحية الطبيعية فإن أشكال اللاوعي لا تظهر كتجريدات مجردة من كل الزخارف التخيلية. على العكس، تكون محشوة ومشبوكة في شبكة من الاستيهامات من تنوع استثنائي وبوفرة مذهلة. يمكن للشرق أن يرفض هذه الاستيهامات لأنه منذ زمن طويل استخلص جوهرها وكثفه في تعاليم عويصة. أما نحن فلم نجرب حتى هذه الاستيهامات، وقلما استخلصنا جوهرها. هنا لدينا قسم كبير من التجربة لنلتقطه، وفقط عندما نكون قد وجدنا المعنى في اللامعنى يمكننا أن نفصل ما هو ذو قيمة عن عديم القيمة. يمكننا أن نرتاح مطمئنين إلى أن ما نستخلصه من تجاربنا سيختلف عما يقدمه الشرق لنا اليوم. فالشرق جاء إلى معرفته بالأشياء الباطنية في الجهل النسبي بالعالم الخارجي. أما نحن، من الناحية الأخرى، فسوف نستقصي النفس البشرية وأعماقها مدعومين بمعرفة تاريخية وعلمية واسعة بشكل هائل. في هذه اللحظة، فإن المعرفة بالعالم الخارجي هي أكبر عائق أمام الاستبطان، لكن المحنة السايكولوجية سوف تتغلب على كل الإعاقات. لقد كنا حتى الآن نبني علم نفس، أي علماً يعطينا مفتاحاً إلى الأشياء الذي وجد الشرق مدخلا إليها، من خلال حالات نفسية شاذة فقط.

هوامش

(1). ص. 76.

(2). Cf. الذكريات المتكررة للتجسدات الأبكر التي تنشأ أثناء التامل.

(3). Mutze, Leipzig

(4). أحيل القاريء إلى العرض الشامل في كتابي، مقالتان في علم النفس التحليلي (ترجمه إلى الإنكليزية ر. ف. س. هل، سلسلة بولينغن XX، لندن ونيويورك، 1953، س. ف. ب.).

(5). الأنماط اسايكولوجية، الفصل الخامس، لندن ونيويورك، 1923.

(6). قارن هايسلوب، العلم وحياة المستقبل

Science and a Future Life, Boston, 1905.

انفصال الوعي عن الموضوع



بفهم اللاوعي نحرر أنفسنا من سيطرته. هذا هو في الواقع الغرض أيضاً من الإرشادات في نصنا. فالتلميذ يُعلَّم أن يركز على نور المنطقة الأعمق ويُعلَّم، أثناء القيام بذلك، أن يحرر نفسه من كل التعقيدات الخارجية والداخلية. يوجه دافع حياته نحو وعي بلا محتوى يسمح مع ذلك لكل المحتويات أن توجد. يقول الهوي مينغ تشيغ حول هذا الانفصال:

"هالة من النور تحيط بعالم القانون.
ننسى أحدنا الآخر، هادئاً ونقياً، قوياً وفارغاً.
الفراغ يشع بنور قلب السماء
ماء البحر أملس ويعكس القمر على وجهه
الغيوم تختفي في الفضاء الأزرق؛ الجبال تتألق صافية.
الوعي يعود إلى التأمل؛ قرص القمر يستريح وحده.

يصور هذا الوصف للتنفيذ حالة نفسية ربما كان من الأفضل توصيفها بأنها انفصال الوعي عن العالم وانسحاب منه إلى نقطة خارج العالم

الخاوي، إذا جاز القول. هكذا يكون الوعي في الوقت نفسه فارغاً وليس فارغاً، إذ لا يعود مشغولاً بصور الأشياء بل يحتويها فقط. إن امتلاء العالم الذي ضغط سابقاً على الوعي لم يفقد شيئاً من غناه وجماله، إلا أنه لم يعد يسيطر على الوعي. لقد توقف الادعاء السحري للأشياء، لأن التناسج الأصلي للوعي مع العالم قد وصل إلى نهايته. الوعي لم يعد الوعي مسقطاً، وهكذا تبطل المشاركة الصوفية البدئية مع الأشياء. لذلك لا يعود الوعي مشغولاً بالرغبات القهرية بل يتحول إلى رؤية، كما يقول النص الصيني بشكل ملائم جداً.

هل تحقق هذا التأثير؟ (نفترض، بالطبع، أن المؤلف الصيني لم يكن قبل كل شيء كذاباً؛ ثانياً، أنه كان ذا عقل سليم، وثالثاً، أنه كان رجلاً ذكياً بشكل استثنائي). لفهم أو شرح الانفصال الموصوف في النص تتطلب ذهنيتنا مقاربة ملتوية إلى حد ما. إذ لا فائدة في تقليد الحساسية الشرقية؛ لأن لا شيء سيكون أكثر طفولية من الرغبة في تجميل حالة نفسية كهذه. إنني قد ألفت هذا الانفصال في ممارستي [الطبية]؛ إنه التأثير العلاجي therapeautic بامتياز، لأن ما أعالجه مع طلابي ومرضاي، هو، تفكيك المشاركة الصوفية. بضربة عبقرية، أثبت ليفي - بروهل[1] أن المشاركة الصوفية هي السمة المميزة البدائية. وكما وصفها فإنها ببساطة البقية الكبيرة بشكل غير محدود من عدم التمايز بين الذات والموضوع، والتي لا تزال كبيرة للغاية بين البدائيين إلى حد أنها لا تفشل في صدم الإنسان الأوروبي، الذي يتم تعريفه على أنه مع الموقف الواعي. طالما أن الاختلاف بين الذات والموضوع لم يصبح واعياً، فإن الهوية اللاواعية هي التي تسود. فاللاوعي يتم إسقاطه إذاً في الموضوع، والموضوع يتم تشريبه في الذات، أي تتم سكلجته [نفسنته] psychologized. إن النباتات والحيوانات إذاً تتصرف مثل البشر. البشر هم في الوقت نفسه بشر وحيوانات أيضاً، وكل

شيء حي مع الأشباح والآلهة. من الناحية الطبيعية، يعتبر الإنسان المتحضر نفسه فوق هذه الأشياء بشكل لا يقاس. بدلاً من ذلك، في أغلب الأحيان يُعرف بوالديه طوال حياته، أو يعرف بعواطفه وتحاملاته [أحكامه المسبقة] ويتهم الآخرين بلا حياء بأشياء لا يراها في نفسه. باختصار، حتى لو كان مُبتلى ببقية من لا وعي بدئي، أو عدم تمايز بين الذات والموضوع. إنه بفضل هذا اللاوعي، يُستعبد من قبل أشخاص وأشياء وظروف لا حصر لهم ولها، أي يتأثر بشكل لا شرطي. إن عقله يكون، تقريباً بقدرِ ما يكون عقل البدائي مليئاً بمحتويات مشوشة، ويستعمل القدر نفسه تماماً من التعاويذ الطاردة للأرواح الشريرة . فهو لا يعود يمارس السحر بحقائب الأدوية والتمائم والأضاحي الحيوانية، بل بعلاجات الأعصاب والعُصابات و"التقدم"، وعبادة الإرادة وهلم جرا.

لكن إذا كان بالإمكان التعرف على اللاوعي بوصفه كماً محدداً مشتركاً بالتوازي مع الوعي، وإذا كان بإمكاننا أن نعيش بمثل هذه الطريقة، بحيث نمنح المطالب الواعية واللاواعية، أو الغريزية الاعتراف قدر الإمكان، فإن مركز جاذبية الشخصية الإجمالية يزيح موقعه. إنه يكف عن أن يكون في الأنا، الذي هو مجرد مركز الوعي، وبدلاً من ذلك يحدد موقعه في نقطة افتراضية بين الوعي واللاوعي، يمكن أن نسميها النفس / الذات self. إذا نجح مثل هذا الانتقال، فإنه يؤدي إلى التخلص من المشاركة الصوفية، وتنشأ شخصية تعاني فقط في الطبقات الدنيا، إذا جاز القول، أما في الطبقات العليا فإنها تكون مفصولة بشكل فريد عن الأحداث المؤلمة كما عن الأحداث المبهجة.

إن خلق وولادة هذه الشخصية الفوقية هما ما يعنيه نصنا عندما يتكلم عن "الثمرة المقدسة" أو "الجسد الماسي" أو عندما يشير بطرق أخرى إلى جسد لا يمكن إفناؤه.

هذه التعبيرات ترمز سايكولوجياً إلى موقف خارج مطال الانغماس العاطفي الشديد، ولذلك فهو آمن من الصدمة المطلقة؛ إنها ترمز إلى وعي مفصول عن العالم. إن لدي مبررات لأجل الاعتقاد بأن هذا يبدأ بعد منتصف الحياة، وهو في الواقع استعداد طبيعي للموت. فالموت بالنسبة إلى النفس البشرية هو بنفس أهمية الولادة تماماً، وهو، مثلها، جزء لا يتجزأ من الحياة. إن ما يحدث للوعي المفصول في النهاية هو سؤال يتوقع من عالم النفس أن يجيب عليه. ومهما كان الموقف النظري الذي يتبناه، فإنه سوف يتخطى بشكل يائس الحدود التي وضعها له العلم. إذ لا يمكنه سوى أن يكتشف أن رؤى نصنا بخصوص لازمانية الوعي المفصول هي متناغمة مع الفكر الديني لكافة الأزمنة، ومع فكر الأغلبية الساحقة من الجنس البشري. فالشخص الذي يفكر بشكل مختلف سيقف خارج النظام البشري بطريقة ما، ولذلك سيعاني من توازن نفسي مختل. لهذا، فإنني، بوصفي طبيباً، أبذل جهداً كبيراً لتقوية الإيمان بالخلود قدر المستطاع، خصوصاً لدى مرضاي الأكبر سناً، الذين تعتبر هذه المسائل حاسمة بالنسبة إليهم. إن الموت، إذا نظر إليه بشكل صحيح بالمعنى السايكولوجي، ليس نهاية، بل هو غاية، ولذلك فإن الحياة باتجاه الموت تبدأ حالما يتم عبور خط المنتصف.

تقوم فلسفة اليوغا الصينية على حقيقة هذا الاستعداد الغريزي للموت بوصفه هدفاً، ومنتصف العمر بعد المقارنة مع هدف النصف الأول من الحياة، أي الإنجاب والتكاثر، بوصفه الوسيلة نحو تأبيد الحياة الجسدية / المادية التي تتخذ هدفاً للوجود الروحي الإنجابَ والولادة الرمزيين لروح ـ جسد نفسي (الجسد المرهف)، يضمن استمرارية الوعي المفصول. إن الإنسان الهوائي، المعروف للأوروبي منذ العصور القديمة، الذي يسعى، مع ذلك إلى إنتاجه عن طريق رموز أخرى تماماً وممارسات سحرية،

بالإيمان وبطريقة مسيحية في المسيحية. هنا مرة أخرى نقف على أساس مختلف تماماً عن أساس الشرق. مرة أخرى يطن النص كما لو كان غير بعيد جداً عن الأخلاقية الزهدية الصينية، لكن لا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأً من افتراض أنه يتعامل فعلاً مع الشيء نفسه. إن خلفية نصنا هي ثقافة عمرها آلاف السنوات، ثقافة قامت أصلاً على غرائز بدائية، ولذلك لا تعرف شيئاً من الأخلاقية التعسفية التي تنتهك الغرائز المميزة لنا بوصفنا بربريين تيوتونيين متحضرين حديثاً. لهذا السبب فإن الصينين هم بدون ذاك الدافع نحو الكبت العنيف للغرائز الذي يبالغ بشكل هستيري ويسمم روحانيتنا. فالإنسان الذي يعيش غرائزه يمكنه أيضاً أن ينفصل عنها، وبطريقة طبيعية مثلما يعيشها تماماً. إن أية فكرة عن غزو الذات البطولي سيكون غريباً تماماً على فحوى نصنا، لكن هذا ما سنرقى إليه بالتأكيد لو اتبعنا التعليمات الصينية حرفياً.

يجب ألا ننسى أبداً مقدماتنا التاريخية. منذ أكثر قليلاً من ألف سنة سرنا بتعثر من أفج بدايات الشركية / تعدد الآلهة/ إلى خضم ديانة شرقية عالية التطور، ارتقت بالعقول التخيلية لأنصاف المتوحشين إلى ذروة لم تكن توازي درجة تطورهم الروحي. للمحافظة على هذا المستوى بشكل أو بآخر، كان لا بد من كبت هذه المنطقة الغريزية بشكل حتمي. هكذا اتخذت الممارسة والأخلاقية الدينيتان صفة عنيفة بشكل ملحوظ، شبه شريرة. إن العناصر المكبوتة لا تتطور بشكل طبيعي، بل تنبت أكثر ببربريتها الأصلية في اللاوعي. كنا نود أن نصل إلى ذرى دين فلسفي لكننا، في الحقيقة، غير قادرين على ذلك. فالوصول هو أقصى ما يمكننا أن نأمل فيه.

إن جرح أمفورتاس(*) والشق الفاوستي في الرجل الجرماني لم يشفيا بعد، إذ لازال لا وعيه محملاً بتلك المحتويات التي يجب أن تصبح واعية أولاً قبل أن يكون بالإمكان تحريره منها. في الآونة الأخيرة تلقيت رسالة من مريضة سابقة تصور التحول الضروري بكلمات بسيطة لكنها وثيقة الصلة بالموضوع، إذ تكتب: "بدافع من الشر، جاءني الكثير من الخير. بالبقاء ساكنة، وعدم كبت شيء، والبقاء متيقظة وبقبول الواقع بأخذ الأشياء كما هي، وليس كما أردتها أن تكون؛ بفعل ذلك كله، جاءتني معرفة غير اعتيادية، وقدرات غير اعتيادية أيضاً، كما لو لم يكن بمقدوري أن أتخيل من قبل. كنت أعتقد دوماً أننا عندما نقبل الأشياء فإنها تسيطر علينا بطريقة أو بأخرى. ولكن تبين أن هذا ليس صحيحاً بالمرة، فبقبولها فقط يمكن للمرء أن يتخذ موقفاً تجاهها[2]. لذلك أنوي الآن أن ألعب لعبة الحياة، أن أكون متقبلة لكل ما يأتي إليّ، الجيد والرديء، الشمس والظل اللذان يتناوبان إلى الأبد، وبهذه الطريقة، أقبل أيضاً طبيعتي الخاصة بجانبيها الإيجابي والسلبي، هكذا يصبح كل شيء أكثر حيوية لي. كم كنت حمقاء! كيف حاولت أن أقسر كل شيء على السير وفقاً للطريقة التي كنت أعتقد أنها ينبغي أن تكون!"

على قاعدة مثل هذا الموقف وحده، الذي لا ينكر أياً من القيم المكتسبة في سياق التطور المسيحي، بل على العكس، يحاول بإحسان وتسامح مسيحيين أن يقبل حتى أوضع الأشياء في ذاته، سيكون مستوى أعلى من الوعي والثقافة ممكناً. هذا الموقف هو موقف ديني بالمعنى الأصدق. ولذلك فهو موقف علاجي، لأن كل الأديان هي علاجات لأحزان واضطرابات النفس. إن التطور المتزايد للعقل والإرادة الغربيين قد منحنا قدرة شبه

(*) أمفورتاس: شخصية أسطورية رومانية. (المترجم).

شيطانية على تقليد مثل هذا الموقف، بنجاح ظاهر، رغم احتجاجات اللاوعي. لكنها ليست سوى مسألة وقت حتى يفرض الموقف المضاد الاعتراف به بطريقة أو بأخرى. إن تقليد موقف ينتج دوماً وضعاً متقلقلاً، يمكن أن يطيح به اللاوعي في أي وقت. فالأساس الآمن لا يوجد إلا عندما تحظى المقدمات الغريزية للاوعي بنفس الاعتبار الذي تحظى به وجهات نظر العقل الواعي. إذ لا يمكن أن يكون هناك شك في أن ضرورة منح الاعتبار المستحق إلى اللاوعي تتعارض بشكل عنيف مع العبادة الغربية للوعي، وبالأخص البروتستانتية منها. مع ذلك، ورغم أن الجديد يبدو دوماً عدو القديم، فإن أي شخص ذي رغبة أكثر من سطحية في الفهم، لا يمكن أن يفشل في اكتشاف أنه بدون التطبيق الأكثر جدية للقيم المسيحية التي اكتسبناها، لا يمكن الاندماج الجديد أن يحدث أبداً.

هوامش

(1). العقلية البدائية، لندن، 1923.

(2). Dissolution of Participation mystique

التنفيذ



إن الاطلاع المتزايد على الشرق الروحي ينبغي ألا يكون بالنسبة لنا أكثر من التعبير الرمزي عن حقيقة أننا ندخل في ارتباط مع العناصر [الموجودة] في أنفسنا التي لا تزال غريبة عنا. إن إنكار مقدماتنا التاريخية الخاصة بنا سيكون حماقة خالصة وسيكون أفضل طريقة لتحقيق الاستئصال. إذ لا يمكننا أن نتمثل روح الشرق إلا بالوقوف بصلابة على تراب أرضنا نحن.

يقول حكيم قديم، واصفاً الناس الذي لا يعرفون أين تقع الينابيع الحقيقية للقدرات السرية: "الناس الدنيويون يفقدون الجذور ويتمسكون بهامات الأشجار". إن روح الشرق قد خرجت من الأرض الصفراء، وروحنا لا يمكنها، ولا ينبغي عليها، أن تخرج إلا من أرضنا نحن. لهذا السبب أقارب هذه المسائل بطريقة غالباً ما تعرضت للانتقاد بوصفها "نزعة سايكولوجية" Psychologism. إذا كان "علم النفس" معنياً، فينبغي أن أداهن، لأن غرضي حقاً هو أن أزيح جانباً وبلا رحمة المزاعم الميتافيزيقية لكل التعاليم الباطنية؛ فالهدف السري لاكتساب القدرة من خلال الكلمات تتعارض مع جهلنا العميق - الذي يجب أن نمتلك التواضع للاعتراف به. إن نيتي الثابتة هي تسليط ضوء الفهم السايكولوجي على

الأشياء ذات الطنين الميتافيزيقي، وأن أبذل قصارى جهدي لمنع العامة من الإيمان بكلمات القدرة الغامضة.

دع المسيحي المقتنع يؤمن، لأن هذا هو الواجب الذي أخذه على نفسه. أما غير المسيحي فقد صادر نعمة الإيمان. (ربما كان ملعوناً منذ الولادة في عدم كونه قادراً على الإيمان، بل كونه قادرا فقط على المعرفة). لذلك، لا يمتلك الحق في وضع إيمانه في مكان آخر.

لا يمكن للمرء أن يفهم أي شيء على نحو ميتافيزيقي، لكن يمكن أن يتم ذاك على نحو سايكولوجي. لذلك فإنني أجرد الأشياء من أغلفتها الميتافيزيقية لكي أجعلها موضوعات لعلم النفس. بهذه الطريقة أستطيع على الأقل أن أستخلص شيئاً قابلاً للفهم منها، ويمكنني أن أستفيد منه. علاوة على ذلك فإنني أتعلم أن أعرف الشروط والسيرورات السايكولوجية التي كانت محجوبة من قبل في الرموز وخارج مطال فهمي. بفعل ذلك يمكنني أيضاً أن أكون قادراً على اتباع مسار مشابه وأن أمتلك خبرات مشابهة؛ إذا كان يتعين في النهاية أن يكون ثمة عنصر ميتافيزيقي لا يوصف، فسيمتلك أفضل فرصة للكشف نفسه.

إن إعجابي بالفلاسفة الشرقيين العظام هو إعجاب حقيقي بقدر ما أن موقفي تجاه ميتافيزيقهم لا يتسم بالاحترام[1]. فأنا أشك في كونهم علماء نفس رمزيين، لا يمكن أن يرتكب بحقهم خطأ أكبر من أخذهم حرفياً. فلو كان الميتافيزيقي هو حقاً ما يعنون، لكان من غير المفيد أن نحاول فهمهم، لكننا نستطيع أن نكسب كسباً عظيماً عن طريقهم، لأن ما يدعى عندئذ "ميتافيزيقياً" يأتي ضمن مجال الخبرة. فإذا قبلت حقيقة أن إلهاً هو مطلق وخارج نطاق كل الخبرة البشرية، فإنه يدعني لا مبالياً. فأنا لا أؤثر فيه، ولا هو يؤثر في. لكن إذا عرفت أن إلهاً هو دافع قوي لروحي، فيجب علي في الحال أن أشغل نفسي به، لأنه عندئذ يمكن أن يصبح

هاماً، على نحو غير سار، وحتى بطرق عملية، وهو ما يبدو مبتذلاً بشكل مرعب، مثل كل شيء ينتمي إلى دائرة الواقع.

ينطبق توبيخ "النزعة السايكولوجية" فقط على أحمق يظن أن روحه في جيبه؛ ثمة بالتأكيد أكثر مما يكفي من هؤلاء الحمقى، لأنه بالرغم من أننا نعرف كيف نستخدم الكلمات الكبيرة حول "الروح"، فإن الحط من قيمة الأشياء النفسية لا يزال موقفاً مسبقاً غربياً نمطياً. إذا استفدت من مفهوم "عقدة نفسية مستقلة"، فإن قارئي سيطلع على الفور بالحكم المسبق: "لا شيء سوى عقدة نفسية". كيف يمكننا أن نتأكد من أن النفس "لا شيء سوى"؟ إنه كما لو أننا لم نكن نعرف، أو نسينا بشكل مستمر، أن كل شيء نحن واعون له هو صورة، وهذه الصورة هي النفس البشرية. فالناس الذين يعتقدون أن الله تُبخس قيمته إذا تم فهمه بوصفه شيئاً محركاً [بفتح الراء] في النفس البشرية، إضافة إلى كونه القوة المحركة للنفس البشرية، أي إذا فهم كمركب مستقل، هؤلاء الناس هم أنفسهم يمكن أن يكونوا مبتلين بعواطف لا يمكن ضبطها وحالات ذهن عصابية، بحيث تفشل إراداتهم ومجمل فلسفتهم في الحياة فشلاً ذريعاً. هل هذا برهان على قصور النفس البشرية؟ هل ينبغي اتهام المعلم إكهارت أيضاً "بالنزعة السايكولوجية" عندما يقول بوجوب أن يولد الله في النفس مرة تلو الأخرى"؟ أظن أن الاتهام بالنزعة السايكولوجية مبرر فقط في حالة النمط من العقل الذي ينكر طبيعة المركب المستقل، ويسعى إلى شرحها عقلانياً بوصفها نتيجة لأسباب معروفة، أي، بوصفها مشتقة، لا توجد بذاتها. هذا الحكم الأخير هو حكم متغطرس كمثل الجزم "الميتافيزيقي" الذي يسعى، متخطياً الحدود البشرية، إلى أن يأتمن إلى ربوبية خارج مجال خبرتنا مع تحقيق حالاتنا النفسية. إن النزعة السايكولوجية هي ببساطة النظير للانتهاك الميتافيزيقي، وهي طفولية مثله. لذلك يبدو لي أكثر

معقولية بكثير أن أضفي على النفس البشرية الشرعية نفسها التي أضفيها على العالم التجريبي، وأن أعترف بأن الأولى تمتلك من الواقعية مثلما يمتلك الأخير. إن النفس البشرية، كما أراها، هي عالم يحتوي الأنا. ربما توجد أيضاً أسماك تؤمن بأنها تحتوي البحر. يجب أن نخلص أنفسنا من هذا التوهم الاعتيادي لأنفسنا إذا كنا نرغب في دراسة البيانات الميتافيزيقية من موقع علم النفس.

إن توكيداً ميتافيزيقياً من هذا النوع هو الفكرة من "الجسد الماسي"، النَفس ـ الجسد الذي لا يمكن إفناؤه، الذي ينشأ في الزهرة الذهبية، أو في فضاء الإنش المربع[2]. هذا الجسد، مثل كل شيء، آخر، هو رمز لحقيقة سايكولوجية جديرة بالملاحظة، لأنها موضوعية، تظهر أولاً مسقطة في أشكال مولودة من خبرات الحياة العضوية، أي، كالثمرة، الجنين، الطفل، الجسد الحي، وهلم جرا. هذه الحقيقة السايكولوجية يمكن التعبير عنها على النحو الأفضل بالكلمات "لست أنا من يسكنه، إنه يسكنني". إن الوهم حول القدرات الفائقة للوعي يقود إلى الاعتقاد: أنا أسكن. إذا كان الاعتراف باللاوعي يبدد هذا الوهم، فإن الأول يظهر بوصفه شيئاً موضوعياً يكون الأنا متضمناً فيه. إن الموقف من اللاوعي هو لذلك مماثل لشعور البدائي الذي يضمن وجود الابن له استمرار الحياة. هذا الشعور المميز يمكن أن يأخذ أشكالاً غريبة حتى، كما في حالة الزنجي العجوز الذي صرخ غاضباً من ابنه العاصي لأوامره: "هناك يقف مع جسدي، لكنه لا يطيعني حتى!".

إنها مسألة تغيير في الشعور الداخلي مشابه لذاك الذي يمر به أب ولد له ابن؛ إنه تغيير معروف لنا أيضاً من خلال شهادة الرسول بولس: "لست أنا (الذي يحيا)، بل المسيح يحيا فيّ". إن رمز "المسيح" بوصفه "ابن الإنسان" هو تجربة نفسية مماثلة: كائن روحي أسمى ذو شكل

بشري يولد بشكل غير مرئي في الفرد، جسدا روحيا، لكي يخدمنا كمسكن مستقبلي، جسداً، كما يعبر بولس نفسه، يُرتدى مثل عباءة (لأنه بقدر ما تعمد منكم في المسيح فقد ارتدوا المسيح").

من الواضح أنه شيء يصعب التعبير دوماً، بلغة عقلية، عن مشاعر مرهفة هي، مع ذلك، هامة إلى أقصى درجة لأجل حياة ورفاه الفرد. بمعنى محدد، الشيء الذي نحاول أن نعبر عنه هو الشعور بأننا قد "استُبدلنا"، لكن بدون الدلالة على كوننا "عزلنا". إنه كما لو أن اتجاه شؤون الحياة قد انحرف إلى مركز غير مرئي. إن مجاز نيتشه، "في مقولة" في العبودية الأكثر محبة كونوا أحرارا[3]" سيكون ملائماً هنا. إن الخطاب الديني مليء بالصور التي تصور هذا الشعور بالتبعية الحرة، والسكينة والتقوى.

في هذه التجربة الرائعة أرى ظاهرة ناجمة عن انفصال الوعي الذي يصبح من خلاله الفاعل "أنا أسكن" المفعول به "إنه يسكنني". هذه الحالة يُشعر أنها أرقى من الحالة الأقدم؛ إنه في الواقع كما لو كان ذلك ضرباً من الانعتاق من القهر والمسؤولية المستحيلة اللذين هما النتيجتان الحتميتان للمشاركة الصوفية. هذا الشعور بالتحرر يملأ بولس بشكل كامل. إن وعي المرء بكونه ابن الله هو الذي يحرره من فتنة الدم. إنه أيضاً شعور بالمصالحة مع كل ما يحدث، وهذا هو السبب في أن نظرة من أحرز التنفيذ تعود إلى جمال الطبيعة، وفقاً للهوي مينغ تشينغ.

في رمز المسيح البولسي تتواجه أعمق الخبرات الدينية للغرب والشرق. فالمسيح، البطل المثقل بالألم، والزهرة الذهبية التي تتفتح في الصالة القرمزية من مدينة اليشب، يا له من تباين! يا لها من لامحدودية الاختلاف، يا لها من هاوية التاريخ! إنها مشكلة تصلح لتتويج أعمال عالم نفس مستقبلي!

من بين مشاكل الحاضر الدينية الكبيرة ثمة مشكلة لقيت اهتماماً ضئيلاً، لكنها في الحقيقة المشكلة الرئيسية في يومنا هذا: مشكلة تقدم الروح الدينية[4]. إذا كنا بصدد أن نناقشها، فيجب أن نشدد على الاختلاف بين الشرق والغرب في معالجتهما "للجوهرة"، أي الرمز المركزي. فالغرب يشدد على التجسيد البشري، وحتى على شخصية وتاريخية المسيح، في حين يقول الشرق: "بلا بداية، بلا نهاية، بلا ماض، بلا مستقبل"[5]. وانسجاماً مع تصوره، فإن المسيحي يُخضع نفسه للشخص المقدس، المتفوق أملاً في حظوته؛ أما الإنسان الشرقي فيعرف أن الخلاص يعتمد على "العمل" الذي ينجزه الفرد على نفسه.

ينطلق الطاو من الفرد. أما تقليد المسيح فيتصف بهذه السيئة: على المدى الطويل نعبد إنساناً جسّد معنى للحياة بوصفه مثالاً إلهياً ثم، بدافع من التقليد الخالص، ننسى أن نصنع أعمق معنى لنا ـ تحقيق الذات. في الواقع، من غير المريح تماماً أن ننكر المعنى الحقيقي الخاص للمرء. فلو فعل يسوع ذلك، ربما كان قد أصبح نجاراً محترماً، وليس المتمرد الديني الذي كان سيحدث له اليوم، بشكل واضح، الشيء نفسه الذي حدث آنذاك.

يمكن فهم تقليد المسيح جيداً بطريقة أعمق. إذ يمكن اعتباره بمثابة الواجب لإضفاء الواقعية على أعمق قناعات المرء، التعبير الأكمل دوماً عن المزاج الفردي، بنفس الشجاعة والتضحية بالنفس اللذين أظهرهما يسوع. لحسن الحظ ـ يجب أن نقول ـ أنه لا يملك كل واحد مهمة أن يكون قائداً للجنس البشري، أو متمرداً كبيراً، ولذلك قد يكون من الممكن لكل شخص أن يحقق ذاته بطريقته الخاصة. هذه النزاهة يمكن حتى أن تصبح مثالاً. بما أن الابتكارات العظيمة تبدأ دائماً في الأمكنة الأقل احتمالاً، فإن حقيقة، على سبيل المثال، أن يكون شخص اليوم يكاد لا يخجل من

عريه كما اعتاد أن يفعل، قد تكون البداية للاعتراف به كما هو. إن الإصرار على ذلك سوف يلي اعترافاً متزايداً بأشياء كثيرة كانت فيما سبق محرمة بشكل صارم، لأن واقع الأرض لن يبقى إلى الأبد محجوباً مثل عذراوات ترتوليان المحجبات. إن كشف القناع الأخلاقي ليس سوى خطوة في الاتجاه نفسه، وانظر، هناك يقف إنسان كما هو، ويعترف لنفسه بأنه كما هو. إذا فعل ذلك بطريقة عديمة المعنى يكون أحمق مخبولاً، بغض النظر عن المعاناة. يمكن غالباً ملاحظة أن المحرمات الملموسة كلياً أو الطقوس السحرية في أية مرحلة مبكرة من ديانة ما تصبح في المرحلة التالية مسألة قلق نفسي، أو حتى رموزاً روحية كلياً. فالقانون الخارجي، في سياق الزمن، يصبح قناعة داخلية. لهذا قد يخطر بسهولة للإنسان المعاصر، خصوصاً البروتستانتي، أن يسوع الشخص، الذي يوجد الآن خارجاً في مملكة التاريخ، يمكن أن يصبح الإنسان الخارق بداخله. عندئذ نكون قد أحرزنا، بطريقة أوروبية، الحالة السايكولوجية المقابلة "للتنوير" بالمعنى الشرقي.

كل هذا هو خطوة في نشوء وعي بشري أرقى على الطريق نحو الأهداف المجهولة، وليس ميتافيزيقاً بالمعنى العادي. إلى هذا الحد لا يكون سوى "علم نفس"، لكنه إلى هذا الحد أيضاً يمكن تجريبه، يمكن فهمه، و ـ الحمد لله ـ إنه واقعي، واقع يمكن به القيام بشيء ما، واقع يحتوي على إمكانيات ولذلك فهو حي. إن حقيقة أنني أكتفي بما يمكن تجريبه نفسياً، وأرفض الميتافيزيقي، لا تعني، كما يمكن لأي ذي بصيرة أن يفهم، ايماءة تشكيكية أو لا أدرية agnostic ضد الإيمان أو الثقة بالقوى العليا؛ إن ما أقوله هو تقريباً الشيء نفسه الذي عناه كانط عندما دعا "الشيء في ذاته" "مجرد مفهوم حدي سلبي" [Grenzbegriff]. كل بيان / تصريح حول المتعالي / الواقع وراء نطاق الخبرة يجب تجنبه، لأنه

بشكل ثابت ليس سوى افتراض مسبق مثير للضحك حول جزء من العقل البشري، الذي يكون غير واع لحدوده. لذلك، عندما يسمى الله أو الطاو دافعاً للروح، أو حالة للروح، يكون قد قيل شيء ما حول ما يمكن معرفته فقط، ولكن لم يقل شيء حول ما لا يمكن معرفته، حول ما لا يمكن تقرير شيء حوله.

هوامش

(1). إن الفلاسفة الصينيين ـ خلافاً لدوغمائيي الغرب، هم فقط الذين يشعرون بالامتنان لهذا الموقف، لأنهم سادة آلهتهم (ر. ف.)

(2). صحيح أن نصنا مبهم إلى حد ما بخصوص ما إذا كان المقصود بـ"استمرار الحياة" هو البقاء بعد الموت أم إطالة الوجود الجسدي. إن عبارات مثل "إكسير الحياة" وما شابه غامضة بشكل خادع. بالفعل، يتضح في الإضافات اللاحقة أن تعليمات اليوغا تُفهم بمعنى جسدي خالص. بالنسبة للعقل الأكثر بدائية، لا شيء مزعجاً في هذا المزيج الغريب من الروحي والجسدي، لأن الحياة والموت بالنسبة إليه ليسا بأي شكل من الأشكال الضدين الكاملين كما هما بالنسبة إلينا. (ماهو مثير للاهتمام بشكل خاص بهذا الخصوص، إضافة إلى المادة الإثنولوجية الشهيرة، هي "اتصلات"، "دوائر الإنقاذ" الإنكليزية بأفكارها العتيقة كليا). إن الغموض نفسه حيال البقاء بعد الموت يوجد في المسيحية المبكرة أيضا، حيث يقوم على فرضيات مشابهة، أي على فكرة "الجسد ـ النفَس"، الحامل الأساسي للحياة (كانت نظرية جيلي Geley الباراسايكولوجية آخر تجسيد لهذه الفكرة القديمة). لكن بما أن لدينا في نصنا محاذير من الاستعمال الخرافي لها، مثل التحذير من محاولة صنع الذهب، فبوسعنا

أن نلح بثقة بدون تناقض مع معنى النص، على المعنى الروحي للتعاليم. في الشروط التي تسعى إلى خلقها، يلعب الجسد المادي دوراً تافهاً بشكل زائد لأنه يُستبدل بالجسد ـ النفَس (من هنا كانت أهمية التنفس في ممارسة اليوغا عموماً). إن الجسد ـ النفَس ليس "روحيا" بمفهومنا. إنه مميز للإنسان الغربي بحيث أنه قد فصل جانبي الحياة الجسدي والروحي لغرض اكتساب المعرفة، لكن هذين الضدين يوجدان معا في النفس البشرية، ويجب على علم النفس أن يعترف بالحقيقة. إن "النفسي" يعني: جسدي وعقلي. إن الأفكار في نصنا تتعامل كلها مع هذا العالم "البيني" الذي يبدو لنا غامضاً ومشوشاً لأن مفهوم الواقع النفسي لم يُدرج بعد بيننا، رغم أنه يعرف إطار حياتنا. فبدون الروح، يكون العقل ميتاً كالمادة، لأن كليهما تجريدان اصطناعيان، في حين أن الإنسان يعتبر العقل في الأصل جسداً سريع الزوال، والمادة لا تفتقر إلى الروح.

(3). بالألمانية في النص: Frei in liebevollsten Muss

(4). توخياً للوضوح فإن المؤلف قد ضخم الجملة الواردة أعلاه من أجل الترجمة الإنكليزية (س. ف. ب.)

(5). هوي مينغ تشيتغ، ص. 77.

خاتمة

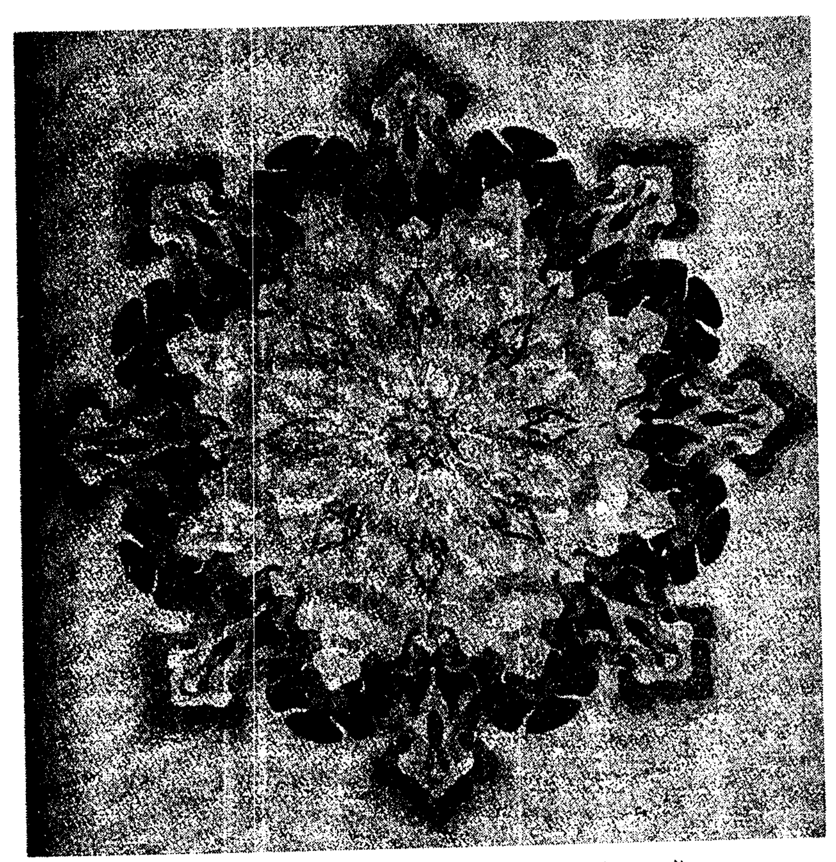


إن الغرض من تعليقي هو محاولة بناء جسر من الفهم السايكولوجي بين الشرق والغرب. فالأساس لكل فهم حقيقي هو الإنسان، ولذلك كان علي أن أتكلم عن الأشياء البشرية. ويجب أن يكون ذلك عذراً لي لأنني لم أعالج سوى المظاهر العامة، ولأنني لم أدخل إلى التفاصيل التقنية. إن الاتجاهات التقنية هي ذات قيمة لأجل أولئك الذين يعرفون، على سبيل المثال، ما هي آلة التصوير [الكاميرا] أو محرك الاحتراق، لكنها عديمة الفائدة لأي شخص ليس لديه أية فكرة عن مثل هذا الجهاز. إن الإنسان الغربي الذي أكتب له هو في موقع مماثل. لذلك بدا لي أن الأهم من كل شيء هو تأكيد التوافق بين الحالات النفسية ورمزيات الشرق والغرب. بواسطة هذه التماثلات يُفتح مدخل إلى الحجرات الداخلية للعقل الشرقي، مدخل لا يتطلب التضحية بطبيعتنا الخاصة، ومن هنا، لا هو لا يهددنا بخلعنا من جذورنا. ولا هو تلسكوب فكري أو ميكروسكوب يقدم رؤية لا تهمنا أساساً لأنها لا تلامسنا. إنه بالأحرى جو من المعاناة، والبحث والكفاح المشترك بين كافة الشعوب المتحضرة؛ إنه التجربة الهائلة لصيرورة الجنس البشري واعياً، التي أفردته بها الطبيعة، والتي توحد الثقافات الأكثر تنوعاً في مهمة مشتركة. لقد قمت باختيار عشر لوحات من

بين تشكيلة لامتناهية من المندالات الأوروبية، وينبغي، ككل، أن تشرح التوازي بين الفلسفة الشرقية والسيرورات العقلية اللاواعية في الغرب. ليس الوعي الغربي بأي شكل من الأشكال وعياً بشكل عام؛ إنه عامل مشروط تاريخياً ومحدود جغرافياً، لا يمثل سوى جزء واحد من الجنس البشري. إن توسيع وعينا ينبغي ألا يسير على حساب الأنواع الأخرى من الوعي، بل ينبغي أن يحدث من خلال تطور تلك العناصر من نفسنا البشرية المماثلة لعناصر النفس الأجنبية، تماماً مثلما أن الشرق لا يمكنه أن يستغني عن تقانتنا وعلمنا وصناعتنا. فالغزو الأوروبي للشرق كان فعل عنف على مستوى كبير، وقد ترك لنا واجباً تفرضه النبالة هو فهم عقل الشرق. وهذا ربما يكون أكثر ضرورية مما ندركه في الوقت الحالي.

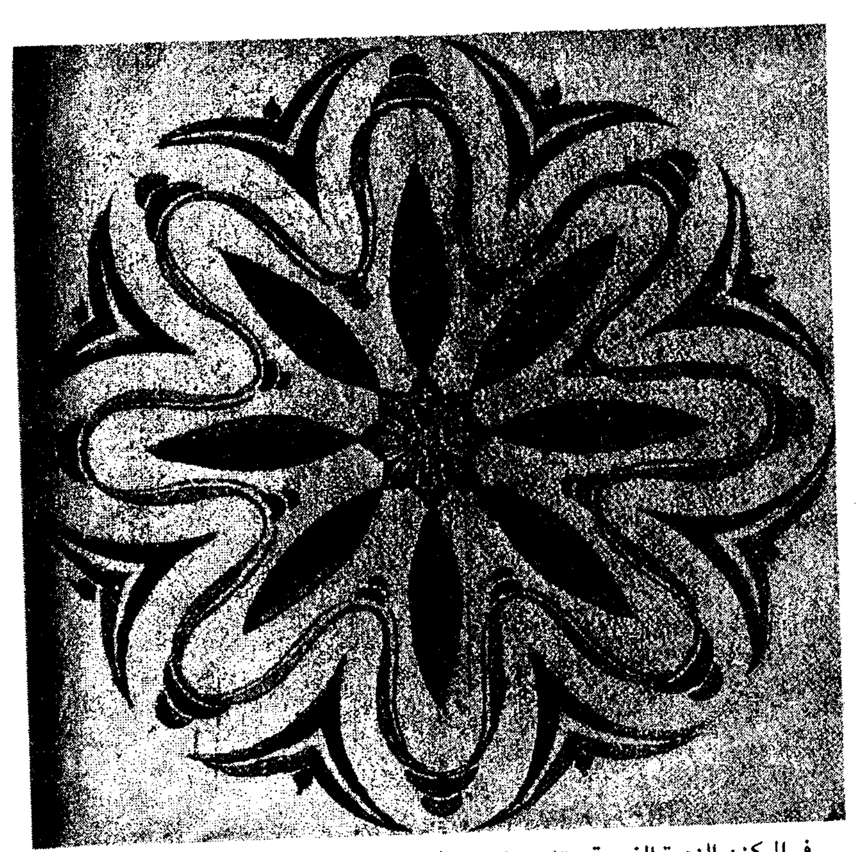
أمثلة على المندالات الأوروبية

إن اللوحات بين الصفحتين 207 و209 [من النص الإنكليزي] قد رسمها مرضى كما وصفت في النص. يعود تاريخ أقدم لوحة إلى عام 1916. كل اللوحات أنجزت بشكل مستقل عن أي تأثير شرقي. إن هكساغرامات الآي تشينغ في اللوحة رقم 4 تأتي من قراءة ترجمة لغة Legge في الكتب المقدسة للسلسلة الشرقية، لكنها حولت إلى لوحة فقط لأن محتواها بدا للمريضة المتمرنة في الجامعة، ذات معنى خاص لأجل حياتها. لا توجد مندالات أوروبية معروفة لي (لدي مجموعة ضخمة)، تحقق التناغم والكمال المتعارف عليهما اصطلاحياً وتقليدياً للمندالة الشرقية. لقد قمت باختيار عشر لوحات من تشكيلة لامحدودة من المندالات الأوروبية، ويفترض بها، ككل، أن تشرح بشكل واضح التوازي بين الفلسفة الشرقية والسيرورات العقلية اللاواعية في الغرب.



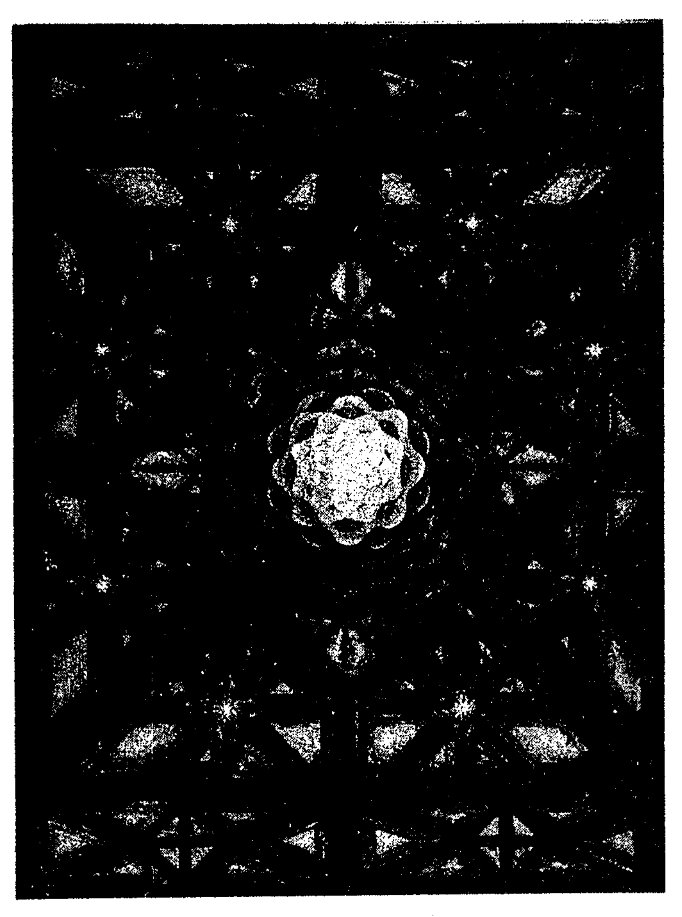
الزهرة الذهبية وقد صورت بوصفها أروع الزهور قاطبة





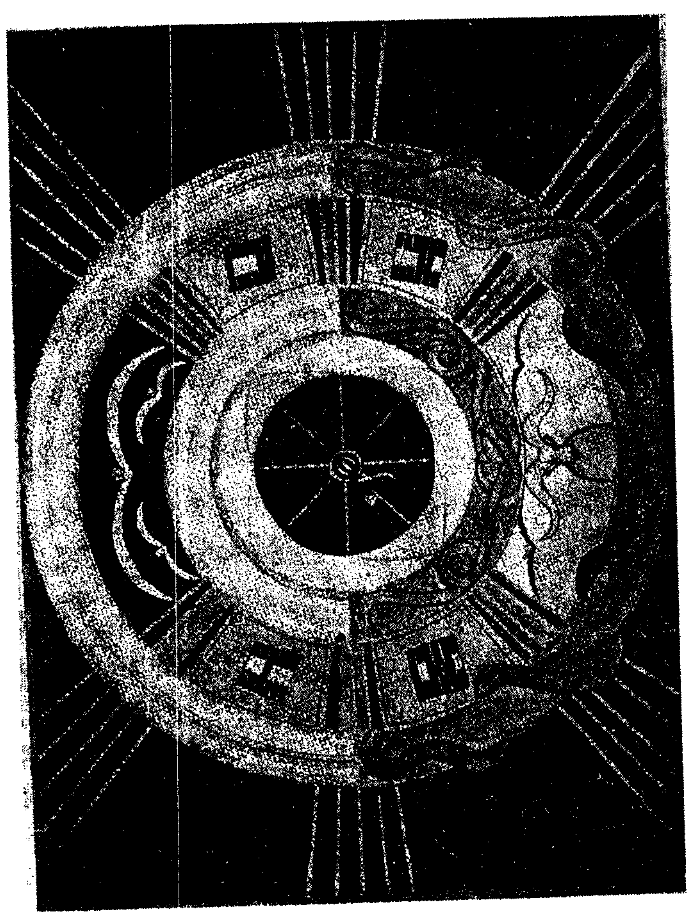
في المركز: الزهرة الذهبية، تشع منه اسماك كرمز للخصب (تقابل صواعق مندالات العلاما)



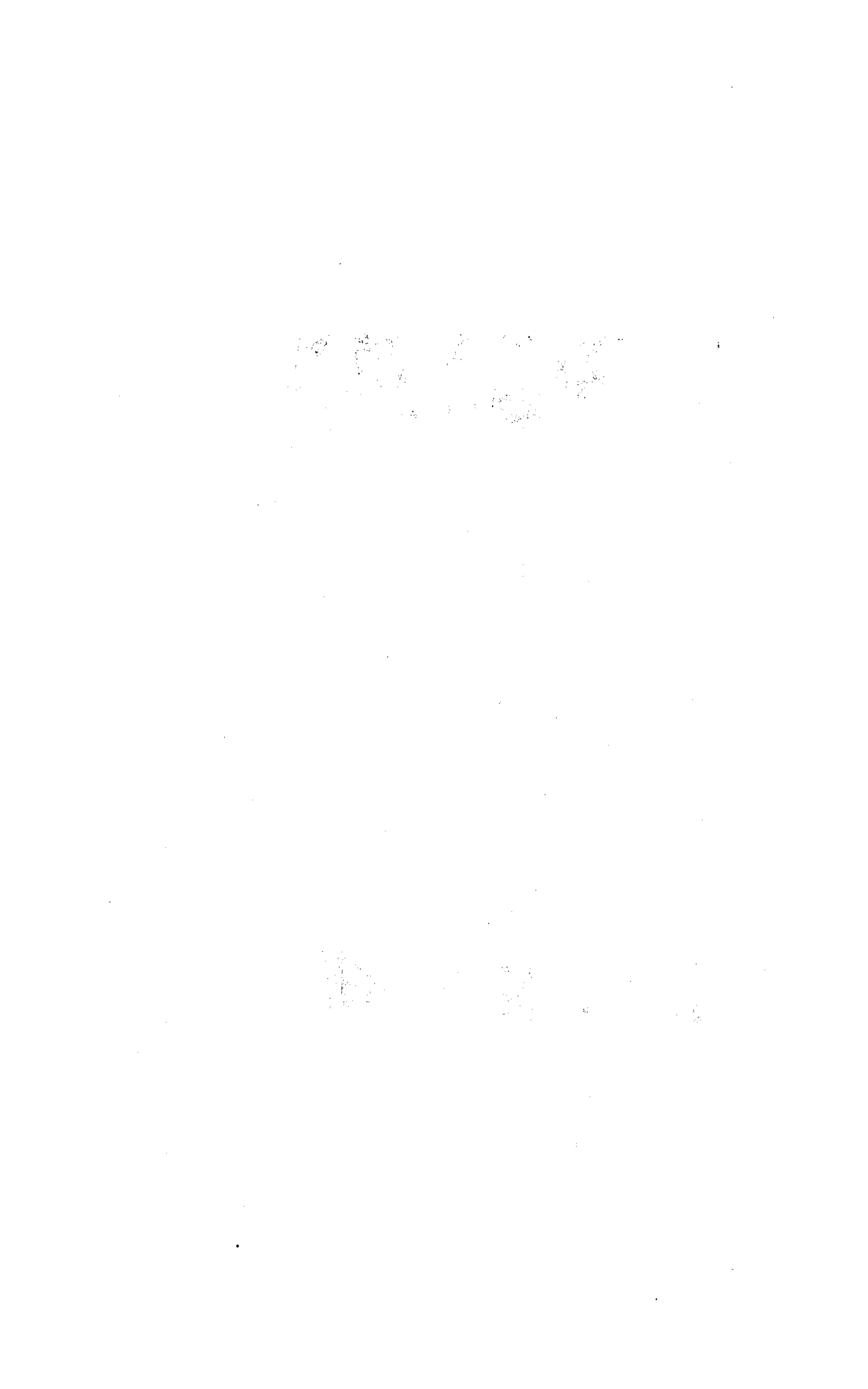


زهرة منيرة في المركز، مع نجوم تدور حولها. حول الزهرة جدران ذات ثمان بوابات. الشكل يصور كنافذة شفافة.





انفصال عالم الجو وعالم الأرض (طيور وثعابين). في المركز زهرة مع نجمة ذهبية.





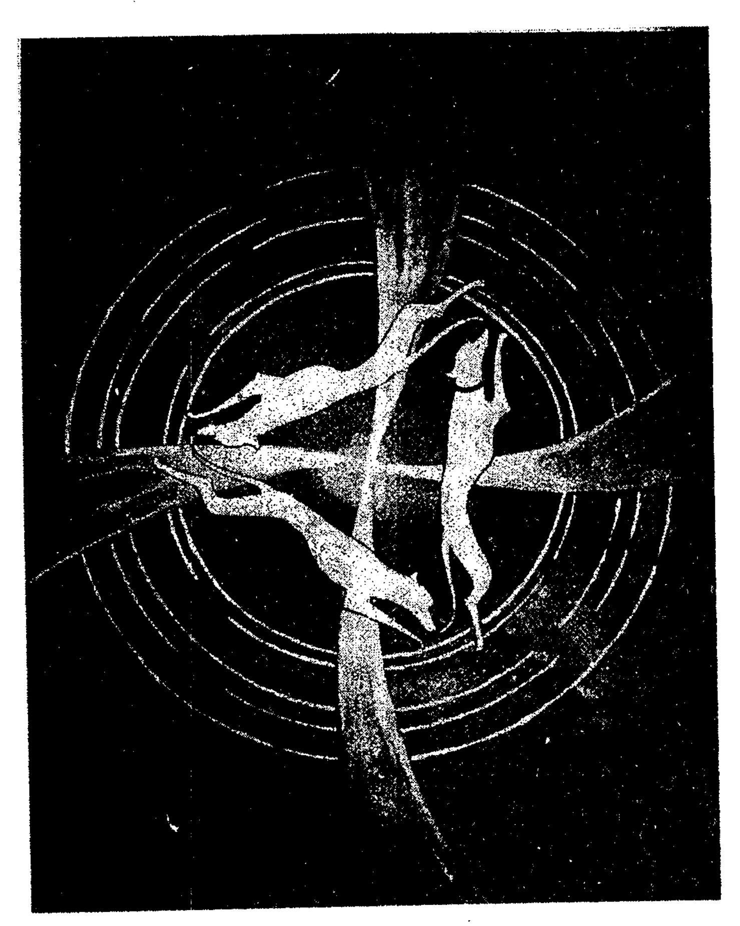
انفصال النور عن عالم الظلام؛ انفصال الروح السماوية عن الروح الأرضية. في المركز تمثيل للتأمل.





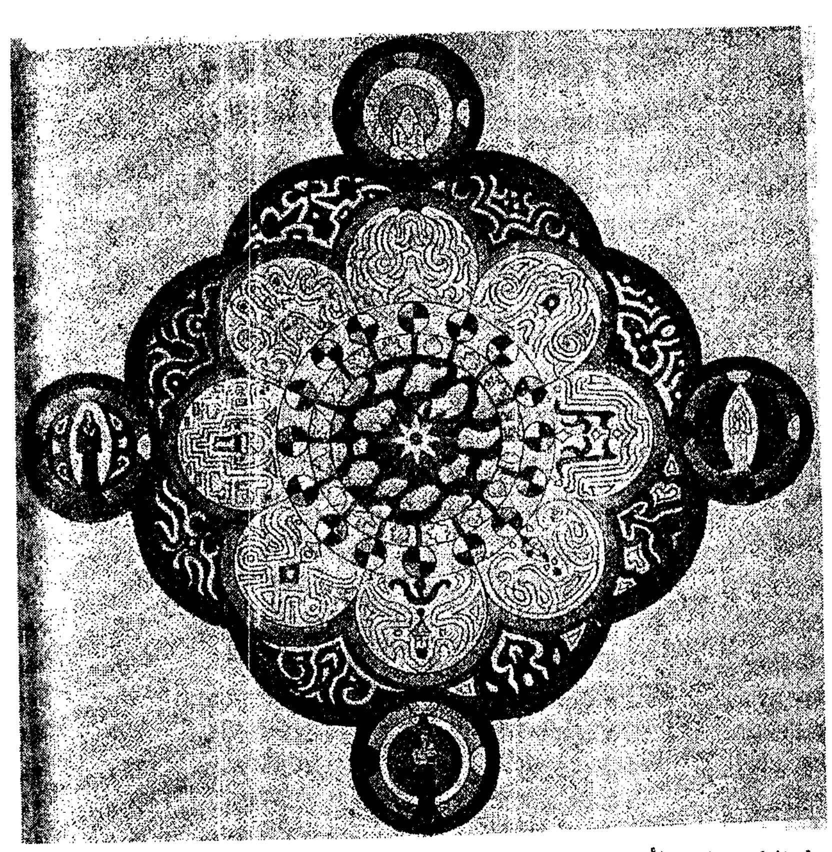
طفل في الحويصلة الجرثومية مع الألوان الأولية الأربعة متضمنة في الحركة الدائرية





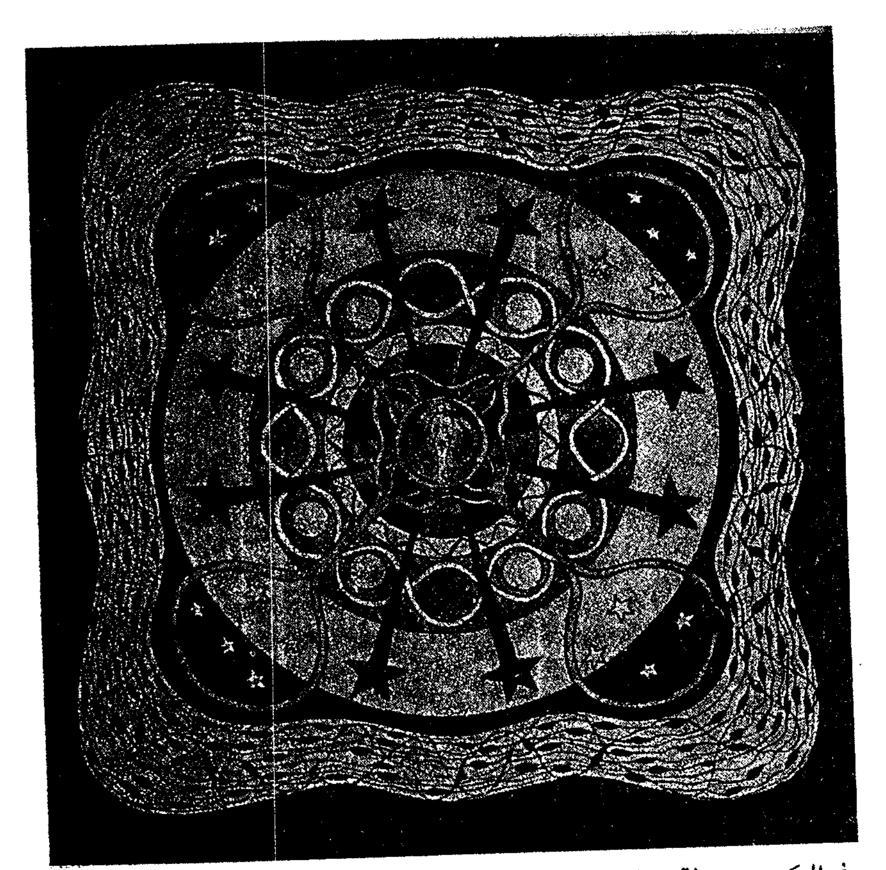
تمثيل للتركيبات في الحركة الدائرية





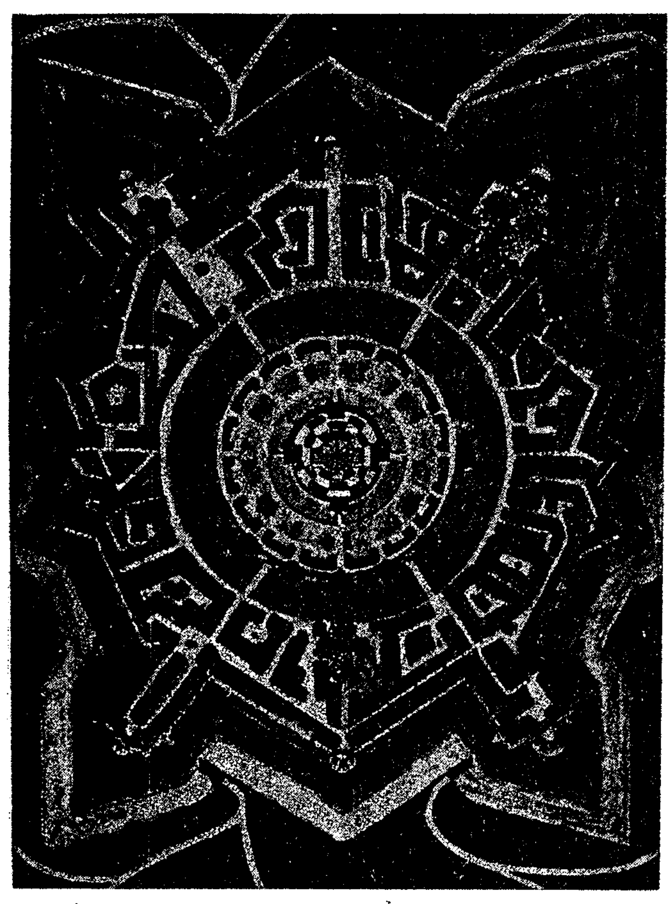
في المركز، النور الأبيض، يشع في السماء؛ في الدائرة الأولى بذور الحياة البروتوبلازمية؛ في الثانية، المبادئ الكونية الدوارة التي تحتوي الألوان الأولية الأربعة؛ في الثالثة والرابعة، القوى الخلاقة تعمل نحو الداخل ونحو الخارج. في النقاط الرئيسية، الروحان الذكرية والأنثوية تنقسمان مرة أخرى إلى نور وظلام.





في المركز، حويصلة جرثومية مع شكل بشري تغذيه أوعية دموية تنشأ من الكون. الكون يدور حول المركز، الذي يجذب انبعاثاته. حول الخارج يوجد نسيج أعصاب منتشرة، ما يدل على أن السيرورة تحدث في الضفيرة الشمسية





مندالة بمثابة محصنة بسور وخندق. بالداخل خندق عريض محاط بسور/ محصن بستة عشر برجاً وبخندق داخلي آخر. الخندق الأخير يحيط بقلعة مركزية ذات أسقف ذهبية مركزها هو معبد ذهبي.



ملحق

في ذكرى ريشارد فيلهلم[1] بقلم: ك. غ. يونغ

ليس الكلام عن ريشارد فيلهلم وعمله مهمة سهلة بالنسبة لي، لأن طريقينا، وقد انطلقا بعيدين جداً أحدهما عن الآخر، قد تقاطعا بشكل شبه نيزكي (خاطف). فَعَمَلُ حياته له مجال لم أحط به. ولا أنا رأيت الصين التي شكلته أولاً و بقيت في وقت لاحق تستحوذ على فكره؛ علاوة على ذلك، فأنا لست ملماً بلغتها، التعبير الروحي الحي عن الشرق الصيني. حقاً إنني أقف كغريب خارج الأرض الشاسعة من المعرفة والخبرة التي عمل فيها فيلهلم كأستاذ في اختصاصه. فهو، بوصفه عالم صينيات، وأنا، بوصفي طبيباً، ربما ما كنا لنتواصل أبداً لو بقينا أخصائيين. لكننا التقينا في حقل من حقول الإنسانية يبدأ خارج مواقع الحدود الأكاديمية. هناك تقع نقطة التقائنا؛ هناك وثبت الجمرة التي أشعلت النور الذي قدر له أن يصبح بالنسبة لي أحد الأحداث الأكثر معنى في حياتي.

بسبب هذه التجربة يجوز لي أن أتكلم عن فيلهلم وعن أعماله، وأنا أفكر بتبجيل ممتن بهذا العقل الذي خلق جسراً بين الشرق والغرب ومنح الغرب occident إرثاً ثميناً من ثقافة عمرها آلاف السنوات، ثقافة ربما قدر لها أن تختفي.

حاز فيلهلم على الأستاذية التي لا يكسبها سوى الرجل الذي يعلو فوق حقل اختصاصه، ولذلك أصبحت معرفته شأناً يلامس كل البشرية، أو بالأحرى هكذا كان في البدء وهكذا بقي دوماً. ما الذي كان، غير ذلك، يمكنه أن يحرره على نحو كامل بهذا الشكل من الأفق الضيق للأوروبي، أفق المبشر، في الحقيقة، بحيث أنه ما إن واجه سر الروح الصينية حتى أدرك الكنز المخبوء هناك لأجلنا، وضحى بحكمه بآرائه المسبقة الأوروبية لصالح هذه اللؤلؤة النادرة؟ لم يكن من الممكن أن يكون إلا [صفة] إنسانية شاملة للكل، عظمة قلب يحدس بالكل، ذلك الذي مكنه من أن ينفتح بلا تحفظ على روح أجنبية بعمق، وأن يضع في خدمة هذا التأثير المواهب والقدرات المتعددة لعقله. إن إخلاصه الشامل المتجاوز لكل الضغينة المسيحية، لكل الفرضيات المسبقة الأوروبية، هو في حد ذاته شاهد على روح عظيمة بشكل نادر، لأن كل العقول العادية [التي تكون] في احتكاك مع ثقافة أجنبية تفقد ذاتها، إما في استئصال ذاتي أعمق أو في ولع بالنقد، المجتزأ بالقدر نفسه إضافة إلى كونه مدعياً. إنهم، إذ لا يلامسون سوى السطح والأجزاء الخارجية من الثقافة الأجنبية، لا يأكلون خبزها ولا يشربون خمرها أبداً، ولذلك فإنهم لا يدخلون إلى الروح المشتركة العامة، ذاك التخلل والتنافذ الأكثر حميمية الذي يهيء لولادة جديدة.

كقاعدة، يكون ذهن الاختصاصي ذهناً ذكرياً خالصاً، عقلاً تكون الخصوبة بالنسبة له سيرورة غريبة وغير طبيعية؛ لذلك يكون أداة سيئة

التكيف بشكل خاص لأجل تلقي وولادة روح أجنبية. لكن العقل الكبير يحمل دمغة الأنثوي. بالنسبة إليه، إنه رحم تقبلي وخصيب يمكنه أن يعيد تشكيل ما هو غريب محولاً إياه إلى شكل مألوف. لقد امتلك فيلهلم الكاريزما النادرة للأمومة الروحية في أعلى درجاتها. وإليها يدين بقدرته التي لا نظير لها حتى الآن على القيام بترجمات لا تضاهى.

بالنسبة لي، إن أعظم ترجماته هي ترجمته وتعليقاته على الآي تشينغ[2]. فقبل أن أتعرف على ترجمة فيلهلم، كنت قد اشتغلت لسنوات بترجمة لغه Legge غير الوافية، ولذلك كنت في موقع [يؤهلني] للتمييز التام للاختلاف الاستثنائي بين الترجمتين. لقد نجح فيلهلم في أن يعيد هذا العمل القديم إلى الحياة في شكل جديد وحيوي، وهو الذي لا يمكن، ليس فقط لكثير من علماء الصينيات، بل حتى لكثير من الصينين الحديثين أيضاً أي يروا فيه شيئاً سوى مجموعة من الصيغ السحرية السخيفة. هذا العمل يجسد، ربما كما لا يجسد أي عمل آخر، روح الثقافة الصينية، لأن أفضل عقول الصين قد تعاونت عليه وساهمت فيه على مدى آلاف السنين. فرغم عمره الخرافي، لم يهرم أبداً، بل لا زال يعيش ويعمل، على الأقل بالنسبة للذين يفهمون معناه. ونحن ندين للجهد الخرافي لفيلهلم بكوننا أيضاً ننتمي إلى هذه الجماعة التفضيلية. فقد قرب هذا العمل إلينا من خلال الترجمة الدقيقة ومن خلال خبرته الشخصية بوصفه تلميذاً لأستاذ صيني من المدرسة القديمة، وبوصفه ضليعاً في علم نفس اليوغا الصينية، كان التطبيق العملي للآي تشينغ بالنسبة له تجربة متجددة باستمرار.

لكن مع كل هذه المواهب الفنية، فقد أثقلنا فيلهلم أيضاً بمهمة جسيمة قد نخمنها فقط في الوقت الحالي، لكننا لا نستطيع أن نتصورها بشكل

كامل. فأي شخص، مثلي، امتلك الفرصة السعيدة النادرة لأن يختبر في تبادل روحي مع فيلهلم القدرة العرافية للآي تشينغ، لا يمكنه أن يبقى لزمن طويل جاهلاً بحقيقة أننا قد لامسنا هنا نقطة أرخميدية، يمكن أن يهتز منها موقف عقلنا الغربي من أساسه. فليست بالخدمة الصغيرة أن تقدم لنا، كما فعل فيلهلم، مثل هذه الصورة الشاملة الغنية بالألوان لثقافة أجنبية؛ لكن الأكثر أهمية هو حقيقة أنه قد نقل إلينا البذرة الحية للروح الصينية، القادرة على إحداث تغيير جوهري في رؤيتنا للحياة. فنحن لم نعد مختزلين إلى كوننا مراقبين معجبين أو نقديين، بل أصبحنا مشاركين في الروح الشرقية، إلى الدرجة التي نجحنا عندها في تجريب القدرة الفعالة للآي تشينغ.

إن الوظيفة التي يقوم عليها استعمال الآي تشينغ تبدو للوهلة الأولى في تناقض حاد مع طريقتنا الغربية في التفكير السببي العلمي. بعبارة أخرى، إنها لا علمية إلى درجة قصوى، إنها في الحقيقة تابو / محرم، ولذلك فهي تقع خارج نطاق محاكمتنا العلمية، وفي الواقع غير قابلة للفهم بالنسبة لها.

منذ سنوات خلت، سألني رئيس الجمعية الأنثروبولوجية البريطانية آنذاك كيف يمكنني أن أشرح حقيقة أن شعباً بهذه الدرجة العالية من الفكر كالشعب الصيني لم ينتج أي علم من العلوم؟ فأجبت بأن هذا لا بد أن يكون في الواقع وهماً بصرياً، لأن الصينين امتلكوا "علماً كان العمل المعياري" له هو الآي تشينغ، لكن مبدأ هذا العلم، مثل الكثير غيره في الصين، كان مختلفاً تماماً عن مبدأنا العلمي.

إن علم الآي تشينغ، في الواقع، لا يستند إلى مبدأ السببية بل إلى مبدأ (غير مسمى حتى الآن لأنه لم يصادف بيننا) سميته بشكل مؤقت المبدأ

التزامني synchronistic principle. إن اشتغالي بعلم نفس السيرورات اللاواعية قد حتم علي منذ زمن طويل البحث عن مبدأ تفسيري آخر، لأن مبدأ السببية كان يبدو لي غير واف لأجل تفسير بعض ظاهرات اللاوعي الجديرة بالملاحظة. لهذا وجدت أن ثمة توازيات نفسية لا يمكن ربطها ببعضها البعض ربطاً سببياً، بل يجب أن تقع في صنف آخر من الارتباط.

هذا الارتباط بدا لي أنه يكمن بالدرجة الأولى في التواقت النسبي للأحداث، لذلك كان تعبيراً تزامنياً. في الواقع، يبدو كما لو أن الزمن، بعيداً عن كونه تجريداً، هو متصل continuum ملموس، يحتوي كميات أو شروطاً أساسية تنكشف في أمكنة مختلفة بطريقة لا يفسرها التوازي السببي، كما، على سبيل المثال، في حالات الظهور المتزامن لخواطر أو رموز، أو حالات نفسية متطابقة.

ثمة مثال آخر هو تزامن فترات الأسلوب الصيني والأوروبي، وهي حقيقة أشار إليها فيلهلم. إذْ من غير من الممكن أن يكونا مرتبطين سببياً أحدهما بالآخر. وقد كان علم التنجيم مثالاً رائعاً عن التزامنية الظاهرة لو وضع بتصرفه مكتشفات مجربة بشكل شامل. لكن على الأقل ثمة بعض الحقائق المجربة بشكل شامل والمدعومة بثروة من الإحصاءات التي تجعل المسألة التنجيمية تبدو جديرة بالاستقصاء الفلسفي (لا يجد علم النفس أي صعوبة في الاعتراف بذلك، نظراً إلى أن علم التنجيم يمثل خلاصة كل المعرفة السايكولوجية للعصور القديمة).

تظهر حقيقة أنه من الممكن إعادة بناء شخص بشكل ملائم من بيانات ولادته (نجمه)، تظهر الشرعية النسبية لعلم التنجيم. مع ذلك، فإن بيانات الولادة لا تعتمد على الأبراج الفلكية الفعلية، بل على منظومة زمن

تصورية خالصة واعتباطية، لأنه بسبب انزياح الاعتدالين فإن نقطة الربيع قد تجاوزت منذ زمن طويل الدرجة صفر، برج الحمل، طالما وجدت تشخيصات تنجيمية صحيحة فعلاً، فإنها لا تعزى إلى تأثيرات الأبراج بل إلى خواص زمننا الافتراضية. بعبارة أخرى، أياً يكن ما يولد أو ينجز في هذه اللحظة من الزمن، فهو يمتلك خاصية هذه اللحظة من الزمن.

هذه هي أيضاً الصيغة الأساسية لأجل استعمال الآي تشينغ. فالمرء يكتسب المعرفة بالهكساغرام الذي يوصف اللحظة بطريقة التلاعب بعيدان نبات الألفية، أو القطع النقدية، وهي طريقة تعتمد على المصادفة المحضة. كما تكون اللحظة كذلك تقع العيدان. السؤال الوحيد هو: هل فسر الملك العجوز ون wen ودوق تشاو، قبل ألف عام من المسيح، بشكل صحيح اللوحة العرضية التي صنعتها العيدان الساقطة؟ فيما يتعلق بذلك، التجربة وحدها يمكنها الإجابة.

في محاضرته الأولى في النادي السيكولوجي في زوريخ، عرض فيلهلم، بناء على طلبي، طريقة الرجوع إلى الآي تشينغ، ورسم في الوقت نفسه، تكهناً تحقق في أقل من عامين بالحرف وبوضوح لا يُخطئ. هذه الحقيقة أمكن إثباتها بتجارب مماثلة كثيرة. مع ذلك، لست معنياً هنا بأن أثبت بشكل موضوعي صحة تنبؤات الآي تشينغ، بل سآخذها كمقدمة، كما فعل صديقي المرحوم. لذلك، سأناقش فقط الحقيقة المذهلة وهي أن الصفات الخفية للحظة الزمن أصبح مقروءاً بواسطة هكساغرام الآي تشيغ. يتعامل المرء مع ترابط الأحداث، الذي ليس مماثلاً للتنجيم فحسب، بل هو مرتبط به ارتباطاً جوهرياً. إن لحظة الولادة تقابل العيدان التي ترمى، والبرج يقابل الهكساغرام والتفسير التنجيمي الناجم عن البرج يقابل النص المخصص للهكساغرام.

إن نمط الفكر المبني على المبدأ التزامني، الذي بلغ أوجه في الآي تشينغ، هو أنقى تعبير عن التفكير الصيني عموماً. في الغرب كان هذا التفكير غائباً من تاريخ الفلسفة منذ زمن هيراقليطس Heraclitus، ولا يعاود الظهور إلا كصدى خافت لدى لايبنيتز. مع ذلك، لم ينطفئ في هذه الأثناء بل بقي حياً في فترة انحطاط التأمل التنجيمي، وبقي إلى هذا اليوم عند هذا المستوى.

يستجيب الآي تشينغ في زمننا للحاجة إلى المزيد من التطور لدينا. لقد تمتع الإيمان بالقوى الخفية Occultism بنهضة في عصرنا لا مثيل لها بشكل فعلي. إذ يكاد نور العقل الغربي أن يصبح مظلماً بفعله. وأنا لا أفكر الآن بهيئاتنا التعليمية وممثليها. فأنا طبيب وأتعامل مع الناس العاديين، ولذلك أعرف أن الجامعات قد كفت عن أن تتصرف كناشرة للتنوير. لقد أصبح الناس مدركين للتخصص العلمي والنزعة الفكرية العقلانية. هم يريدون أن يسمعوا حقائق توسع آفاقهم بدلاً من أن تضيقها، لا تعتم بل تنير، لا تنسل منهم مثل الماء، بل تخترقهم إلى النخاع. هذا البحث يهدد بأن يقود جمهوراً كبيراً، وإن يكن مجهول الاسم إلى مسارات خاطئة.

عندما أفكر بإنجاز فيلهلم وأهميته، فهذا يذكرني دوماً بأنكويتيل دوبيرون Anquetil – Duperron، الفرنسي الذي جلب أول ترجمة للأوبانيشادات إلى أوروبة في الفترة ذاتها عندما حدث شيء لم يُسمع به من قبل، بعد حوالي ثمانية عشر قرناً: ربة العقل أزاحت الله المسيحي عن العرش في نوتردام. اليوم، عندما تحدث أشياء أكثر لم يسمع بها في روسيا أكثر مما حدث في باريس، عندما يبدي الرمز المسيحي في أوروبة ذاتها مثل هذا الضعف، بحيث، حتى البوذيين، يعتبرون ذلك اللحظة المناسبة لأجل إرسال البعثات التبشيرية إلى أوروبة، فإن فيلهلم، الذي

يمثل روح أوروبة، هو الذي يجلب لنا نورا جديدا من الشرق. كانت هذه هي المهمة الثقافية التي شعر فيلهلم أنه مدعو إليها. فقد تأكد له كم يمكن للشرق أن يعطي لأجل شفاء محنتنا الروحية.

لا يساعد الإنسانَ الفقيرَ الحصولُ على صدقة، سواء قلت حاجته إليها أم كثرت، رغم أنها قد تكون رغبته. بل إن أفضل مساعدة له هي أن تبين له كيف يمكنه، بالعمل، أن يتحرر بشكل دائم من فاقته. لسوء الحظ، إن المتسولين الروحيين في زمننا هم أكثر ميلاً مما ينبغي إلى قبول صدقات الشرق بدون تعديل، أي، إلى انتحال ممتلكات الشرق بلا تفكير وإلى تقليد طريقته بشكل أعمى. ذاك هو الخطر الذي شعر به فيلهلم بشكل حي جداً. فأوروبة الروحية لا تكون مساعدتها بما هو مجرد إحساس جديد أو دغدغة جديدة للأعصاب. إن ما استغرقت الصين آلاف السنوات لبنائه لا يمكن الإمساك به بالسرقة. يجب علينا بدلاً من ذلك أن نستحقه لكي نمتلكه. ما يملكه الشرق ليعطينا إياه ينبغي أن يكون مجرد مساعدة في عمل لا يزال يتوجب علينا القيام به بأنفسنا. فأية فائدة لنا في حكمة الأوبانيشادات أو تبصرات اليوغا الصينية، إذا تخلينا عن أسس ثقافتنا الخاصة كما لو كانت أخطاء بقيت مع الزمن، واستوطنا مثل القراصنة المشردين، بنية اللصوصية على شواطئ أجنبية؟ إن تبصرات الشرق، وقبل كل شيء، حكمة الآي تشينغ، لا معنى لها عندما نقفل عقولنا عن مشاكلنا الخاصة، عندما نحجب عن أنفسنا طبيعتنا البشرية الحقيقية بكل اتجاهاتها الخفية الخطيرة وبقعها المظلمة. إن نور هذه الحكمة لا يشع إلا في الظلام، وليس في النور الكشاف المبهر لمسرح الوعي والإرادة الأوروبي. لقد نشأت حكمة الآي تشينغ عن خلفية يمكننا بتردد أن نشك برعبها، إذا قرأنا عن المجازر الصينية، عن السلطة الشريرة للمجتمعات السرية

الصينية، عن البؤس الذي لا اسم له، عن القذارة اليائسة والرذائل، عن الجماهير الصينية.

نحن في حاجة لأن تكون لنا حياة ثلاثية الأبعاد بشكل صحيح إذا كنا نرغب في اختبار الحكمة الصينية بوصفها كائناً حياً. لذلك، نحتاج أولاً إلى الحقائق الأوروبية حول أنفسنا. يبدأ طريقنا في الواقع الأوروبي وليس في ممارسات اليوغا التي تضللنا فقط إلى واقعنا الخاص. يجب أن نواصل عمل ترجمة فيلهلم بمعنى أوسع إذا كنا نرغب في إظهار أنفسنا تلاميذ جديرين للمعلم. مثلما ترجم الكنز الروحي للشرق إلى معنى أوروبي، ينبغي أن نترجم هذا المعنى إلى حياة.

لقد ترجم فيلهلم المفهوم الأساسي، الطاو، كـ "معنى". إن ترجمة المعنى إلى حياة، أي تحقيق الطاو، سيكون مهمة التلميذ. لكن الطاو لن يخلق أبداً بالكلمات والوصايا الذكية. هل نعرف بالضبط كيف ينشأ الطاو فينا أو حولنا؟ بالتقليد؟ بالعقل أم ببهلوانيات الإرادة؟ إننا نشعر أن كل ذلك غير متناسب بشكل مضحك مع المهمة. لكن أين سنبدأ بهذه المهمة التالية؟ هل ستكون روح فيلهم فينا أم معنا إذا لم نحل هذه المشكلة بطريقة أوروبية حقاً ـ أي، في الواقع؟ أم يجب أن يبقى هذا، في التحليل الأخير، سؤالاً بلاغياً يضيع جوابه في التصفيق؟

دعونا نتطلع نحو الشرق: ثمة قدر ساحق يتحقق. فالمدفع الأوروبي قد فجر بوابات آسية؛ العلم والتقانة الأوروبيان، العلمانية والجشع الأوروبيان، كل ذلك غمر الصين، لقد فتحنا الشرق سياسياً. هل تعرفون ماذا حدث عندما هزمت روما الشرق الأدنى سياسياً؟ روح الشرق دخلت روما. أصبح ميثرا Mithra هو الإله العسكري الروماني، ومن الركن الأضعف احتمالاً من آسية الصغرى جاءت إلى روما روحية جديدة. هل

كان من غير الوارد أن الشيء نفسه يمكن أن يحدث اليوم ويجدنا عميانا، مثلما كان الرومان المثقفون الذين أعجبوا بخرافات الـ Christoi؟ تجدر الإشارة إلى أن انكلترا وهولندا، القوتين المستعمرتين الرئيستين في آسية، هما أيضاً الأكثر ابتلاء بالثيوصوفية الهندوسية. أنا أعرف أن لاوعينا مليء بالرمزية الشرقية. إن روح الشرق هي حقاً عند بواباتنا. لذلك يبدو لي أن ترجمة المعنى إلى الحياة، البحث عن الطاو، أصبحت ظاهرة جمعية بيننا، وإلى حد أكبر مما يتصور عموماً.

في أهم إشارة في هذا العصر بالنسبة لي، أن فيلهلم وعالم الهنديات هاور Hauer قد طُلب منهما أن يحاضرا عن اليوغا في مؤتمر هذا العام للمعالجين النفسانيين الألمان. دعونا نفهم ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لطبيب ممارس يتعامل مباشرة مع شخص متألم، وبالتالي متقبل، أن يقيم احتكاكاً مع نظام علاجي شرقي. لهذا فإن روح الشرق تتخلل كل المسامات وتصل إلى الأماكن الأكثر انكشافاً من أوروبة. قد تكون إصابة خطيرة، لكنها ربما تكون شفاءً أيضاً.

إن بلبلة اللغات البابلية في الغرب قد خلقت هذا الفقدان لحس الاتجاه بحيث بات كل شخص يتوق إلى الحقائق الأبسط، أو على الأقل إلى الأفكار العامة التي تخاطب، ليس العقل وحده، بل القلب أيضاً، وهو ما يمنح الصفاء للعقل المتأمل، كما يمنح السلام لضغط المشاعر الذي لا يعرف الراحة. ومثل روما القديمة، نستورد مرة أخرى اليوم كل شكل من الخرافة المجلوبة على أمل أن نكتشف فيها العلاج الصحيح لمرضنا.

تعرف الغريزة البشرية أن كل حقيقة عظيمة تكون بسيطة، ولذلك فإن الإنسان الذي يكون ضعيفاً يفترض بالغريزة أن الحقيقة العظيمة توجد في

كل التبسيطات والتفاهات الرخيصة. أو، كنتيجة لخيبة الأمل هذه، يقع في الخطأ المعاكس، خطأ الاعتقاد بأن الحقيقة العظيمة يجب أن تكون غامضة ومعقدة قدر الإمكان.

توجد لدينا اليوم حركة غنوصية لدى الجماهير المغفلة الاسم توازي من الناحية السيكولوجية تلك الحركة الغنوصية التي وجدت منذ تسعة عشر قرناً. إن الجوالين المرتحلين اليوم، هم وحدهم مثل أبولونيوس قد غزلوا الخيوط الروحية من أوروبة رجوعاً إلى آسية، وربما إلى أقاصي الهند.

إنني أرى فيلهلم، منظوراً إليه من هذا المنظور التاريخي، في هيئة أحد أولئك الوسطاء الغنوصيين العظام الذين أدخلوا الإرث الثقافي لآسية الصغرى في احتكاك مع الروح الهيلينية، وبذلك تسببوا في نهوض عالم جديد من خرائب الامبراطورية الرومانية. عندئذ، كما الآن، أغرقت قارة الروح، فلم تترك سوى قمم منفردة تبرز مثل الجزر من الفيضان الذي لا حدود له. عندئذ، كما الآن، أغري العقل بكل أصناف الطرق الملتوية وأزهر قمح الأنبياء الزائفين.

وسط التنافر المزعج لآذان الرأي الأوروبي، يكون سماع اللغة البسيطة لفيلهلم، الرسول القادم من الصين، هو نعمة إلهية حقاً. كان من الواضح أنه قد تتلمذ في العفوية الطبيعية للعقل الصيني، القادر على التعبير عن أشياء عويصة الفهم بلغة بسيطة؛ إنها تكشف شيئاً من بساطة الحقيقة العظيمة ومن المعنى العميق. لقد استنبتت في تربة الغرب بذرة غضة، (الزهرة الذهبية) مانحة إيانا حدساً جديداً للحياة والمعنى، كخلاص من توتر الإرادة التعسفية والغطرسة.

في مواجهة ثقافة الشرق الغربية، أظهر فيلهلم درجة من التواضع غير معهودة إلى حد كبير لدى أوروبي. فقد قاربها بحرية، بدون حكم مسبق،

بدون زعم معرفة الأفضل، ففتح القلب والعقل عليها. ترك نفسه لها لتستحوذ عليه، وتشكله، بحيث أنه عندما عاد إلى أوروبة جلب لنا ليس في روحه فقط بل أيضاً، في كينونته، صورة حقيقية للشرق.

لم يكسب التحول العميق بالتأكيد بدون تضحيات كبيرة، لأن مقدماتنا التاريخية مختلفة كلياً عن مقدمات الشرق. إن حدة الوعي الغربي ومشاكله الفاضحة كان عليها أن تلين أمام الطبيعة الأكثر كونية والأكثر اطراداً للشرق. فالعقلانية الغربية وتمايزها الأحادي الجانب كان عليهما أن يستسلما للاتساع والبساطة الشرقيين. بالنسبة إلى فيلهلم، كان التغيير يعني بالتأكيد، ليس تحول الموقف الفكري فقط، بل إعادة ترتيب جوهرية للأجزاء المكونة لشخصيته أيضاً. إن صورة الشرق التي قدمها لنا، الخالية كما هو الحال من الغرضية ومن أي أثر للتعسفية، لم يكن من الممكن إبداعها بمثل هذا الكمال، لو لم يكن فيلهلم قادراً على ترك الأوروبي فيه ينسل إلى الخلفية. فلو سمح للشرق والغرب بأن يتصادما بداخله بقسوة شديدة، لفشل في مهمة إمدادنا بصورة حقيقية للصين. لقد كانت التضحية بالإنسان الأوروبي لا مفر منها وضرورية لأجل تنفيذ المهمة التي وضعها القدر عليه.

نفذ فيلهلم مهمته بالمعنى الأسمى للكلمة. فهو لم يجعل كنوز العقل الصيني الماضية متاحة لنا فقط، بل، كما أشرت سابقاً، جلب معه جذره الروحي، الجذر الذي بقي حياً طوال هذه الآلاف من السنوات، وزرعه في تربة أوروبة. بإكمال هذه المهمة، بلغت رسالته التبشيرية ذروتها ونهايتها، لسوء الحظ، نهايتها أيضاً. وفقاً لقانون انقلاب الأضداد، المفهوم بشكل واضح للغاية من قبل الصينين، تنشأ من نهاية طور بداية

ضده. هكذا، ينقلب اليانغ، في أوجه، إلى يين، وما كان موجباً يصبح سالباً. لم أقترب من فيلهلم إلا في السنوات الأخيرة من حياته، وعندئذ استطعت أن ألاحظ، مع إكمال عمل حياته، كيف أن أوروبة والإنسان الأوروبي صدماه بشكل أكثر قرباً، قمعاه في الحقيقة. في الوقت نفسه، تطور لديه الشعور بأنه قد يكون واقفاً على حافة تغير عظيم، ثورة لم يكن بوسعه، وهذا صحيح، أن يفهم طبيعتها بشكل واضح. كان يعرف فقط أنه يواجه أزمة حاسمة. إن اعتلاله الجسدي سار بالتوازي مع تطوره الروحي. فأحلامه كانت مليئة بالذكريات الصينية، لكن الصور التي تحوم أمامه كانت على الدوام حزينة وكئيبة، وبرهاناً واضحاً على أن المضامين قد أصبحت سلبية.

لا شيء يمكن التضحية به إلى الأبد. فكل شيء يعود فيما بعد في شكل متغير، وإلى حيث وقعت فيما مضى تضحية كبيرة للغاية. عندما يعود الشيء المضحى به، يجب أن يقابل بجسد لا يزال معافى ومقاوماً لكي يتلقى صدمة ثورة عظيمة. لذلك، فإن أزمة روحية بهذه الأبعاد تعني غالباً الموت إذا وقعت في جسد أضعفه المرض. لأن السكين القربانية في هذا الوقت تكون في يد من تمت التضحية به، ويكون المطلوب هو موت من كان في الماضي المضحي.

كما ترون، لم أكبح أفكاري الشخصية، لأنني لو لم أحك كيف تعرفت على فيلهلم، فكيف بغير ذلك سيكون ممكناً لي أن أتكلم عنه؟ إن عمل حياة فيلهلم هو ذو قيمة عظيمة بالنسبة لي، لأنه فسر وأثبت الكثير للغاية مما كنت أبحث عنه، وأكافح من أجله وأفكر فيه وأفعله لكي أواجه المعاناة النفسية لأوروبة. لقد كانت تجربة هائلة بالنسبة لي أن أسمع من خلاله، وبلغة واضحة، الأشياء التي قدمت لي مظللة بشكل قاتم،

والنابعة من تشوش اللاوعي الأوروبي. أشعر أنني حقاً قد اغتنيت كثيراً بفضله بحيث يبدو لي كما لو أنني تلقيت منه أكثر مما تلقيت من أي إنسان آخر، وهذا أيضاً هو السبب في أنني لا أشعر أنه من قبيل التبجح إذا كنت أنا من يقدم على مذبح ذكراه امتناننا واحترامنا جميعاً.

هوامش

(1) . ألقي هذا الخطاب التذكاري في ميونيخ في 10 مايو / أيار 1930. لم يُنشر مرفقا بكتاب سر الزهرة الذهبية بالألمانية حتى الطبعة الحالية، الخامسة، 1957. ثمة جملة أو جملتان أو عبارتان في النص الألماني كانتا متاحتين لي لا تظهران في النص الألماني لهذه الطبعة الخامسة، ولم تُحذفا من الطبعة المنقحة التي تلي تلي (س. ف. ب.).

(2) . آي تشينغ، أو كتاب التغيرات. ترجمة ربشارد فيلهلم، منقولة إلى الإنكليزية، قام بها كاري ف. باينز، سلسلة بولينغن، XIX، لندن ونيويورك، 1950.

المحتويات



على الروح أن يتكئ على العلم بما هو دليل له في عالم الواقع، وعلى العلم أن يلتفت إلى الروح من أجل معنى الحياة.

تلك هي وجهة النظر التي اعتمدها هذا الكتاب. حيث صار لدينا لأول مرة طريقة لفهم وتذوق الحكمة الشرقية، إذ انتُزِعَتْ من ميدان الميتافيزيقيا وَوُضِعَتْ في نطاق الخبرة السيكولوجية؛ في مأمن من التشويهات التي تعرّض لها الشرق على أيدي تجار المذاهب والنحل في الغرب.

لكن هذا الكتاب لا يعطينا مقاربة جديدة للشرق وحسب. وإنما يدعم أيضاً وجهة النظر التي تتطور في الغرب فيما يتعلق بالنفس. فصياغة جديدة للقيم الشائعة اليوم تخرِج الإنسان الحديث من عالم طفولة تقاليد الجماعة إلى عالم رجولة الاختيار الفردي؛ إذ يعلم أن اختياره وقدره باتا يتوقفان الآن على فهمه لنفسه.

إن "سر الزهرة الذهبية" ت منتزعاً من إطاره القديم - لهو سر قوى النمو الكامنة في النفس، وهذه القوى نفسها على نحو ما تتكشف لعقول الغربيين، تشكل أيضاً موضوع الشرح الذي تولاه عالم النفس الكبير: كارل غوستاف يونغ.




دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص. ب 1018 هاتف 422339

9 789933 477424